الرّباط المُقدّس



توفيق الحكيم

الرباط المقدس

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

كتب للمؤلف نشرت باللغة العربية

١ — محمد ﷺ (سيرة حوارية) ١٩٣٦
٢ — عودة الروح (رواية) ١٩٣٣
٣ — أهل الكهف (مسرحية) ١٩٣٣
٤ — شهرزاد (مسرحية) ١٩٣٤
٥ — يوميات نائب فى الأرياف (رواية) ١٩٣٧
٦ — عصفور من الشرق (رواية) ١٩٣٨
٧ — تحت شمس الفكر (مقالات) ١٩٣٨
٨ — أشعب (رواية) ١٩٣٨
٩ — عهد الشيطان (قصص فلسفية) ١٩٣٨
١٠ — حمارى قال لى (مقالات) ١٩٣٨
١١ — براكسا أو مشكلة الحكم (مسرحية) ١٩٣٩
١٢ — راقصة المعبد (روايات قصيرة) ١٩٣٩
١٣ — نشيد الأنشاد (كما فى التوراة) ١٩٤٠
١٤ — حمار الحكيم (رواية) ١٩٤٠
١٥ — سلطان الظلام (قصص سياسية) ١٩٤١
١٦ — من البرج العاجى (مقالات قصيرة) ١٩٤١
١٧ — تحت المصباح الأخضر (مقالات) ١٩٤٢
١٨ — بجماليون (مسرحية) ١٩٤٢
١٩ — سليمان الحكيم (مسرحية) ١٩٤٣
٢٠ — زهرة العمر (سيرة ذاتية — رسائل) ١٩٤٣
٢١ — الرباط المقدس (رواية) ١٩٤٤

كتب للمؤلف نشرت فى لغة أجنبية

شهر زاد : ترجم ونشر فى باريس عام ١٩٣٦ بمقدمة لجورج لكونت عضو الأكاديمية الفرنسية فى دار نشر (نوفيل أديسيون لاتين) وترجم إلى الإنجليزية فى دار النشر (بيلوت) بلندن ثم فى دار النشر (كروان) بنيويورك فى عام ١٩٤٥ . وبأمريكا دار نشر (ثرى كنتننتزا بريس) واشنطن ١٩٨١ .

عودة الروح : ترجم ونشر بالروسية فى لينينجراد عام ١٩٢٥ وبالفرنسية فى باريس عام ١٩٣٧ فى دار (فاسكيل) للنشر وبالإنجليزية فى واشنطن ١٩٨٤ .

يوميات نائب فى الأرياف : ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٣٩ (طبعة أولى) وفى عام ١٩٤٢ (طبعة ثانية) وفى عام ١٩٧٤ و١٩٧٨ (طبعة ثالثة ورابعة وخامسة بدار بلون بباريس) وترجم ونشر بالعبرية عام ١٩٤٥ وترجم ونشر باللغة الإنجليزية فى دار (هارفيل) للنشر بلندن عام ١٩٤٧ — ترجمة أبا إيبان — ترجم إلى الأسبانية فى مدريد عام ١٩٤٨ وترجم ونشر فى السويد عام ١٩٥٥ ، وترجم ونشر بالألمانية عام ١٩٦١ وبالرومانية عام ١٩٦٢ وبالروسية عام ١٩٦١ .

أهل الكهف : ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤٠ بتمهيد تاريخى لجاستون فييت الأستاذ بالكوليج دى فرانس ثم ترجم إلى الإيطالية بروما عام ١٩٤٥ وبميلانو عام ١٩٦٢ وبالأسبانية فى مدريد عام ١٩٤٦ .

عصفور من الشرق : ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤٦ طبعة أولى ،

ونشر طبعة ثانية فى باريس عام ١٩٦٠ .

عدالة وفن : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس بعنوان (مذكرات قضائى شاعر) عام ١٩٦١ .

بجماليون : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

الملك أوديب : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ ، وبالإنجليزيـــة فى أمريكـــا بدار نشر (ثرى كنتننتـــــزا بريس) بواشنطن ١٩٨١ .

سليمان الحكيم : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ وبالإنجليزية فى أمريكا بدار نشر (كنتننتزا بريس) بواشنطن ١٩٨١ .

نهر الجنون : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

عرف كيف يموت : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

المخرج : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠

بيت النمل : ترجـــم ونشر بالفرنسيـــة فى باريس عام ١٩٥٠ . وبالإيطالية فى روما عام ١٩٦٢ .

الزمار : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

براكسا أو مشكلة الحكم.: ترجـم ونشر بالفرنسيـة فى باريس عام ١٩٥٠ .

السياسة والسلام : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ . وبالإنجليزيـــة فى أمريكـــا بدار نشر (ثرى كنتننتـــــز بريس) بواشنطن ١٩٨١ .

شمس النهار : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

صلاة الملائكة : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

الطعام لكل فم : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

الأيدى الناعمة : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

شاعر على القمر : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن ١٩٨١ .

الورطة : ترجم ونشر بالإنجليزية فى أمريكا (ثرى كنتننتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

الشيطان فى خطر : ترجم بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .

بين يوم وليلة : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ وبالأسبانية فى مدريد عام ١٩٦٣ .

العش الهادئ : ترجم بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .

أريد أن أقتل : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .

الساحرة : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٣ .

دقت الساعة : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .

أنشودة الموت : ترجم ونشر بالإنجليزية فى لندن هاينمان عام ١٩٧٣ وبالأسبانية فى مدريد عام ١٩٥٣ .

لو عرف الشباب : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .

الكنز : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .

رحلة إلى الغد : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٦٠ . وبالإنجليزية فى أمريكا بدار نشر (ثرى كنتننتز بريس) بواشنطن عام ١٩٨١ .

الموت والحب : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٦٠ .

السلطان الحائر : ترجم ونشر بالإنجليزية لندن هاينمان عام ١٩٧٣

وبالإيطالية فى روما عام ١٩٦٤ .

يا طالع الشجرة : ترجمة دنيس جونسون دافيز ونشر بالإنجليزية فى لندن عام ١٩٦٦ فى دار نشر أكسفورد يونيفرستى بريس (الترجمات الفرنسية عن دار نشر « نوفيل إيديسيون لاتين » بباريس) .

مصير صرصار : ترجمة دنيس جونسون دافيز عام ١٩٧٣ .

مع : كل شيء فى مكانه .

السلطان الحائر .

نشيد الموت .

لنفس المترجم عن دار نشر هاينمان — لندن .

الشهيد : ترجمة داود بشاى (بالإنجليزية) جمع محمود المنزلاوى تحت عنوان « أدبنا اليوم » مطبوعات الجامعة الأمريكية بالقاهرة — ١٩٦٨ .

محمد ﷺ ترجمة د . إبراهيم الموجى ١٩٦٤ (بالإنجليزية) نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية . طبعة ثانية مكتبة الآداب ١٩٨٣ .

المرأة التى غلبت الشيطان : ترجمة تويليت إلى الألمانية عام ١٩٧٦ ونشر روتن ولوننج ببرلين .

عودة الوعى : ترجمة إنجليزية عام ١٩٧٩ لبيلى ونلدر ونشر دار ماكملان — لندن .

١

راهب الفكر

كان — فى عباءته وقلنسوته — يشبه حقا الراهب .. هكذا كان يرتدى وهو فى بيته ، ولعل هذا المظهر كان يتفق مع لون حياته ، تلك الحياة الهادئة بين الكتب والورق ، الراكدة كمداد المحبرة !... ما كان لديه قط شيء يجرى ، حتى ولا أيامه ، فهى لتشابهها تبدو كأنها واقفة لا تسير ، أو أنها تجمعت كلها واندمجت فصارت يوما لا يزول !... ومع ذلك ، فقد كان هنالك سيل متدفق يجرى عنه بغير انقطاع فى غمرة الناس ، ولكنه كان يلقى إليهم دائما بفكره يسعى بينهم ويؤثر فى نفوسهم ... كان شأنه شأن ذلك الجالس على الشط ، يلقى الفتات إلى السمك ، وينظر إليها تجتمع عليه وتفترق ... ولقد كان لكتاباته وقع ، ولآرائه صدى ...

وقد أحس تبعة تأثيره فى الناس فأخذ عمله مأخذ الجد ، ولم يشأ أن يخادع الناس فيقول ما لا يعمل ، إنه كان يؤمن بأن واجب رجل الفكر والقلم أن يدخل على البشر الإيمان بأن فى إمكانهم أن يسموا على أنفسهم ، وأن هذا الواجب يفرض عليه أن يعيش هو حياة سامية لا مطعن فيها ولا غبار عليها ...

لقد كان دائما يزدرى أولئك الذين ينشرون على الناس أدبا رفيعا وجمالا بديعا ، ثم يعيشون حياة كلها ضعة وخسة وقبح ... الكاتب الحق

فى نظره هو مثل يحتذى فى باطنه وظاهره ، وإن لم يكن كذلك فهو إذن مهرج ، يلبس للناس على الورق ثياب الملوك ، فإذا خلا بنفسه خلعها ، فبدا فى حقارته كأنه شحاذ ... كان هذا هو السبب فى التجائه إلى تلك الحياة الصارمة ... لم يكن فى بيته أحد معه غير خادم قديم يقوم على خدمته ، ويدبر له معاشه ، ويقضى له حاجاته ، ولم تكن له حوائج كثيرة ، فقد كان أقصى ما يطلبه بعد المطالعة والتأمل ، مجرد الجلوس إلى خزانة كتبه ، لا يصنع شيئا غير تنظيم صفوفها ، وترتيب فروعها ، ترتيبا لا تخطئه اليد فى الظلام !...

لقد كان دائما يقرأ فى فراشه قبل النوم ، وكان يعن له أحيانا أن يحضر من خزانته كتاباً فى علم من العلوم أو فن من الفنون ، فما كان يفعل أكثر من أن يمد يده ، فيستخرجه من موضعه دون الحاجة إلى إضاءة المصباح ... لقد تدربت أصابع يده على التمييز بين الكتب ، فأمست وكأنها تقرأ عنوانها باللمس ، وكانت أقدامه تدور به فى الحجرة كلما أراد التفكير ، فلا تستقر به فى مقعد إلا إذا استقر به الفكر على أمر .. أما عيناه وأذناه فهى بالضرورة عماده الأول فى مهمته ... لكأنه جند حواسه كلها ، وحشدها لخدمة فكره ...

لقد كان يلذ له أن ينفق لحظاته الضائعة فى النظر إلى كعوب الكتب المصفوفة ، يقرأ أسماء مؤلفيها الخالدين واحداً واحداً ، كأنهم جنود أبطال يستعرضهم بعد النزال ، فكان لا يملك نفسه من الصياح فى القاعة الساكنة : « هؤلاء حركوا العالم ، وساروا بالإنسانية ... إنى أشعر بينهم وأنا فى هذه العزلة والركود أن كل شىء من حولى حركة دائمة .. كل شىء ساكن ، خلا الفكر ... ما الفكر إلا الحركة الكبرى !... » .

أقرب القول فى هذا الرجل أنه كان يذكر بصورة « رجل الأدب » كما وصفه « كارليل » : « نور الدنيا وكاهنها الذى يقودها ، كأنه عمود النار المقدس ، فى جوها المظلم خلال هباء الزمن ، وفضاء الأحقاب » .

ذلك كان الرجل ، وتلك كانت حياته ... بسيطة متجردة ... إنه لم يكن ينظر إلى ملذات الدنيا إلا على أنها جرعات متقطعة ، يطفىء بها ظمأه ، وينشط بها قواه فى صحرائه الجرداء ، ولكنها لم تكن غذاءه اليومى ولا شرابه الدائم ... لقد كان يشتاق أحياناً إلى الأكلة الدسمة الفاخرة ، ولكن طعامه المعتاد كان شيئا لا يكاد يقيم الأود ، ولقد كان يسير فيه على نظام شبه صحى ، لا ينحرف عنه إلا إذا دعته الظروف ، أو قهرته نفسه التواقة إلى الطيب الطريف من طعام أو شراب ، فيتناول الأكلة الشهية تناول الملتذ الذواقة ، ثم يجىء اليوم التالى ، فإذا هو يعود إلى نظامه القديم الصارم وأكله البسيط ومائه القراح .

كذلك كان فى السهر وما اقترن به من متع ! ... فهو يحرص على النوم فى موعده ، والاعتكاف فى حجرته ، ولكن هذا لا يمنعه من أن يشذ عن نظامه ليلة ، فيسهر كما يسهر الناس ، ويصنع مثل ما يصنعون ، ويعرف من ألوان المتع ما يعرفون ... ثم يصحون فى الغد ، فتحدث أعجوبته : وهى نسيانه ما حدث ، واعتباره كل ما نعم به البارحة قطرات لا بد منها بين حين وحين ، لمواصلة سيره الحثيث وأداء واجبه المفروض ، ويندفعون فيها ، ولا يملكون فى نفوسهم تلك الأداة ، التى توقف اندفاعهم حيث ينبغى الوقوف ...

لعل أكبر قوة عند هذا الرجل هى قوة المقاومة : مقاومته لنفسه إذا شرب أحيانا من كأس الحياة ، فإنه كان يعرف بالضبط متى وأين يقف ،

ويستطيع بكل عزم أن يقول لنفسه « كفى » . لذلك لم يشتهر عنه حب الحياة ، ولم يعرف عنه الانغماس فى ضرب من ضروب اللهو ، بل لم يسمع أحد عن اتصاله بامرأة من النساء بالذات ، وكان هو حريصا على أن يجهل الناس تلك النواحى منه ، وأن يعرفوا زهده فى ذلك ، وقلة احتفاله بهذه الأشياء ... على أن هنالك فائدة كبرى جناها من هذه المزية : مزية « مقاومة النفس » كما كان يسميها ! ... إن نظام البساطة الذى أخذ به نفسه فى شئون الدنيا قد حال بينه وبين الترهل والهرم الباكر ! ... ما من أحد يراه إلا قدر له سنا أقل من سنه الحقيقية ... لقد كان فى وجهه نضارة شاب فى الثلاثين ، ولولا وخط الشيب برأسه لما عرفت الأيام كيف تنال منه ! ... كان شأنه فى ذلك شأن كهنة المصريين القدماء الذين وصفهم « بلوتاركس » بقوله : « إنهم كانوا يراعون نظاما دقيقا فى مأكلهم ومشربهم ، لأن القداسة والصحة يسيران فى نظرهم جنبا إلى جنب ، فكانوا لا يسرفون فى أكل اللحم ولا بعض الخضر ، ولا حتى فى شرب ماء النيل ، لزعمهم أن الإكثار من مائه يسمن ، كما يدسم الأرض ! ... » .

إن البدانة كانت عندهم من عيوب الكهانة ، فهم كانوا حريصين على أن يغلفوا نفوسهم بأجسام نشيطة خفيفة ، حتى لا يختنق ما فى أرواحهم من جوهر إلـٰهى تحت ثقل المادة الفانية ! ... » .

ما من كاهن مصرى كان بدينا ، وما من كاهن مصرى عرف الناس حقيقة عمره ، فهم دائما نحاف الأجسام يبدو عليهم الشباب دائما ، كأن الآلهة قد منحتهم قوة مقاومة الزمن ... والحقيقة أنهم ما أعطوا قوة مقاومة الزمن ... بل أعطوا قوة مقاومة أنفسهم ... ومن ظفر بالأخيرة فقد ظفر بالأولى ، وهذا ما فهمه « راهب الفكر » وعمل به ...

هكذا كان يعيش ذلك الرجل ... حياة رحبة فى نظره ، مضيئة زاخرة بشتى الألوان !... ضوءها لا ينبعث من ثريات المراقص والملاهى والحانات ، فقد كانت حياة الليل عنده هى حياة النفس فى اتصالها النبيل ، بما يقرأ فى ساعات السكون ، وفى إصغائها الطويل إلى الخواطر والأفكار التى تغمر عالمه الصامت ...

أما حياة النهار عنده ، فكانت فى الصباح ، مطالعة الصحف والبريد الوافد عليه من داخل مصر وخارجها ، ثم الخروج للسير على الأقدام ساعة فى الطرقات ، ينظر فى واجهات المكتبات ، ويعود بعدئذ فيجلس إلى مكتبه ، وهو يوصى خادمه بإغلاق النوافذ ، حتى لا تزعجه زقزقة عصفور من عصافير الكنارى التى فى قفص لدى الجيران ... ثم يكتب الساعات الطوال إلى أن يناديه خادمه للمائدة ، مرة ومرتين ، وهو مستغرق فى عمله لا ينتبه ، حتى يثقل عليه الخادم بالإلحاح ويخرجه قسرا مما هو فيه ، فيلقى بالقلم متبرما وينهض متذمرا ، كأنه مسوق إلى حيث يجلد لا إلى حيث يطعم ...

* * *

فى ذلك اليوم الذى بدأت فيه هذه القصة ، جلس « راهب الفكر » — كعادته فى الصباح — إلى بريده ، يفض الرسائل الآتية إليه من قرائه ، وكانت تلك اللحظة من أمتع اللحظات عنده ، فقد كان يلذ له هذا النحو من الاتصال الفكرى بأولئك الذين يكتب لهم ، ويكد من أجلهم دون أن يراهم ... على أنه قلما كان يعنى بالرد على رسالة من تلك الرسائل ، لا عن ترفع أو تصنع ، بل لأنه كان يعتقد أنه قد قال كل شىء لقارئه فى كتبه التى تطبع وتنشر ، وأن رسائل القراء ليست إلا ردهم على ما سبق أن

وجهه إليهم من صفحات ، وضع لهم فيها أثمن ما ادخره من عصارة الذهن على مدى الأيام !...

على أنه فى ذلك الصباح ، وقعت فى يده رسالة ، استوقفت نظره ، واسترعت التفاته : هى رسالة من فتاة تقول : إنها فى الثانية والعشرين ، وإنها تريد الاشتغال بالأدب ، وتسأله بإصرار أن يأذن لها فى مقابلته ، كى تبسط له أمرها وتتلقى رأيه فيه ... ولم تذكر اسمها ولا عنوانها ... ولكنها قالت : إنها ستخاطبه بالتليفون ، لتعلم منه الموعد الذى قد يضرب للقاء !...

عجب لهذا الخطاب ، لأنه لم يكن على غرار الخطابات النسوية التى اعتاد أن يتلقاها ، فقد كانت فيه نبرة جد ، وكان أسلوبه موجزا ، ولم يجد تلك الثرثرة التى يلجأ إليها عادة بعض العابثات من النساء والفتيات ، وما أكثر رسائلهن إليه . وما أكثر طلبهن له بالتليفون ، ذلك الطلب الذى كان يتحاشاه ، مكلفا خادمه بالرد عنه ، والمبادرة إلى إنهاء كل محادثة لا غرض منها ولا طائل ... ولكن هذا الخطاب الجدى شىء آخر ...

إن هذه الفتاة سارت إلى غايتها قدما ، وأفصحت عن بغيتها النبيلة فى سطرين ، فكيف يردها عن هذا الغرض ، أو يصدها عن هذه الغاية ؟... إن واجبه يحتم عليه لقاءها ...

وغرق فى مقعده ، وجعل يرسم لهذه الفتاة صورا فى رأسه : كيف هى ؟... وماذا يمكن أن تكون ؟... إنه يعرف المرأة التى تعطى الفكر حياتها ... هى ولا شك المرأة التى لم تجد رجلا تمنحه هذه الحياة !... ولكنها فى الثانية والعشرين ، كما قالت ، أى فى ريعان الصبا ونضارة الشباب ، إذن لعلها تشعر أن الطبيعة قد جردتها من ذلك السحر الذى

تسيطر به على قلب الرجل ... والمرأة إذا جردت من هذا الرداء الساحر ، فليس أمامها إلا أن ترتدى مسوح الراهبات !... ولعل فى تلك المسوح قوة خفية أو روعة أخرى ، قد تستخدمها المرأة فى طرق باب الأمل من جديد !... على أى حال لا بأس من مقابلة الفتاة ... وانقضى أكثر النهار ، وجاء العصر ، فدق جرس « التليفون » ، فهرع إليه الخادم ، ثم أعلن سيده بخبر الفتاة وسؤالها عن الموعد ، فأمره أن يضرب لها موعدا للزيارة فى صباح اليوم التالى ...

* * *

جاء الغد ... وجلس « راهب الفكر » إلى مكتبه وانحنى على ورقه وعمله ، وإذا الباب يطرق ، ثم ظهر خادمه بعد قليل ينبئه بقدوم الفتاة ... فأذن له فى إدخالها عليه ، دون أن يبدى حراكا ، أو يبدو عليه اهتمام ، فقد لبث غارقا فى شأنه ... إلى أن فطن إلى حفيف ثوب على مقربة منه ... رفع رأسه ونظر ... وإذا الدهش يعقد لسانه ... ذلك أن بصره لم يكد يقع على الفتاة التى أمامه حتى انقلب كل شىء فى رأسه ، وفسدت الصور التى نسجتها مخيلته فى سرعة البرق ، فالفتاة التى أمامه جميلة رشيقة أنيقة !... إنها من ذلك الطراز الذى يخطر فى حلبات السباق فى أحدث الأزياء ، ناثراً فى الهواء أحدث العطور تاركا خلفه فى كل خطوة آلاف النظرات والحسرات والتنهدات !... إنها من ذلك الطراز الذى يرى فى المقاصير الأولى من المسارح ، ليالى الافتتاح ، فيلقى الهمس والافتتان فى صدور الجماهير !...

اضطرب أمره ، وقال فى نفسه : « ليس هاهنا مكان هذه الفتاة » !... رأت هى ما به فبادرت بالتحية ، وقالت فى ابتسامة ، وهى

تجلس حيث أشار إليها بالجلوس :

ـــ أريد منك يا أستاذ ، أن تصارحنى فى كل شيء !...

فقال لها كالمخاطب لنفسه وعينه ما تزال تفحصها :

ـــ بل أنا الذى يرجو أن تصارحينى بكل شيء !..

فأطرقت قليلا ، وقد أرخت أهداباً ألقت على خدها ظلالا :

ـــ إنى يا سيدى .. أحب الأدب !...

فقال على الفور بسخرية بريئة من الاستهزاء :

ـــ إن الأدب يا سيدتى يتشرف بهذا الحب ...

وبدا على وجهه الارتياب ، فقال : لكن ...

ـــ لكن ؟...

ـــ ماذا تقصدين بالضبط أيتها الآنسة ؟... أرجو منك أن تفصحى قليلا ... فإنى لم أفهم بعد كما ينبغى !...

فأطرقت مرة أخرى ، وكأنها لا تعرف كيف تبدأ الحديث ... ثم رفعت عينيها ، وأخذت تتأمل المكان الذى يعيش فيه ذلك الأديب ، فلم تجد شيئا باسماً : فلا زهرة متفتحة ، ولا أثاث أنيق ، ولا حيطان زاهية اللون ، ولا ضوء كثير باهر ...

فرأى كأن صدرها قد ضاق ، وأنها تريد التنفس ، وأن شفتيها القرمزيتين تهتزان ، وأنها تكاد تصيح على الرغم منها :

ـــ أهذا جو الأدب !...

ولحظها تنظر إلى النافذة وهى عارية ، ليس عليها أستار ، وأمامها بناء عال يحجب عنها الشمس ... فخيل إليه أنها تقول له :

ـــ أيكفيك هذا النور ؟...

فأجابها بهدوء :

— يكفينا دائما النور المضيء في نفوسنا !...

فلم يبد على الفتاة أنها فهمت عنه ، فإن سطور وجهها ما زالت تنم عن خيبة الأمل !...

على أن الذى أدهشه هو بقاؤها بعد ذلك !...

ما الذى دفعها إلى المجيء ؟... وما الذى يربطها إلى هذا المقعد الساعة ؟... ونظر إليها مليا ، ثم قال :

— إذا صدقت فراستى أيتها الآنسة فأنت لم تخلقى للأدب !...

فقالت فى غير تحمس ... وهى تبحث بعينيها عبثا عن مرآة فى الحجرة ...

— لِم لا ؟...

فلم يحر جوابا !... ولم يستطع طبعا أن يذكر لها السبب : إنها جميلة ... إن الأدب قد يعطى الأديب « حياته » ، لكنه لا يعطى الأدب « جماله » وأراد أن يستخرج سرها فقال لها :

— أى أنواع الأدب تحبين ؟...

فظهر عليها الارتباك ، لكنها أسرعت تخفيه بحركة من يدها ، ففتحت بها حقيبتها الصغيرة ، وأخرجت منها مرآتها وأصبع أحمرها ، وجعلت تتزين وهى تقول :

— لست أفضل نوعا على نوع ...

فحدد إليها النظر ، ثم سألها فجأة :

— لماذا شرفتنى بالزيارة ؟...

فأجابت ، وهى تنظر فى مرآتها الصغيرة :

— لأنى سمعت عنك كثيرا ...

— أقرأت لى شيئا ؟...

— بالطبع ...

— ماذا قرأت لى ؟...

— آه ...

وتظاهرت بالنسيان ومحاولة التذكر ، فلم يرد المضى فى إحراجها ، ولزم الصمت ، وجعلت أصابعه تعبث لحظة برسالتها ، وأدرك أن هذه الفتاة تسخر منه ، فما أكثر الفتيات المغرورات اللاتى يلذ لهن مداعبة الرجال المعتزلين ، والهزء بالنساك ، المترهبين !... فقال لها فى شيء من الجفاء :

— أيتها الآنسة !... لماذا كتبت إلىّ تقولين إنك تريدين الاشتغال بالأدب ؟...

فقالت وهى تعيد مرآتها وإصبع أحمرها إلى حقيبتها :

— لأنى أريد ذلك ... أهو شيء عسير : الاشتغال بالأدب ؟...

فلم يعرف كيف يجيبها ، وشعر فى نفسه بما يشعر به رجل الدين ، إذ يرى شخصا يقذف محرابه بحصاة ... ولعلها رأت منه ذلك ، فهى لا تخلو من ذكاء يلمع فى عينيها الجميلتين ، فبادرت تقول له :

— أأعترف لك بالحقيقة ؟...

وصمتت قليلا ... وتأمل نفسه فى جلسته وعباءته وقلنسوته ، وتأمل عبارتها الأخيرة ، فخيل إليه أنه « راهب تاييس » يحادث الغانية ، ورفعت الفتاة رأسها ، وأقبلت عليه تقول :

— الحقيقة أنى لا أحب الأدب ... ولم أقرأ كتابا قط منذ تركى

المدرسة ، ولا شيء يثقل على نفسى مثل الكتابة والقراءة ... إنى لا أكتب رسالة إلى إحدى صديقاتى ... حتى أتناول بعدها قرصا من « الأسبيرين » !... إنى أحب « السينما » وسباق الخيل ، والرقص والموسيقى !...

فقاطعها قائلا :

— « الجاز » طبعا !...

فقالت فى نبرة المتحدث عن شيء مفهوم بالبداهة :

— طبعا !!...

فتنهد ، وقال كالمخاطب لنفسه :

— ألم أقل إن فراستى قد صدقت ؟...

ولم تترك له الفتاة وقتا للمضى فى الكلام ، فأسرعت تقول :

— نعم ... ولكنى مع ذلك أريد ...

— تريدين ؟...

فارتفع صوتها بقوة وعزيمة :

— نعم أريد ... أريد أن أحب الأدب !...

فلبث فمه مفتوحا من الدهشة ، ولم يدر ماذا يقول لهذه الفتاة المدللة ...

— أتحسبين أيتها الآنسة أن الأدب فتى جميل من فتيان الرقص، أو حصان « فافورى » من خيول السباق ؟...

فتجهم وجه الجميلة ، وأسدلت أهدابها الطويلة ... ورأى كأن عراكا عنيفا يهز أرجاء نفسها ... وأخيرا انتفضت ، وقالت متوسلة :

— أرجوك !... أرجوك ... لا تردنى خائبة يائسة !...

فأطرق لحظة ، ثم قال مترفقا :

ـــ أنا طوع أمرك يا سيدتى ، لكن ... فلنتكلم فى حدود المعقول !...

ـــ نعم ، اجعلنى أحب الأدب بأى ثمن ، مهما كلفنى الثمن ...

ـــ هذا يا سيدتى غير معقول ... كيف أجعلك تحبينه ؟...

ـــ لماذا لا تستطيع ؟...

ـــ لأن الحب لا يطلب ولا يشترى ، وأنت أدرى منى بذلك !...

فهمست فى ألم :

ـــ نعم ، هذا صحيح !... آه !...

وأثر فى نفسه يأسها ، وذكر أنه لم يسألها بعد عما يدفعها بعد إلى هذا الطلب الغريب ، فالتفت إليها يستوضحها الأمر ... فأسرعت قائلة :

ـــ لا تسألنى !... ما الفائدة ما دمت لا تملك لى شيئا ؟...

ونهضت تريد الانصراف ، فنهض وهو يفكر فى أمرها ، ومدت إليه يدها مودعة وهى تقول :

ـــ إنى آسفة لإزعاجك !... إنى فتاة حمقاء ... كنت أعتقد أن كل شىء فى الإمكان !...

فقال لها ويدها فى يده :

ـــ نعم ، كل شىء فى الإمكان ما دامت الإرادة قوية ، والدافع نبيلا !...

فجذبت يدها بلطف ، وقالت على عجل :

ـــ وإذا ضمنت لك قوة الإرادة ، ونبل الدافع ، أتعدنى بالمساعدة ؟...

ورأى فى عينيها بريقا ينم عن أمل متجدد ، فشق عليه أن يطفئه

بكلمة ، غير أنه خشى أن يقطع على نفسه عهدا لا يستطيع الوفاء به ، وهو يجهل بعد كل شيء فى الموقف ، فهو فى ضباب ، الكلام يجرى فى أمور ، يختلف معناها باختلاف المتكلم ، وكلمة « الأدب » لها عنده مدلول غير ما عند الفتاة ، ولم يحسن بعد إدراك مرادها ، ولا يأسها ، ولا رجائها ، فقال :

— أيتها الآنسة ... لن أعد بشيء حتى أفهم ... أليس لى الحق أن أفهم على الأقل أصل الموضوع ؟!...

ففكرت قليلا ، ثم التفتت إليه قائلة :

— أرجو منك ألا تطلب إلىّ أسماء ... لن أقول لك اسمى ولا اسم أسرتى ... كل ما أستطيع الإفضاء به إليك هو : أن لى خطيبا أحبه ويحبى ، وهو مثلى الأعلى الذى كنت أحلم به دائما !... ليس فيه عيب غير أمر واحد أنه يحب القراءة فى كتب الأدب !... إنه يذهب بى إلى « السينما » ، وإلى سباق الخيل ... ويحادثنى فى كل ما أحب ، ولا أستطيع أنا أن أحادثه فيما يحب !... إنه يسمينى « الفتاة الطائشة » ، ويغتفر لى كل شيء إلا ذلك الصمت الطويل الذى يدب بيننا ، إذ يفرغ الحديث فيما يسميه « تفاهاتى وحماقاتى ». إنه يقول لى دائما : إن الهوة السحيقة فى حياتنا الزوجية هى أنه لن يستطيع أن يحادثنى فى شئون الفكر !...

إنى لن أنسى كلمة قالها لى يوما : « لن يحدث الزواج بيننا ذلك الاتصال التام الذى طالما تمنيته فى زوجتى ، فإن نصف الحياة ، وهى حياة الفكر ... ستبقى دائما خارج نطاق الزوجية ... فأنت يا « ... » لن يكون لك منى غير نصفى !...

ولقد حاول المسكين أن يضع بين يدى كتبا فكنت أطرحها فى ضجر ... إنى أمقت الكتب ، ولكنى أريد أن يكون لى النصف الآخر من زوجى !... أريد أن يكون كله لى : جسمه وفكره ...

إنه يحب أيضا لعب « التنيس » .. وكنت أنا لا أميل إلى « التنيس » ولا ألعبه ، ولكن بإرادتى استطعت أن أتعلمه وأتذوقه وأحبه ، فى مدى بضعة أشهر !... لقد نجحت إرادتى فى كل شيء إلا فى الكتب ... لذلك جئت أطلب معونتك !...

إن خطيبى يحب كتبك ، وقد قال لى إنها بسيطة الأسلوب وتصلح لى ، ولكنى للأسف ، أعترف لك أنها ثقيلة على نفسى ، كغيرها من الكتب ... إن الدواء عندك ولا شك يا سيدى ... إنى أعتقد أن خالق الداء قد خلق له الدواء ... إن كل سعادتى الزوجية هى الآن بين يديك !... أرشدنى !... كيف تستطيع فتاة طائشة مثلى أن تصلح أمرها ليرتفع شأنها فى عين زوجها ؟... أهنالك أمل فى أن يصبح فكرى فى مستوى فكره ؟... تكلم يا سيدى !... أليس لمثلى أمل فى اجتياز أعتاب تلك المنطقة ، السامية المقدسة ، التى تسمونها منطقة « الفكر » ؟... وهل كتب علىّ إلى الأبد أن أبقى خارجها أتطلع إليها !...

وسكتت الفتاة ... وتركت « راهب الفكر » واقفا فى شبه ذهول ، تدوى فى أذنه عبارتها الأخيرة الباكية ... لأول مرة فى حياته أدرك أن رجل الأدب ، له رسالة تماثل رسالة رجل الدين !... لطالما كتب يصف هذا التماثل ، ولكن لم يوقن أن الأمر حقيقة واقعة إلا اليوم ، ومرة أخرى طافت برأسه صورة « راهب تاييس » !...

إن تلك الغانية اللعوب ، جاءت الراهب تجر وراءها كل ماضيها

الغارق فى الضلالة والزيغ ، وطرقت باب صومعته ... تلتمس أن يكشف لها عن نور الحق !... أتراه قد أبى عليها وردها يائسة ؟... لا ... ليس من حق راهب أن يصد إنسانا عن نور الله ... هو أيضا ذلك الخادم من خدام الفكر ، والراهب المنقطع لنشر نوره ... بأى حق يزرع اليأس فى قلب من يريد وجهه ؟...

وهنا أيضا ، أدرك أن عليه واجبا آخر ، غير واجب الخلق والتأليف ... نعم ... عليه أن يمد يده — على قدر الإمكان — لتلك النفوس المسكينة العمياء !... فيفتح نوافذها رويدا رويدا لنور الفكر الدافق ...

ورفع رأسه ، والتفت إلى الفتاة قائلا :

— اعتمدى علىّ !...

٢

تاييس فى التنيس

مضت سبع ليال ، وهو يفكر فى أمر تلك الفتاة ، لقد وعدها بالمعونة وتركها تعتمد عليه ، ولقد ذهبت على أن تعود إليه ، ولقد تم بينهما الاتفاق على أن تزوره مرة كل أسبوع ، ولكنه حتى الآن لم يعرف السبيل إلى هداية هذه الفتاة إلى دين « الفكر » ... لقد بدأ يداخله الشك فى نجاح مهمته ... إن الراهب الدينى يستطيع أن يهدى الغانية الضالة إلى حظيرة السماء بغير عناء ، لأن جمال الفضيلة ظاهر للعيان ، وفكرة الخير والشر فى ذاتها لا تحتاج إلى برهان ، ومبادئ العقائد الإلـٰهية فى مقدورها — بغير إعداد طويل ، أو تدليل وتعليل — أن تنفذ وشيكا إلى القلوب ... أما شئون الفكر والأدب فهى شىء لا يغرس فى كل الأحيان غرسا ... إنها نزعة من نزعات الطبع ، قد تولد فى الإنسان أو لا تولد ، فكيف يلقى بذورا فى أرض لم يهيئها ربها للإنبات والإزهار ... ولكن ... مهلا ، فى اعتقاده أن كل نفس إنسانية قد هيأها ربها لالتقاط طيب البذور ، وأعدها لاستقبال نور الجمال ، إنما العبرة بالباذر ، والأمر مرهون بقدرة الكاشف عن أسرار الحسن العلوى ... لا ينبغى أن يرتاب مرة أخرى فى رسالة راهب الفكر ، ولا يجب أن يضيع بعد اليوم وقتا فى مذاكرة هذه المسألة ، إنما عليه أن يوجه همه إلى التفكير فى الطريقة التى سيتبعها فى معونة

الفتاة ...

وضاق صدره من طول البحث عبثا كل تلك الليالى ، وخطر له أن يسترشد بما فعله « راهب تاييس » ، فمد يده إلى كتاب « أناتول فرانس » ... إنه لم يفتحه منذ نحو عشرين سنة ، ولقد نسي ما فيه ، فغرق بين صفحاته ليلتين ... عجبا !... لكأنه يقرؤه للمرة الأولى ... إنه لم يفرغ منه بعد ، لقد قرأ أكثر من نصفه ، فاتضحت لعينه أشياء ، فصاح لنفسه : « ما أشقى الآدميين !... لقد كتب عليهم العمى ، وهم يحسبون أن لهم عيونا مبصرة ، إنا لا نبصر حقيقة الأشياء إلا بعيوننا الداخلية ، ولا ندرك حقيقة الأمور إلا باتصالها ، واصطدامها بجوهر مشاعرنا ... إنى مهما بلغت من سمو العقل وذروة الفكر ، ما كنت أنفذ إلى أعماق الراهب « بافنوس » إلا اليوم ... نعم اليوم ، لأنى أشعر بما كان يشعر به ، وأحس أن الظروف تضعنى فى الموقف الذى وضعته فيه ... هنالك مع ذلك فرق بيننا :

إنه هو الذى ترك صومعته فى بطن الصحراء ، ومشى الليالى الطويلة حافى الأقدام ، يطأ الحشرات ، ويأكل عشب الأرض ، ليذهب إلى الغانية الجميلة « تاييس » فى مدينة « الإسكندرية » ، كى يهديها إلى نور السماء ... إنه تجشم من أجلها الأخطار والأهوال ... ما الذى حمله على ذلك ؟... إن تلك الفكرة لم تنشأ فى رأسه إلا فجأة ذات مساء ، إذ خطر له طيفها الجميل ، وذكر رؤيته إياها أول مرة فى مدينة البحر ، قبل أن يهب الدين حياته ، وذكر تحرقه شوقا إليها فى ذلك الوقت ، مثل غيره من بقية المغرمين ، ولكن حب العقيدة طوى حب المرأة ، فاعتصم بالوحدة فى قلب الصحراء ، حتى بدا له اليوم ذلك الخاطر العجيب : أن يقوم

بتلك المعجزة ، ويربح هذه الغانية للدين ، وطفق يلتهم الصفحات شوقا للوصول إلى ذلك الموقف من الكتاب ، حيث يقف « بافنوس » أمام « تاييس » ، ليعرف وسائله ، ويفقه كلماته ، التى استطاعت أن تهز تلك النفس الزائغة ، وتبهر تلك الأعين الناعسة ، وتفتح ذلك القلب الفاجر العابث ، لجمال نبيل ، لم يكن له به من قبل عهد !...

كانت تلك الكلمات التى انطلق بها لسان الراهب « بافنوس » إذ وقف وجها لوجه ، أمام الجميلة هى هذه :

« إنى أحبك يا « تاييس » ، أحبك أكثر من حياتى ، وأكثر من ذاتى !... من أجلك غادرت صحرائى !... من أجلك لفظت شفتاى — المكتوب عليهما الصمت — ما لا ينبغى أن يسمع ... من أجلك اضطربت نفسى ، وتفتح قلبى ، وانبعثت منه أفكار ، كأنها ينابيع دافقة يرددها الطير والحمام ، ومن أجلك مشيت الليل والنهار ، خائضا غمار رمال تسكنها العفاريت !... من أجلك سرت بقدمى العارية فوق العقارب والثعابين !... نعم !...

أحبك ، لا على مثال هؤلاء الرجال الذين يجيئونك محترقين فى مطالب الجسد ، كأنهم الذئاب . أحبك فى الله ، ولدهور الدهور !... إن ما أحمله لك ليس ما تحمله الذئاب الضارية ، أو الثيران الثائرة ... إنك محبوبة لدى هؤلاء ، ولكنه حب السبع للغزال !... إن غرامهم المفترس يفتك بك حتى قرارة نفسك ، أما أنا أيتها المرأة ، فإنى أحبك حب الروح ، حب الحقيقة !... الحب فى صدرى هو حرارة الحق ... هو الإحسان الإلـٰهى !. وإنى لأعدك بما هو خير من النشوة الفانية ، والحلم الزائل !... أعدك بأفراح السماء !... إن النعيم الذى آتيك به لا ينتهى أبدا !... إنه لعجب من العجب !... إنه لإعجاز

يفوق كل إعجاز !... ولو قدر لسعداء هذه الدنيا أن يلمحوا مجرد ظله لخروا فى الحال أمواتا من الدهشة !...

أيتها السماء !... اشهدى !... إنى لن أترك هذه المرأة حتى أضع فى جسدها روحا مماثلا لروحى ، فألهمينى كلاما ملتهبا يذيبها ، كما تذوب الشمعة تحت أنفاسى ...

« أيتها المرأة ، ألا فلتكن أصابعى قادرة على أن تصنعك من جديد ، وتطبعك بطابع جمال جديد لتصيحى بعدئذ ، وأنت تذرفين العبرات من الفرح » :

« اليوم فقط قد ولدت ، اليوم فقط رأيت النور !. »

لم يقرأ أكثر من ذلك ، لقد أدرك النتيجة !... إن هذا الرجل الذى يستطيع أن يلقى فى أذن امرأة مثل هذه الكلمات لا بد بالغ منها ما يريد !... إن المرأة ، هذه الزهرة الأرضية السماوية فى آن ، لتتفتح أكامها لمجرد تساقط لفظ « الحب » الندى ، مهما يكن الثوب الذى اتخذه « الحب » ومهما تكن غاياته ومراميه !... إن إيمان المرأة هو الحب ... ها هنا السبيل الهين السهل ، الذى يوصل المرأة إلى الإيمان ، إلى كل إيمان ، وعندئذ اختلج قلبه ... إن موقفه من هذه الفتاة يختلف وينبغى أن يختلف عن موقف الراهب من الغانية ، لا لأن قلبه لا يستطيع أن يمتلئ حبا بهذه الفتاة ، بل لأنه لا ينبغى له أن يفعل ، ومع ذلك فإن الحب أيضا هو الذى قاد الفتاة إلى مكان عزلته ، مجتازة صحراءه الفكرية على قدميها الصغيرتين ، وحذائها ذى الكعب العالى الذى لم يطأ غير البساط الوثير ، والرخام اللامع ، والزهر المتساقط على عشب الحدائق . نعم ، حبها لخطيبها المثقف هو الذى أتى بها من عالمها إلى عالم هذا المفكر .

ولبث ينتظرها هذا الصباح فى ساعة الموعد ، فلم تأت . فقال لنفسه وهو يتنفس الصعداء :

لقد استردها عالمها المضيء وجذبتها دنياها البراقة ، وكفيت أنا مئونة الفخ فى دمية من طين وتراب !...

على أنه لم يستطع أن يخفى ما قام فى أعماق نفسه من اضطراب ، ليس يدرى له سببا ، ولا يفهم له تعليلا : إنما هو نوع من الشعور بالأسف العميق على ماذا ؟... ولماذا !... لا يستطيع أن يجيب ، فالأمر يخرج عن نطاق ذهنه الواعى !...

وطرق الباب بغتة ، وظهر رجل نوبى فى ثياب نظيفة أعلمه أنه سائق سيارتها ، وقدم إليه رسالة منها وانصرف ، إنها تعتذر عن تخلفها عن الميعاد ، وتقول إنها الآن فى لباس « التنيس » ... وإنها خجلت من القدوم إليه والمثول فى حضرة « كاهن الفكر » بهذه الثياب ، وإنها لا تجد بعد من نفسها الشجاعة على تضحية مثل هذا الصباح الرطب الجميل فى سبيل شيء وإن كان هذا الشيء هو الأدب والفكر ... وإنها الساعة تستنشق الهواء بملء رئتيها ، وتعرض شعرها المرسل وذراعيها العاريتين لشمس هذا الشتاء البديع ، وإنها تتأمل النيل يلمع فى مجراه الأخضر ، كأنه سيف ملقى فوق أعشاب حديقة ، أو كأنه شريط من الفضة فوق قبعة خضراء ... وهنا تسأله الصفح عن إيراد هذا التشبيه ، فهى لم تنس بعد أنها امرأة ، وأن طراز القبعات الحديث ما زال يشغل من التفاتها أكثر مكان ، وختمت كلامها بتكرير التماس المغفرة ، راجية منه أن يستبعد ما قد يخالجه من سوء ظن بها ، وأن يثق بثباتها على العهد ، وتمسكها برغبتها ، وإيمانها بقوة عزيمتها ، ونجاحها آخر الأمر فيما وطنت النفس

عليه ، من السمو بروحها وفكرها إلى المستوى اللائق بخطيبها الحبيب إلى قلبها !...

إنها كتبت بالطبع هذه الرسالة بخط سريع ردىء ، وعبارات لا تخلو من أخطاء فى الهجاء ، وأسلوب فطرى أقرب إلى أسلوبها فى الحديث من أسلوب الكاتب فى الأداء ، ولكن ... أى نفحة عاطرة تنبعث من هذا الكلام ؟... وأى نفس حية ذكية تكاد تثب من بين هذه السطور ؟... إذا صدق ظنه فإن هذه الفتاة نبع صاف لا ينقصه غير الكشف عن أعماقه ، حتى يتدفق ماؤه العذب ، يروى النفوس وينعش الأذهان ... إن جوهر الروح الأدبى عند هذه الفتاة وهى لا تدرى !... فالأدب روح قبل كل شىء ، أما الأسلوب فأداة تكتسب فيما بعد بالمران الكثير ، والصبر الطويل ، وليس المنشود لهذه الفتاة فيما يعتقد حذق الأسلوب الأدبى ، من حيث هو خلق وإنشاء بل من حيث هو روح يضىء داخل نفسها البلورية ، فينطلق لسانها بالحديث الرفيع ، ويطلق من صدرها المشاهد العالية والأفكار السامية !.

آه !... إن سبيله الآن قد أشرق بالنهار المبين ، وعمله تحددت خطوطه وأركانه !... إنه يريد هو أيضا أن يخلق هذه الفتاة خلقا جديدا ، وأن يجعل منها عروسا تمرح بشعرها المرسل وروحها المضىء ، فى مروج الفكر الرحبة المزهرة ، يريد أن يجعلها ملكة من ملكات المجالس ، ممن جاءت أخبارهن فى التواريخ ، تعرف كيف تمس بصولجان روحها نفوس الرجال ، كما يمس المرود العين ، فإذا تلك النفوس قد تفتحت لترى ما لم تر ، وإذا النشاط قد دب بها فتثمر القرائح وتنهض الهمم،وإذا الخير قد

فاض ، والحياة قد نبضت فى الأشياء والكائنات .

آه !... إن المرأة هى كنز الكنوز ، ولكنه مدفون فى سابع طبقات الأرض ، فمن ذا يستخرجه غير ساحر من حذاق الكهان ... بل هى معجزة المعجزات ، مطوية فى سابع طبقات السماء ، فمن ذا يستنزلها غير راهب شديد الإخلاص ، قوى الإيمان ؟؟!...

٣

الجميلة تقـرأ

مضى أسبوع آخر ، وجلس ذلك الصباح ينتظر ... إنه اليوم المحدد لمجيئها ، وخطر له خاطر فقام إلى النافذة يبحث عن الشمس . إنها مختفية خلف الغمام ، والنهار قاتم ، والجو بارد ... لا شيء يحول إذن بينها وبين الحضور ... ولم يخب ظنه ، فما أن وافت الساعة حتى طرق بابه ، ودخلت الفتاة فى معطف من الفراء الثمين ، وحيته بابتسامة مرحة ، وأخذت تخلع قفازها ، وتقول :

ـــ هاأنذى أجىء بلا تأخير !...

فنظر إلى النافذة ، وقال بنبرة تهكم غير ملحوظ :

ـــ « التنيس » هذا الصباح غير مرغوب فيه ؟!...

فقالت بصوت الجاد :

ـــ نعم ، الطبيعة كئيبة والشمس غائبة !...

فقال من الفوز :

ـــ فعلى الأدب إذن أن يبتسم لك ، ويشرق !...

فسرها هذا الجواب ، وجلست أمامه ، كالطفل « العاقل » الذى ينتظر تفاحة بهيجة تقدم له بعد قليل ، ومرت لحظة دون أن يقول شيئا ، ولم يعرف فى الحقيقة ما يقول ولا ما يصنع !... وجعلت عينه تفحص

فراءها ووجهها وشعرها ، الذى يلمح فيه يد الخلاق البارع ومكواه !...
وذكر عندئذ — ليس يدرى لماذا — تلك الكلمات الملتهبة التى قاله
الراهب بافنوس ، مخاطبا « تاييس » ، فاختلج قلبه ، لكنه ملك نفسا
سريعا ، وضحك للمقارنة ، ضحكة خفيفة مفتعلة فهمتها الفتاة بالطبع
على غير وجهها ، فأسرعت تقول :

— أترانى لست جديرة ؟...

لفظتها أيضا كالطفل الذى يخشى أن يحرم الهبة الموعودة ، فقال لها وهو
يفكر مطرقا وكأنه يناجى نفسه :

— إنك جديرة أن أجنبك مرارة الدواء ... إنك تكرهين الكتب ،
ولست أدرى كيف أقدم لك الأدب بغير الكتب ، ويشق على نفسى أن
أرغمك على ما تكرهين !...

وسكت ، وجعل يتأمل ما قال ، فخيل إليه أنه مخطىء ، لا شىء
يكتسب على هذه الأرض بغير جهد وبغير إرغام النفس على الكد ، وكلما
سما الغرض كبرت المشقة !... إنه أمام هذه الفتاة كأب أمام طفله ، فلا
ينبغى أن يحجم عن أخذها بالشدة إذا اقتضى الأمر ذلك ، ينبغى أن تحب
الكتب إذا أرادت لفكرها سموا ، ولا شىء غير ذلك ، فليكن حاسما قاطعا
فى القول ، فإما أن تذعن وتروض نفسها على حب المطالعة وتصغى إلى
نصحه ، وتصدع بأمره ، وتبدى على الأقل حسن استعدادها لمعاونته فى
الخطة التى ينتهجها لها ، وإما أن تنصرف من الآن غير آملة فى شىء ، فإنه
لا يصنع المستحيل . وتغير وجهه واتخذت ملامحه لونا آخر كله صرامة
وفتح فمه ليعلنها بكل هذا ، ولكن شيئا أغلق فمه وسكن ثائره !...
إنه خوف غامض يسبح فى أعماق نفسه !...

نعم ، إنه يخاف أن ينفر هذا العصفور الجميل ، فينطلق هاربا زاهدا فى تعلم التغريد على يده . قانعا بما كان فيه من زقزقة جوفاء فوق الغصون ، و نظر إليها مترددا حائراً :

— أيتها الآنسة !...

وأدركت بذكائها شيئا كثيرا مما يجول بخاطره ، فبادرت تقول له :

— لا تخف !... إنى سأقوم بما تأمرنى به ... لقد قلت لك إنى قوية الإرادة !...

فتشجع وقال لها :

— أتقرئين ؟!...

فقالت فى الحال :

— كل ما تأمرنى بقراءته !...

فاندفع قائلا :

— وتكتبين ؟!...

فقالت بغير توقف :

— كل ما تأمرنى بكتابته !...

فصاح فرحا :

— المسألة إذن قد حلت !...

فقالت مع شيء من التفكير :

— نعم ، إنى أستطيع أن أجد دائما وقتا كافيا قبل النوم للقراءة والكتابة ، وأنا فى فراشى تحت مصباحى الوردى ، لكن هناك صعوبة واحدة ...

فقال قلقا :

ــ ما هى ؟!...

فقالت كالمخاطبة لنفسها :

ــ إنك بالطبع ستمتحننى فيما أقرأ ... وأقول لك مقدما إنى ساقطة فى الإمتحان !...

فضحك :

ــ إنك تسيئين الظن بقيمتك !...

فابتسمت :

ــ لا ، إن عيبى الأكبر هو أنى لا أطيق مطلقا أن أقف موقف من يؤدى امتحانا .. إن كل ما قرأت يطير من رأسى عند ذلك كالدخان ، ولن أستطيع أن أثبت لك أنى قرأت بالفعل ...

فبدا على وجهه الارتياب :

ــ أيتها الآنسة !... أتتخابثين علىّ ، وتدبرين من الآن خطة الهروب ؟...

فضحكت عن ثغرها البديع :

ــ ثق أن فكرة الهرب بعيدة عن رأسى ، ولكنى أبين لك مواضع ضعفى حتى تكون على حذر !...

فتفكر فى قولها لحظة ، ثم صاح كمن وجد الفرج :

ــ اسمعى أيتها الآنسة !... لقد اهتديت إلى وسيلة ترضيك ...

ــ ما هى ؟...

ــ ما قولك فى أنى أنا الذى يقف بين يديك موقف من يؤدى الامتحان ؟...

فضحكت ، حتى كادت تدمع عيناها ، وهى تقول :

— أنت ؟... أنا أمتحنك أنت ؟...

— ولِم لا ؟...

وتناول كتابا قريبا من يده ، وقال لها :

— ستقرئين هذا الكتاب ، وعند زيارتك المعتادة فى الأسبوع المقبل ، توجهين إلىّ ما شئت من أسئلة ، ولن أوجه أنا إليك سؤالا واحدا :...

فنظرت إليه نظرة من يقول : « يا لك من ماكر » ولم يسعها إلا الإذعان ، ثم تناولت من يده الكتاب ، ووزنته فى كفها ، وقالت :

— أقرأ كل هذا فى أسبوع ؟...

فأجابها :

— اقرئى بعضه ، اقرئى عشر صفحات ، أو خمسا ... لست أطلب إليك قراءة كتاب بأكمله ... أنا نفسى ، قلما أقرأ كتابا بأكمله .

فنظرت إليه دهشة :

— عجبا ... وكيف تلم بموضوع الكتاب إذن ؟..

فقال لها باسما :

— ليس يعنينى فى كل الأحوال الإلمام بموضوع الكتاب !... إن مثلى مثل الطاهى الذى يدخل مطابخ الآخرين ... إنه ليس محتاجا فى كل مرة أن يتناول أكلة كاملة ، ليحكم على جودة الصناعة ، بل يكفيه أن يأخذ « لعقة » من كل إناء ، فيدرك فى الحال كيف صنع اللون ، وما استعمل فى إعداده ، وماذا أدخل فى تركيبه .

فقالت :

— ولكنى أنا ...

ففهم مرادها :

— نعم أنت أيضا أكتفى منك بهذا القدر ... إن الأسئلة التى ستوجهينها إلىّ عن الصفحات التى قرأتها ، ستدلنى على مبلغ نفوذك فى عالم المعانى ، فكمية الصفحات التى تقرئينها لا دخل لها فى الأمر إلا من حيث تذوقك ، وعدم تذوقك لما تقرئين ...

فصمتت قليلا ، وأرخت أهدابها ، وفتحت الكتاب وجعلت تقلب صفحاته وهى تفكر ثم قالت فى براءة وسذاجة ، وهى تقرأ عنوان الكتاب :

— « تاييس » ... من « تاييس » ؟... حتى أعود إليك الأسبوع القادم ، رافعة الرأس !...

فأجاب ، وقد ابتسم ابتسامة غامضة :

— ستعرفين ، إذا قرأت !...

* * *

نعم ... كان الكتاب الذى وضعه بين يدى الفتاة ، هو كتاب « أناتول فرانس » ... لماذا فعل ذلك على وجه التحقيق ؟... ألأنه كان قريبا من متناول يده تلك اللحظة ، أم أنه تدبير مقصود ؟... فى الواقع إنهما معا !...

إن هذا الكتاب قد فرغ من قراءته البارحة ، ولم يقرأه حديثا إلا من أجلها هى ، ويود لو تقرؤه هى أيضا ، ففيه مواقف يجب أن يعرف مدى فهمها إياها ... ومن يدرى ؟... لعل اختيار هذا الكتاب لها من أول الأمر توفيق منه ، فقد تدرك منه بعقلها أو بشعورها قداسة ذلك الجمال العلوى ، الذى نبذت فى سبيله « تاييس » كل عرض الدنيا وثرائها وبهجتها ، وهذا بعض ما يريد لهذه الفتاة : أن يغمر قلبها نور جديد ،

مبعثه السماء لا الأرض ، وأن تؤمن إيمانا صادقا بالجمال المعنوى ، الذى لا تعرف اليوم معناه ولا مداه ... كل هذا قد تستشفه من قراءة « تاييس ». يخشى أن يستطيع ذكاؤها إماطة اللثام عن شخصية الراهب « بافنوس » ، وأن تنفذ عيناها إلى أعماق عواطفه ، فترى ما لا يريد لها الآن أن تراه ... لماذا ؟... وهنا اختلجت نفسه مرة أخرى ... لا ، إن المقارنة بعيدة ، وينبغى دائما أن تكون بعيدة ، إذا فطنت الفتاة إلى أى شبه بينه وبين « بافنوس » ، فقد انتهى كل شىء بينهما ... إنه لن يتردد يومئذ عن رجائها فى عدم المجىء !...

* * *

ونهضت بالكتاب ... ووضعت قفازها فى أصابعها ، ومدت يدها مودعة :

ـــ أرجو ألا يشغلنى شىء عن قراءة هذا الكتاب ، حتى أعود إليك الأسبوع القادم ، رافعة الرأس !...

وابتسمت ، ولكن الهواجس كانت ما تزال تساوره ، فمد يده إليها ، لا للتحية ، بل لاسترداد الكتاب :

ـــ أخشى أن أكون قد أسأت الاختيار ، ردى هذا الكتاب ، وخذى كتابا آخر ...

وظهر القلق والاضطراب جليا فى صوته وتفرست الفتاة بعينيها البراقتين فى وجهه ، وقالت بعزيمة :

ـــ لا ... إنى أريد أن أعرف من هى « تاييس » !.

٤

هل قرأت ؟

عادت الفتاة بعد أسبوع وطرحت أمامه الكتاب ، وتنفست الصعداء ، كأنها تلقى حملا ثقيلا ... فبادر يسألها ، وهو يحد البصر إليها قلقا :

ــ أقرأته ؟...

فتجنبت النظر إليه ... وقالت :

ــ بضع صفحات وضاق صدرى ...

فتنفس الصعداء هو الآخر اطمئنانا ... إنها إذن لم تعرف شيئا مما احتواه ، غير أن شعور الراحة هذا لم يطل كثيرا ، فسرعان ما انقلب الأمر ، وأحس الأسف والغيظ وخيبة الرجاء لما حدث . فالتفت إليها قائلا فى صوت الحانق :

ــ إذن فشلت التجربة !...

فقالت وهى تصبغ شفتيها بأصبع الأحمر :

ــ ليس الذنب ذنبى !...

فلم يعجبه هذا الجواب ، ولم يرض كثيرا عن مسلكها ، وهم أن ينتهرها طالبا إليها أن تكف عن هذا التزين والتصنع فى حضرته ، وأن تحرص قليلا على احترام الفكر ، ولكنه ذكر أن ليس له عليها هذا الحق وأن

الذنب حقيقة ذنبه ، إذ أسرف فى حسن الظن بمثلها ووضع بين يديها كتابا لا تستطيع أن تقدر قيمته ...

وفرغت من أمر بهرجها ، فالتفتت إليه وقرأت على وجهه كل تلك المشاعر ، ثم ابتسمت وقالت :

ــ أغضبت ؟... ألم تقل لى إنك تكتفى منى بقراءة بضع صفحات ؟... ها أنذى قد فعلت !...

نعم !... لقد قال لها ذلك حقا ، فما الذى أغضبه ؟... لا شك أن فى نفسه منبعا مجهولا تنبعث منه كل هذه المشاعر المتناقضة ...

فنظر إليها وقد عاد إليه الهدوء :

ــ نعم !...

ثم فكر قليلا ، وقال وهو يعبث بصفحات الكتاب :

ــ وما الذى منعك عن المضى فى قراءته ؟...

فقالت وهى مطرقة :

ــ الملل !...

ــ إنه ليس كتابا مملا ... شهد الله لقد استيقظت فى جوف الليل لأقرأ فيه ، ولم يستطع النوم أن يقهرنى وهو معى !!...

فقالت له بابتسامة غامضة :

ــ لا أعجب .. إنك تحب سير الرهبان والمعتزلين ، أما أنا فما الذى يحملنى على متابعة القراءة فى صفحات كلها وصف لنساك الصحراء الذين يعيشون فى بطون الرمال مع العقارب والثعابين وينفقون شبابهم وأعمارهم مع أطياف الملائكة وأشباح العفاريت ؟!...

ونظرت الفتاة حولها على الرغم منها ، وجال بصرها فى المكان ،

وانتقلت عيناها سريعا إلى أكداس الكتب القديمة المرصوصة ، كأنها المقابر تحوى أفكارا بغير جماجم ، وأرواحا بغير أجساد ، إلى النافذة المغلقة التى تحجب الشمس والهواء ، كأنها فوهة جب أو كوة دير ، إلى ذلك المصباح الأخضر الذى يشرف على حياته المظلمة بأجنحته النورانية ، كأنه ملاك لطيف ، ويفترس فى ذات الوقت أعمار لياليه الجميلة ليلة ليلة ، كأنه غول أو عفريت مخيف !..

وعاد بصرها من هذه الرحلة فى أنحاء المكان ، ووقع عليه وأحس شعاع عينيها ينفذ فى روحه فأطرق ...

وساد صمت ، قطعته الفتاة بقولها :

— إنى بدأت أرتاب ...

لفظتها فى صوت منخفض ، وكأنها تخاطب نفسها ...

فرفع رأسه وقد سرت فى جسمه رعدة ، وأراد أن يستفسرها مرمى عبارتها ، ولكنها سبقت فى الكلام ...

— أتذكر يوم جئتك أول مرة ورأيت نور الشمس لا يدخل هذا المكان ؟...

فقال كمن لا يفهم المقصود :

— نعم أذكر !...

فمضت تقول :

— أتذكر بماذا أجبتنى عند ذاك ؟...

— لا ... لست أذكر !...

فقالت للفور :

— لقد كان جوابك : إنا نكتفى دائما بالنور المضىء فى نفوسنا !...

فقال ، كمن يؤمن على قول بديهى ، أو نص سماوى :

ـ هذا صحيح !...

فبادرت تقول :

ـ ... هذا ليس بصحيح !...

فحملق فيها دهشا ، ورأت اتساع حدقتيه ، فقالت باسمة :

ـ أيدهشك هذا القول ؟... أظنك ستدهش أيضا إذا قلت لك شيئا آخر !...

ـ ماذا ستقولين ؟...

ـ شيئا لا يخطر لك على بال !...

ـ إذن قولى واسرعى !...

فقالت بتؤدة :

ـ أريد أن أرجو منك ، أن تشرفنى بالحضور ، لمشاهدتى فى لعب « التنيس » صباح الغد !...

فنظر إليها مليا ليرى مبلغ جدها من هزلها ، ونظرت إليه خائفة لترى مبلغ حلمه من غضبه ... وفكر هو فى الأمر : ماذا يقول لهذه الفتاة ؟!... لكن ... قبل كل شيء لا ينبغى أن يثور ، وليأخذ الأمور باللين والرفق :

ـ أيتها الآنسة ، ماذا تقصدين ؟...

فنظرت إليه بعينين متسعتين :

ـ أكلامى مغلق مظلم يحتاج إلى نور كثير ؟...

ـ من غير شك !...

فحدجته بنظرة غريبة :

— تقول هذا ، أنت الذى اعتدت الحياة فيما هو مغلق مظلم !...

فصدمته هذه الجملة ... ولكنها أسرعت تشير بيدها إلى المكان :

— لست أقصد طبعا غير هذا !...

فلم يحر جوابا، ولبث بلا حراك ينظر إليها ويسأل نفسه: أتراها ترسل الكلام بسيطا بريئا، أم أنها تنطق بكلام مبطن بمعان أخرى غير المدلول الظاهر؟... إذا كان هذا الأمر الأخير فهو عجب من العجب!... وله أن يبحث عما ترمى إليه أولا، وعما علمها لغة الرموز ثانيا...

على أنه يحسن به أن يحتاط ، فلا شيء منها ينم بعد عن اتجاه بعينه ، وينبغى دائما أن يسيء الظن بهواجسه ، فليست هذه أول مرة تختلط فيها الأشياء برأسه ... إن خياله الذى اعتاد طويلا خلق الأشباح من الحقائق ، وذهنه الذى تعمره مخلوقات بعضها يعيش فى الحياة ، وبعضها يعيش فى الكتب ، ونفسه التى تسبح فى أعماقها عوالم . وتقوم بين طياتها دول ، وتدول دول ، وتشرق شموس وتغيب شموس ، وروحه المنعزلة التى تدور فى فلك لها بسدمها بعيدة عن مدار الأرض . كل هذا يقصيه أحيانا عن حقائق هذه الحياة ، ويضعه فى موضع من يرى الدنيا من خلال كرة بلورية ، تحملها يد ساحر ساحر فوق دخان البخور وغمام الأوهام !...

على أن هذا الساحر فى حالته إنما هو هو نفسه !... نعم هو الذى صنع بيده كرة البلور، هو الذى خلق من مادة ذهنه دنيا أخرى مماثلة للأولى، هو الذى يضع كلا العالمين فى كف، وإذا هو يلعب بالكرتين لعب الحواة حتى التبس عليه الأمر، وما عاد يميز عالم الوهم من عالم الحقيقة!... نعم... تلك كارثته الكبرى، وتلك هى النقمة التى تصب على كل ساحر!...

***

واسترسل فى تأملاته حتى كاد ينسى وجود الفتاة ، وإذا صوتها الرقيق ينبهه ويخرجه إلى منطقة الوعى :

— لم أتلق جوابك بعد ... أتأتى لمشاهدتى غدا ؟...

— لمشاهدتك غدا ؟...

— فى لعب « التنيس » ، كما قلت لك !...

— ما شاء الله !... ما شاء الله !...

فقالت باسمة :

— ليس هذا جوابا !...

فقال حانقا :

— أهنئك وأهنئ نفسى لهذا النجاح الباهر !... لم يكفنا العجز عن إدخالك عالم الفكر ، حتى تعملى أنت على إخراجى إلى عالم اللعب !!...

فراعه منها أنها ضحكت ... نعم ، ضحكت بفمها الجميل ضحك المسرور المرح ، ومضت فى ذلك وأكثرت ، حتى كادت تضحكه ، وخشى على جلال موقفه ، وعلى طبيعته الجادة ، وعلى سمو العلاقة التى بينهما ، ونبل الغاية التى يرمى إليها ، فملك نفسه فى الحال ، وقال بشىء من الصرامة :

— أخبرينى ، كيف خطرت لك هذه الفكرة ؟... وما الذى دفعك اليوم إلى مثل هذا الطلب ؟... وكيف تهيأ لك أن تحادثينى فى مثل هذه الأشياء ؟... ولماذا ؟...

فقاطعته قائلة :

— السبب بسيط ...

وسكتت كالمفكرة ، فاستعجلها :

ــ ما هو هذا السبب البسيط ؟...

فرفعت رأسها :

ــ تلك الصفحات التى قرأتها من كتاب « تاييس » أفهمتنى أن الراهب « بافنوس » هو الذى ذهب إلى الغانية فى ملعبها لينتشلها ... أنت أيضا ينبغي أن تفعل ذلك ... يجب أن تهبط إلى ملعبى لترتفع بى ... هكذا فعل الرسل والأنبياء دائما !... يهبطون إلى الناس ، حتى يستطيعوا بعد ذلك أن يصعدوا بهم إلى السماء ، ولم يحدث قط غير ذلك ، ولا تنتظر أن أصعد أنا إليك توا بغير أن تهبط أنت إلىّ وتأخذ بيدى !...

سمع منها هذا الكلام وهو لا يكاد يصدق أذنه ... ولقد اشتبه عليه الأمر ، وخيل إليه أنها سريرته التى تدوى بهذا الكلام وتصبه فى أذنه ... ولكن فم الفتاة يتحرك ، وصوتها ينطلق جليا صافيا كأنه يتدفق من ينبوع !...

لقد أدهشه قول الفتاة حقيقة ، وعجب أن شفتيها اللتين لا تعرفان غير مس إصبع الأحمر ، يمكن أن يخرج من بينهما هذا الكلام العميق ... نعم إن الرسل والأنبياء ينبغى أن يتركوا سماءهم ، ويهبطوا إلى الأرض كى يصعدوا بالبشر !...

هنا قوة الأنبياء والرسل ، وهنا التجربة القاسية والامتحان الصارم الذى كتب عليهم أن يجوزوه ، فعلى الرسول أن ينزل بين الناس ويمر بأدرانهم كما يمر شعاع الشمس بدود الأرض وحشرات التراب ، ويخرج من بينها وضاء نقيا لم يعلق به من القذر شىء !... ثم هو فوق ذلك يخترق بطون الأشياء وصدور الكائنات ، فيملؤها صحة وقوة ، ويرتفع طاهرا كما نزل طاهرا ، بعد أن غمر الوجود بالطهر والنور !...

ذلك هو النبى الحق ، لطيف كالضوء ، خفيف كالهواء ، إنه من مادة السماء ، فهو دائم الاتصال بها مهما تركها ، أما من هبط فرسب ولم يستطع العودة إلى الأعالى ، فهو الرسول الكاذب ، وإن الأرض لخداعة ، وإن جمالها لبراق ، وإن ابتسامتها لمغرية ... وإنها لتنتقم أحيانا من أولئك الهابطين لاستنقاذ البشر من بين أحضانهم ... ويلذ لها أن توقعهم فى حبالها ، وتمرغهم فى أوحالها ، وتضحك من أجنحتهم البيضاء وقد عفرها التراب ، ومن أرديتهم المقدسة وقد لطخها الطين !... وتذكر الراهب « بافنوس » مرة أخرى ، وتخيل كارثته ومأساته ، وسقوطه فى نهاية أمره إلى عشق « تاييس » ذلك العشق الآثم ، بينما ارتفعت هى إلى طهارة الروح ، وبلغت مراتب القديسات .

لقد كان « بافنوس » مؤمنا زائغا ...

وترك الفتاة تمضى ذلك اليوم ، دون أن يصغى إلى طلبها ، فقد قال لها إنه لن يغادر مكانه ولا كتبه من أجل شىء ، ومهما يكن من أمر حجتها القوية ، فإنه لا يستطيع على كل حال أن يخرج مع فتاة ، أو أن يذهب لمشاهدتها وهى تلعب « التنيس » ، وإن كل صلته بها لا تعدو — ولا ينبغى أن تعدو — الغرض النبيل الذى جاءت له ، وهو التحدث فى شئون الفكر !...

٥

الـزوج

مر يومـان على زيـارة الفتـاة ، وإذا البـاب يطرق على « راهب الفكر » !... إنه ليس موعدها ، فمن الطارق ؟... وأذن فى الدخول ، وإذا هو أمام رجل ناضج السن حسن السمت ، أنيق الثياب ، مشرق الوجه ، لطيف الإشارة ، كل شيء فيه يدعو إلى احترامه ومحبته والائتناس به ، فحياه وقدم له مقعدا ، فجلس وقال :

ـــ إنك لا تعرفنى ، ولكننى أعرفك من كتبك ، منذ زمن طويل ، ولست أدرى ما الذى أقعدنى حتى الآن عن الحضور إليك !... من الأمانة أن أبادر فأقول : إن الفضل فى حثى على القدوم يرجع إلى شخص آخر ...

فنظر صاحب الدار إليه نظرة السؤال ، فمضى الضيف يقول :

ـــ إلى زوجتى !...

فأدرك رجل الأدب من الفور ... غير أنه رأى أن يتريث ، فقال :

ـــ أَلِيَ الشرف أن تكون هى أيضا من بين قرائى ؟...

فقال :

ـــ أشد قرائك تحمسا !...

فأبدى المفكر دهشته :

— كيف ذلك ؟...

فقال الزوج مبتسما :

— إن لهذه المسألة قصة طويلة ، ولكننى أكتفى الآن بالقول : إن زوجتى التى كانت تكره الكتب ، قد بدأت منذ أسابيع تقبل على القراءة على نحو أدهشنى !... لقد قرأت كتاب « تاييس » فى ثلاث ليال !...

فملك الأديب نفسه حتى لا يبدو على وجهه العجب ... إن الفتاة قد كذبت عليه إذن يوم ردت إليه الكتاب قائلة : إنها لم تطالع منه سوى بضع صفحات !... كما كذبت عليه إذ زعمت أنها ليست بعد سوى خطيبة ... لماذا فعلت ذلك ؟... ولم يسترسل فى التفكير ، فقد مضى الرجل يقول :

— وإنها تقرأ الآن كتبك كلها ، وتكاد تفرغ منها ، وإنها تناقشنى فيها مناقشة تحرجنى أحيانا ، وتسألنى عنك أسئلة لا أستطيع عنها جوابا ، وأمس حينما أخبرتها أنى لم أرك قط ، سخرت منى ، ثم غضبت ، ولم تبسم حتى وعدتها أن أراك وأزورك وتنشأ بيننا صلة !...

فقال للزوج :

— إنى سعيد بمعرفتك ، وأود لو ألقى عليك سؤالا :

أسبق للسيدة زوجتك أن رأتنى ؟...

فأجاب من فوره :

— لست أظن !...

فازداد عجبه !... إنها لم تخبر زوجها إذن بزيارتها له ... إن مسلكها غريب !... وكتم ما فى نفسه ، والتفت إلى الرجل ، وقال :

— وما السر فى إقبال زوجتك على القراءة أخيرا بعد طول

الإعراض ؟...

فقال الزوج :

ـــ لست أدرى ، وهذا ما يوقعنى فى الحيرة !...

فقال الأديب كالمخاطب لنفسه ، وهو مطرق مفكر :

ـــ نعم ، هذا ما يحيرنى أنا أيضا !...

ونظر الرجل إليه مستفهما :

ـــ أنت أيضا ؟...

ـــ نعم ، إن الإنسان لا يحب الكتب بين يوم وليلة !...

ـــ إن زوجتى على جانب هائل من الذكاء وقوة العزيمة !...

ـــ هذا لا يكفى لتعليل الأمر ...

ومر برأسه عندئذ خاطر ، فبادر يسأل الزوج :

ـــ أرأيتها قرأت شيئا آخر غير « تاييس » ، وغير كتبى ؟...

فأجاب على الفور :

ـــ لا ، لم تقرأ غير ذلك ، ولم تحادثنى فى غير ذلك !...

وهنا أدرك ـــ أو خيل إليه أنه أدرك ـــ السبب الحقيقى ... إنها تريد أن تنقب عن شىء ، وترفع النقاب عن شىء ... آه للمرأة !... ينبغى أن نستثير فضولها ، وأن نوقظ حب الاستطلاع فيها ، حتى نحملها على فعل العجائب !... لقد فهم الآن كل شىء ... لقد نجح عفوا ـــ ومن حيث لا يتوقع ـــ نجاحا باهرا فى وضع يده على مبدأ الطريق ، وفى سرعة لم تخطر له على بال قد ظفر بنتائج رائعة .

كان ينبغى أن يعرف من أول الأمر ، أن الوسيلة الأولى للترغيب فى القراءة : هى استثارة الفضول الشخصى ... فإذا أردنا من طفل أن يجهد

فى مطالعة رسالة ، فلنخبره أن فيها كلاما عن هدايا ولعب ستهدى إليه ، وأخبارا ستدخل عليه السرور ... أما القراءة المجردة التى يبتغى منها اللذة الفكرية العليا وحدها ، والاستمتاع بالجمال الذهنى لذاته ، فهى التى دونها المصاعب ، وهى التى تحتاج — فى اكتساب ملكتها — إلى زمن ومران ...

على أن هنالك أمرا ما زال يكتنفه الظلام : ما هو هذا الفضول الذى دفع الفتاة إلى قراءة « تاييس » كلها فى ليال ثلاث ، وإلى مطالعة كتبه بهذا التحمس والنشاط ؟... أتراها أرادت بعد ذلك النفوذ إلى حقيقة شخصيته هو فى أعماق كتبه ؟!... إذا كان هذا ما رمت إليه فما هو الدافع ؟... ألحظت شيئا ؟... كلا ... إنه يفترض لهذه المرأة من الذكاء ما لا يمكن أن يحوى مثله عقل أنثى !...

* * *

وقطع الزوج عليه تأملاته بقوله :

— كان ينبغى أن أقول ساعة دخولى الآن : إن الغرض من زيارتى أيضا هو تقديم خالص شكرى ، وإظهار اعتراف بالجميل ... إذ لولا كتبك ...

فرفع الكاتب رأسه وقال على عجل :

— كتبى لم تصنع شيئا ... إن زوجتك لها من غير شك نفس رفيعة ، وإحساس دقيق ، وروح نبيل !...

فقال الرجل بنبرة حارة :

— نعم ، ولكن هذه النفس الرفيعة النبيلة لم تظهر لى ، وتشرق لعينى وبصيرتى إلا أخيرا ... إلا يوم قرأتك ... إنها يا سيدى قد انقلبت مخلوقا

آخر فى خلال أسابيع ، لطالما تمنيت أن أرى زوجتى فى صورة أخرى أرفع وأسمى من هذه الصورة التافهة للفتاة الطائشة التى لا تعرف غير « الخياطة » و« السينما » و« السباق » و« التنيس » و« السيارة » و« الحلاق » و« التواليت » !...

تلك الفتاة الجاهلة ذات التعليم الزائف ، لا يعدو حديثها بضع عبارات فرنسية تلوكها فى سماجة كلما أحرجتها الظروف !.. تلك الفتاة المسكينة المغرورة ، التى تحسب أنها متمدنة ، لأنها عرفت كيف تضع بين أناملها إصبع الأحمر ... تلك الفتاة التى تعرف أن لها فما يجب أن يملأ ، ولا تعرف أن لها رأسا يجب أن يملأ أيضا ، إذا أرادت أن تجعل من نفسها شخصا جديرا بالاحترام ... إنى كدت أقنط يا سيدى من المرأة فى بلادنا ... ولطالما قلت لزوجتى إنها قد تظفر منى بالعطف ، ولكنها لن تظفر قط بالإجلال الواجب لها ، إلا إذا عرف عقلها كيف يخاطب عقلى ، وهى لن تبلغ هذه المرتبة حتى تقرأ ما أقرأ ، وتتذوق من شئون الفكر ما أتذوق ، وتستطيع أن تسد فراغ حياتنا الطويلة بحديثها الطلى المفعم بألوان الغذاء الفكرى المهضوم !...

ومضى الزوج فى مثل هذا القول ... والمفكر يصغى إليه فى ظاهر الأمر ، ولكنه فى الحقيقة كان يفكر فى مشكلة بدت له الساعة : إن هذا الرجل لا يعرف أن زوجته قد زارت هذه القاعة مرارا قبل اليوم ... إنها لم تخبره — وهذا شأنها — ولكنه هو ... راهب الفكر !.. هل يجوز له أن يمضى فى صمته ولا يفضى إلى الزوج بما حدث ؟... هل يليق بمثله الكتمان ؟... على أنه من جهة أخرى يخشى إذا هو أخبره أن يرتكب حماقة ، ويعرض هذه الزوجة لغضب زوجها ، ويضعها موضع الحرج

لإخفائها الأمر !... ماذا يصنع ؟... أينتظر حتى يحدث الموقف معها ؟...

لكن ... هبها سبقت فبسطت لبعلها اليوم ما كان من شأنها معه ويعلم الزوج أنه لم يفاتحه والظرف مناسب والفرصة مواتية ، فماذا يكون موقفه ؟!...

صاح فى أعماق نفسه :

— « آه !... لماذا فعلت تلك المرأة ذلك ؟... تباً للنساء !... اللهم ألهمنى مخرجا !... » .

٦

القطيعة

ذهب الزوج ولم يجرؤ رجل الفكر على إخباره بنبأ زوجته ، ومضت الأيام ، وجاء الميعاد ، وحضرت السيدة فاستقبلها متجهما ، فأدركت العلة وابتسمت قائلة :

— نعم !... لقد كذبت عليك كثيرا !...

فقال لها بشيء من الجفاء :

— ليس يهمنى الآن كذبك علىّ ، إنما المهم هذا الموقف الذى وضعتنى فيه ...

فقطبت جبينها :

— أى موقف ؟...

فقال :

— لماذا كذبت على زوجك أيضا ؟... لماذا أخفيت عنه أمر زيارتك لى ؟...

فضحكت ضحك الطفلة المدللة المزهوة بعبثها ، غير الحافلة بذنوبها :

— لست أدرى ، لقد نسيت أن أذكر لك أنى — إلى جانب شغفى « بالتنيس » و« السينما » و« السباق » — أحب كذلك أحيانا « الكُذب » !...

فحملق فيها دهشا :

ـــ سبحان الله !... أهو أيضا قد أصبح فرعا من فروع الـ « سبوز » ؟!...

فابتسمت وقالت :

ـــ نعم ... إن مهمتك فى هدايتى شاقة كما ترى !...

فلم يبتسم ، ولم تنفرج أساريره ، ولم يغادر وجهه ظل القلق القاتم ، ولم يستطع أن يبرر أمام ضميره هذا الموقف الغامض ، فقال مطرقا ، كالمخاطب لنفسه :

ـــ وبعد ؟... ما العمل ؟...

فقالت ساخرة :

ـــ يا لفداحة المصيبة !... إن هذه الأكذوبة من غير شك جريمة لن تغتفر !...

ـــ أتسخرين أيضا ؟...

ـــ أرجو المعذرة ... إنى أراك مهموما لغير أمر يستوجب الهم !... كنت أحسبك مثلى ، لا ترى فى الحياة شيئا يحمل على الاكتئاب !...

ـــ هنيئا لك هذه النفس التى ترى الحياة خلال مضرب « التنيس » !...

فقالت باسمة :

ـــ إنى أراها أكذوبة طريفة ، وألعوبة لطيفة !...

فقال وكأنه يناجى نفسه :

ـــ ليس لى مع الأسف الحق أن أراها كذلك ... إنما هى حقيقة واقعة ، وواجب محتوم ، وعبء ثقيل ، كتب علىّ أن أحمله فوق منكبى

حتى تخرج أنفاسى !...

فقالت وهى تنظر إلى كتبه وورقه ومكتبه الغارق فى ظلام المكان :

— نعم ... إن حياتك حجر ملقى على ظهرك ، أمرت أن تسير به إلى آخر المرحلة !... لكن ... لماذا أنت تراها كذلك ؟!...

فقال مفكرا :

— لست أدرى ، ولقد قلتها أنت : إنى أمرت أن أسير هكذا . وهل أملك أنا حرية النظر ؟!... أنك قد خلقت لتعيشى حياتك ، وأنا قد خلقت لأعيش حياة فكرة ، فأنا لست أرى الشمس والهواء ، ولكنى أرى الفكرة التى تحرك وجودى ، كما تحرك اليد القفاز !...

هكذا أراد لنا القدر ... ما أنت لديه إلا كرة من كرات « التنيس » ، يقذف بها فى الفضاء ... فأنت حرة حرية هذه الكرة ، أما أنا « فمضرب » فى يده ، مسخر لغايته ، حبيس فى كفه ، لا يطلقنى منها حتى ينتهى اللعب !...

فقالت على مهل ، كأنها تتأمل عباراته :

— هذا صحيح ... لكن ؟...

وعاد إلى نفسه ، وذكر ما كان يشغل باله قبل ذلك فأسرع يقول لها :

— لكن أخبرينى أنت : لماذا أخفيت عن زوجك ؟... وإلى متى تنوين المضى فى ... ؟...

فعاد إلى شفتيها الابتسام ، وقالت :

— ينبغى أن أريح ضميرك المعذب ، وأقول لك إن أمر زياراتى يجب أن يظل بيننا سرا خفيا ، وأنا وأنت وحدنا !...

فقال لها :

ــ أتظنين أنك تريحين ضميرى بهذا الكلام ؟!...

فنظرت إليه مليا :

ــ أترانى حقيقة أرتكب خطيئة من الخطايا ؟...

فقال لها على الفور :

ــ بلا شك ... وتريدين أن تشركينى معك فيها !...

ــ أفى احتفاظنا بهذا السر خطيئة ؟...

ــ ليس لنا أن نخفى عن زوجك سرا ...

فأطرقت لحظة ، ثم رفعت رأسها ، وقالت كالمخاطبة لنفسها :

ــ أليس لى أن أحتفظ فى مجاهل نفسى بمنطقة لا يرتفع إليها إنسان ؟... إنى أشعر بشىء لست أدرى مبلغ فهمك إياه !... إن المرأة وحدها تفهمه ... لا بد للمرأة من أن تخفى شيئا عن زوجها ... قد يكون سوارا من الذهب تشتريه خلسة ، وقد تكون ذكرى من ذكريات ماض عزيز ... وقد تكون فكرة نبيلة أو سخيفة تؤمن بها ولا تحب أن تشرك أحدا فيها !... إن إحساسى اليوم هو من هذا القبيل ... إن زياراتى لك ، وأحاديثى معك ، وآرائى التى أفضى بها إليك ، وسويعاتى التى نتبادل فيها معا شئون الفكر ، كل هذا ينبغى أن يوضع فى صندوق من صناديق الحلى ، ليس له غير مفتاحين : أحدهما معى ، والآخر معك ...

* * *

أطرق الكاتب مليا ولم يحر جوابا !... مهما يكن من أمر فإن هذه المرأة تضعه فى موقف الحرج ، وقد كان يتحمل هذا الموقف لو لم ير زوجها ... أما وقد رآه وعرفه ، ويتوقع أن يتكرر اللقاء ، وأن تنمو بينهما الصلة ، فكيف يستطيع المضى فى كتمان الأمر عنه ؟... على أنه من ناحية أخرى

يجب أن يفهم تفكير المرأة وأن يحترم إرادتها ، وأن يبقى لها على هذا الخيال الجميل ، الذى تحب دائما أن تحيط به الأشياء ، إذن فلا مفر من السكوت ، وليتجاهل الصلة التى بينهما !... وما دام الزوجان سيزورانه فى أوقات مختلفة ، فليفترض أنهما بالنسبة إليه صديقان منفصلان ...

ولكن المرأة التفتت إليه قائلة :

ـــ هنالك مع ذلك أمر يحسن أن أنبهك إليه ...

فنظر إليها قلقا :

ـــ ما هو ؟...

فقالت بهدوء :

ـــ سوف يدعوك بالضرورة زوجى إلى زيارتنا ، أو إلى مشاهدة « التنيس » حيث يقدمك إلىّ ، فحذار أن يبدو عليك ...

فلم يسمع الباقى ، ولم يطق صبرا وصاح فيها صيحة دوت فى المكان :

ـــ أيتها السيدة !... لن أسمح لهذا العبث أن يمتد إلى أبعد من هذا !... إنك من غير شك تعبثين وتلعبين ، وأنا الذى أحسن الظن بتصرفك ، وأسبغ عليه كل ما أستطيع من افتراضات عالية !...

فاحمر وجهها ، وقالت ببراءة الطفل الذى لم يفطن إلى ذنبه :

ـــ ما الذى حدث منى ؟... ما الذى أغضبك ؟..

فحدد إليها البصر دهشا :

ـــ عجبا !... ألا تعرفين ماذا أغضبنى ؟...

فقالت بشىء من الوداعة والدل :

ـــ أتتهمنى بالعبث واللعب ؟...

فقال وقد ترفق فى الكلام :

— وماذا أسمي طلبك إليّ أن أمثل دورا روائيا ، يوم يقدمنى إليك زوجك ؟... أتظنين رجلا جادا مثلى خليقا أن يفعل ذلك ؟... إن ما تشاهدينه فى « السينما » لا ينبغى أن يؤثر فى فهمك لحقائق الأشياء ، ولا أن يفسد من تقديرك للأمور !... إنك أيتها السيدة ما زلت واقعة تحت تأثير عالمك التافه ، وما زال أساتذتك السخفاء : « السينما » و« التنيس » و« السباق » هى التى تقود خطواتك فى الحياة !...

فنظرت إليه نظرة كلها عتاب ، لا ينكر أنها أثرت فى نفسه ، وقالت :

— أهذا رأيك فىّ حقا ؟...

فتماسك وقال :

— نعم ، مع أسفى الشديد !...

— كنت أحسبك تعتقد أن زياراتى السابقة قد استطاعت أن ترفعنى إليك درجات ...

فقال لها ، بدون مداراة :

— لا يا سيدتى !... بل إنها قد استطاعت أن تنزلنى إليك دركات !...

ففتحت فمها دهشة لصراحته وخشونته ، وقد فوجئت بهما لأول مرة ... ومضى يقول :

— ألا تصدقين !... ألا تصدقين أنك تجذبيننى إلى أسفل ؟!.

فقالت بصوت أحس فى باطنه غبطة مستورة وارتياحا خفيا :

— أنا إذن لى عليك تأثير ...

فأسرع قائلا :

— سيئ !... لقد حاولت أن تعلمينى « الكذب » وأن تهبطى بى إلى

ملاعب « التنيس » ، وأن تلجئيني إلى تمثيل دور من أدوار « السينما » !... كل هذا في مدى زمن قصير !... أرأيت مقدار نجاحك ؟...

فضحكت ضحكا طويلا رقيقا ، امتزج رنينه الفضي بوميض اللآلى المنبعث من ثغرها ... ثم قالت :

— وأنت ؟... ألم تنجح معي في شيء ؟...

— لست ألمح بوادر نجاح مطلقا !...

غير أنه تذكر فجأة قول زوجها له : إنها قرأت « تاييس » في ثلاث ليال ، وإنها عكفت على مطالعة كتبه كلها !... وإن هذه القراءة مهما يكن الباعث لها ، تعتبر تقدما على كل حال ، وخطوة في طريق الوصول بالنفس إلى مرتبة أسمى ، وأراد أن يستوثق من هذا الأمر ، فسألها في ذلك ، فتغير وجهها قليلا ، ثم ملكت نفسها وقالت :

— من أخبرك أني قرأت كل هذا !...

— زوجك !...

فقالت ، وهي تحد إليه البصر :

— أوَصدقته ؟...

فلم يدر بماذا يجيب ، غير أنه تفكر مليا في الأمر ، ثم قال للجميلة بجد قاس ، وعزم قاطع :

— اسمعي أيتها السيدة !... لقد انجلى لي الأمر الآن : أنت فيما يظهر لي قد بلغت غايتك ... إن زوجك يعتقد على أي حال أنك تغيرت وأنك تقرئين ، فإما أنك قد خدعت زوجك ، وتحايلت عليه ، وأدخلت في روعه كذبا هذا الاعتقاد ، فهو نجاح على طريقتك ، وإما أنك حقيقة قد

تغيرت وتذوقت الأدب ، فتلك بغيتنا ، ولم تبق لك من حاجة إلى زيارتى ، فاسمحى لى إذن أن أحييك ، وأن أشكر لك تشريفك هذا المكان ، وأن أودعك !...

فنظرت المرأة إلى وجهه لحظة ، ورأت الجد فى ملامحه والعزم فى عينه ، ولحظت منه حركة انصراف عنها إلى كتبه وورقه ومشاغله الفكرية ، وشعرت كأن سماءه الباردة قد نادته إليها ، وأن عالمه الصارم قد استرده إليه ، فلفظت من بين شفتيها بصوت كالهمس :

— وداعا !...

ولم تزد على تلك الكلمة شيئا ، وتناولت قفازها ، وجعلت تضع أصابعها فيه على مهل ، ثم قالت :

— وأشكرك !...

ومضت إلى الباب ، واختفت كما يختفى الشبح ، وذهبت كما يذهب الحلم ...

٧

الفـراق

مرت أيام على ذهاب تلك المرأة الجميلة ، و« راهب الفكر » منصرف إلى أعماله المعتادة ، لا يفكر فيها كثيرا ، ولا يأبه لأمرها ؛ فقد كان يعتقد فى قرارة نفسه أنها لا محالة عائدة إذا انقضى الأسبوع ؛ شأنها فى كل مرة ، ولكن اليوم الموعود جاء ولم تأت ، فخامره شيء من القلق سرعان ما تبدد ؛ فقد تذكر أنها كانت تتخلف أحيانا عن الموعد المضروب ... ولعلها فى هذه المرة — وقد انصرفت فى شبه استياء — أرادت أن تشعره بغضبها عليه فتباطأت ، وأنها لن تتوانى عن المجيء فى الأسبوع المقبل ، ولكن الأسبوع المقبل جاء ولم تحضر ...

هنا اتخذ تفكيره فى شأنها صورة جديدة لم تبد له من قبل ، فقد توالت الأيام عليه بعدئذ وهو يسلك سلوكا غريبا ، ولعل خادمه لحظ ذلك منه .. فما من طرقة على الباب لم يسأله سيده عن طارقها ... وهو الذى كان لا يرفع رأسه من أعماق كتبه وورقه ولو هدم الباب من الطرق ؛ بل إن سيده جعل يصيح بين لحظة وأخرى :

— اذهب وافتح الباب فقد خيل إلىّ أنى أسمع طرقا ...

فيذهب الخادم ولا يجد أحدا ... أما جرس التليفون فقد كان يهرع إليه بنفسه ، وينتزع السماعة انتزاعا ليطرحها بعد قليل خائب الأمل ،

ولم يعد يقرأ بريد الصباح بتلك العناية السابقة ، ولكنه كان يفرز الخطابات فرزا سريعا ، باحثا بعينه المتلهفة عن خط بعينه ، ويفض الرسائل على عجل ، راجيا أن يعثر من بينها عن رسالة بالذات !..

ولبث كذلك أياما أخرى لا يفعل شيئا إلا انتظارها : لماذا لم تعد ؟... كيف تمضى هذه الأسابيع دون أن تأتى ؟... ما الذى منعها من المجىء ؟... كان لا ينفك يلقى على نفسه هذه الأسئلة وعينه لا تفارق الباب شوقا إلى شبحها ، وأذنه تترصد جرس التليفون لهفة على صوتها : أتراه قد نسى أنه هو الذى رجا منها الانصراف إلى غير عودة ؟... أطلب إليها ذلك حقا ؟... أكان جادا فى الطلب ؟.. يا للعجب !... أهو مجنون حتى يريد فراقها ويطلبه ، ويسألها إياه ؟... ولكنه فعل ذلك مع الأسف ...

نعم ... إنه يتذكر الآن كل شىء ... لقد أفهمها أنه لا يجد مبررا لزياراتها ، وتركها وانصرف إلى شأنه ، وهى تنتظر منه كلمة لطيفة ، إلى أن يئست فذهبت !... وكان آخر ما سمعه منها همسة الوداع ، تبعتها كلمة واحدة هى : « أشكرك » !...

كيف يأمل الآن فى عودتها بعد ذلك ؟... وهيهات أن يستطيع العثور عليها اليوم ... فهو لا يعرف اسمها ، ولم يحفل قط أن يسألها أين تقطن ؟... وهو لا يعلم اسم زوجها ، ولا بد أن هذا الزوج قد ذكر له اسمه يوم جاءه زائرا ... ولكنه كعادته لا تلتقط أذنه الأسماء التى تلفظ ، ولا تحتفظ ذاكرته بها إلا إذا توثقت بينه وبين أصحابها الصلة ... وهو فى هذه الحالة لم يكن يقدر أنه سيحتاج يوما إلى الحرص على معرفة هذه السيدة أو زوجها ، إنها ذهبت إذن إلى غير رجعة ... وإنه لفراق لا لقاء

بعده ، ولقد أضاعها فى الفضاء كما تضيع الضربة الطائشة كرة « التنيس » !... ألم يقل لها يوما إنها فى نظر القدر ليست إلا كرة ، وإنه هو ليس إلا « مضربا » فى يده ، مسخرا لغايته ؟... ترى لماذا أراد القدر القاسى أن يطوح المضرب بالكرة هكذا إلى حيث لا يدرى لها مقرا ؟!... أترى القدر حقا هو الذى أراد ، أم هى حماقته ؟... إنها كانت شيئا جميلا اعتاد أن يراه ... إنها كانت عطرا اعتاد أن يتنسم شذاه ... إنها كانت لعبة بديعة اعتاد أن تسرى عنه ... إنها كانت روحا لطيفا يملأ بيته حياة ، ونورا بهيجا يبدد ظلام أيامه !... إن زيارتها الأسبوعية كانت قد استقرت فى برنامج عمله ، ورسخت سويعاتها فى صميم مشاعره ... إنه اعتاد انتظارها ، فكيف يعيش الآن بغير هذا الانتظار ؟... وهذه الفكرة وحدها كانت تقطع سويداءه كأنها سكين ... لم يبق له منها حتى حلاوة انتظارها !... أستمضى به الشهور هكذا ، وهو لا يستطيع حتى أن ينتظرها ؟!...

ومرت براهب الفكر ليال مروعة لم ينعم فيها بالنوم الهنىء ؛ فقد كان طيفها يمر برأسه فى الإغفاءة الأولى ، وتبدو له فى ثيابها التى اعتاد أن يراها فى مثلها ، وفى عطرها المحبوب الذى يملأ قلبه سعادة ، ولقد كان يراها فى أحلامه أحيانا ، وكأنها عادت تعتذر عن غيبتها الطويلة ، وتخلفها فيما مضى من أسابيع وهى تخلع قفازها على مهل ، وتنظر إليه نظرة الود العميق ... فيفطن من صدمة هذه الرؤيا ، ويفتح عينيه ، ويعلم أنه حلم ... فيظل فى فراشه لا يستطع رقادا بعد ذلك حتى الصباح !... إنه عذاب ما كان يتوقعه ، وما كان له فى الحساب ، حتى القراءة التى كان يعتصم بها أحيانا ما أفلحت فى إنقاذه ...

لقد نهض من نومه مذعورا ذات ليلة ؛ إذ خيل إليه فى الحلم أنها تطرق الباب ، فلما رأى خيبة أمله ، واستعصى عليه النوم ؛ لجأ كعادته فى ليالى السهاد إلى الكتب ، وتخير كتابا فى الفلسفة « لأبى بكر الرازى » ، جعل يطالع منه هذه الصفحة من رأيه فى الحب :

« إن مفارقة المحبوب أمر لا بد منه اضطرارا بالموت ، وإن سلم من سائر حوادث الدنيا وعوارضها المبددة للشمل ، المفرقة بين الأحبة ، وإذا كان لا بد من إساغة هذه الغصة ، وتجرع هذه المرارة فإن تقديمها والراحة منها أصلح من تأخيرها والانتظار لها ؛ لأن ما لا بد من وقوعه متى قدم أزيحت مؤونة الخوف منه مدة تأخيره ، وأيضا فإن منع النفس من محبوبها قبل أن يستحكم حبه ، ويرسخ فيها ويستولى عليها ؛ أيسر وأسهل ... وأيضا فإن العشق متى انضمت إليه « الألفة » عسر النزوع عنه ، والخروج منه ، فإن بلية « الألفة » ليست بدون بلية العشق ، بل لو قال قائل إنه أوكد وأبلغ منه لم يكن مخطئا ، ومتى قصرت مدة العشق ، وطال فيه لقاء المحبوب كان أحرى ألا تخالطه وتعاونه « الألفة » !... والواجب فى حكم العقل من هذا الباب أيضا المبادرة فى منع النفس ، وزمها عن العشق قبل وقوعها فيه ، وفطمها منه إذا وقعت ، قبل استحكامه فيها ... وهذه الحجة يقال إن « أفلاطون » الحكيم احتج بها على تلميذ له ، بلى بحب جارية ، فأخل بمركزه من مجلس « أفلاطون » ، فأمر أن يطلب ويؤتى به ، فلما مثل بين يديه قال له :

— أخبرنى يا فلان !... هل تشك فى أنه لا بد لك من مفارقة « حبيبتك » هذه يوما ما !...

قال :

— ما أشك فى ذلك !...

فقال له « أفلاطون » :

— فاجعل تلك المرارة المتجرعة فى ذلك اليوم فى يومنا هذا ، وأرح ما بينهما من خوف المنتظر — الباقى بحاله الذى لا بد من مجيئه ، وصعوبة معالجة ذلك بعد الاستحكام ، وانضمام الألفة إليه !...

فيقال : إن التلميذ قال « لأفلاطون » :

— إن ما تقول أيها السيد الحكيم حق ... لكننى أجد انتظارى له سلوة بمرور الأيام عنى أخف على ...

فقال له « أفلاطون » :

— وكيف وثقت بسلوة الأيام ولم تخف ألفتها ؟... ولم آمنت أن تأتيك الحالة المفرقة قبل السلوة وبعد الاستحكام ، فتشتد بك الغصة ، وتتضاعف عليك المرارة ؟...

فيقال « إن هذا الرجل سجد فى تلك الساعة « لأفلاطون » . وشكره ، ودعا له ، وأثنى عليه ، ولم يعاود شيئا مما كان فيه ، ولم يظهر منه حزن ولا شوق ... إلخ » .

قرأ « راهب الفكر » ذلك ثم طوى الكتاب ، وهو يقول فى نفسه :

— آه لهؤلاء الفلاسفة الذين يحسبون أنهم بمثل هذا الكلام الجيد والمنطق السديد يحلون مشاكل العواطف الإنسانية !... ثم تأمل ما قرأ منذ لحظة ؛ وتذكر ما كان من أمره مع تلك الجميلة ... إنه سلك معها المسلك اللائق به وبها ، فلم ينب عن القصد من زياراتها ، ولم يخرج عن الغرض النبيل الذى كان يحملها على المجىء ، ولم يلفظ كلمة ما كان ينبغى أن يلفظها ، ولم يبد عاطفة ما كان يجب أن يظهرها !...

لقد تصرف معها — من البداية إلى النهاية — عين التصرف الذى كان يصدر عن الفيلسوف الإسلامى « أبى بكر الرازى » ، وعن الفيلسوف اليونانى « أفلاطون » ، لو أنهما كانا فى مكانه ، ولقد خشى الألفة أن تستحكم ، والجد أن ينقلب عبثا . فقطع الصلة من الفور !... وها هى ذى النتيجة واضحة صارخة !... أتراه لم يكن يدرك حقيقة مشاعره نحوها ، من أول الأمر ؟!... أم أنه يدرك بعض الإدراك ، ولكنه حسب الأمر أقل خطرا من أن يشغل باله أو يقتضيه البت السريع ... وإذا كانت العاطفة لم تظهر جلية إلا بعد أن أدى واجبه وقطع الصلة وأغلق الباب ، فما ذنبه عندئذ وما جريرته ؟... وما المطلوب منه وقتئذ فى نظر « الرازى » و« أفلاطون » ؟!

لم يتلق بالطبع جوابا عن هذه الأسئلة ، ولم يكن فى حاجة إلى جواب ، بل كان فى حاجة إلى ما يخفف عنه ما به ؛ فهو من غير شك قد قام بما أوصى به الفلاسفة ، ولكن الفلاسفة ، رقدوا فى بطون كتبهم ، متدثرين فى صحائف منطقهم البارع ، وتركوه ساهرا يدمى جفنه الأرق ، ويحرق قلبه الشجن !...

٨

السهاد

انصرمت أسابيع أخرى ، لياليها بيض من السهاد ، وأيامها سود من القنوط ... وهو على حاله ما تغير ... فهو لم يستطع أن ينساها على الرغم مما بذله من جهود وما فرضه على نفسه من إرادة ، وما تشبث به من عناد ، فكل شيء حوله كان يذكره بها ؛ فهذا الباب الذى كانت تدخل منه ، وهذا المقعد الذى كانت تجلس عليه ، وهذه النافذة التى كانت تلتمس منها ضوء الشمس ، وهذه الخزانة التى كانت تتأمل كتبها المرصوصة ، وهذا المكتب الذى كانت تنظر إلى ورقه المبعثر ؛ بل إن الجدران كانت تذكره بصدى ضحكاتها الرقيقة وأحاديثها وأكاذيبها ... وحواره معها ؛ ذلك الحوار الذى لم يكن يأخذه على سبيل الجد ...

ولم يكن يدرى أنه سيضطر يوما إلى الحرص على ذكراه ، والاعتزاز بكل كلمة من كلماته والتعلق بكل نبرة من نبراته ... إن حديثه معها الذى كان حينا تافها وأحيانا باردا ، هو عنده اليوم شيء نفيس لا يقدر بمال ... إنه غذاؤه الذى تعيش عليه الآن روحه ... إنه يخرجه من ذاكرته فى كل يوم بنصه ليحدث به نفسه من جديد ... إنه ليجتر اجترار البعير لغذائه القديم ، وهو سائر يتضور فى مجال الصحراء الجرداء ... بل إنه

ليفرغه كل مساء من رأسه ليتأمله كلمة كلمة ؛ كمن يفرغ اللآلئ من صندوقها ليرى وهجها لؤلؤة لؤلؤة ... كل هذا صنعه فى تلك الأسابيع الطويلة بعد أن يئس اليأس كله من لقائها ... على أنه أحيانا كان يندم الندم المر على ذهاب تلك الأيام ، فى مثل تلك الأحاديث !...

آه ... لو علم لخاطبها بكلام رائع حقا ، وأسال بين يديها نفسه كلها ، ولكنه مع ذلك لم يندم على سلوكه معها ذلك السلوك الرفيع ؛ فهى امرأة متزوجة ؛ وما كان ينبغى أن يكون بينهما أكثر مما كان !... ربما هو يطمح الآن فى قرارة نفسه إلى شيء من المودة !... من المودة الحارة العميقة ، يربط أحدهما بالآخر ... ولكن من ذا يضمن له أن طموحه كان يقف عند هذا الحد ؟... ما من شك لديه أنه أحسن صنعا بإسدال الستار على هذه القصة فى الوقت المناسب ، فهو ليس الرجل الذى يحيد عن واجب الشرف ، أو يصرف زوجة عن واجبها المقدس نحو زوجها ... لقد قام بواجبه المحتوم ، وما كان فى وسع مثله أن يفعل غير ذلك ...

أما الألم الذى عاناه بعدئذ ويعانيه ، فهو شيء خفى لا يراه أحد ولا يعلم به إنسان ، ولا ضرر فيه للناس ، ولا مساس فيه بحقوق الغير !... وما دام قد سمح له بهذا الألم ، فلماذا لا يسمح له أيضا بالحب ؟... بهذا الحب الخفى الذى لا يراه أحد ولا يدرى به حى !... واستيقظ « راهب الفكر » ذات مرة فى جوف الليل ، وأضاء مصباحه ، وجلس إلى مكتبه ، وقد وطن العزم على أن يستأنف حديثه مع من أحب ... ويمضى فى تلك الصلة الروحية مع طيفها ... ذلك الطيف الذى يوقظه فى ليله ،

ولا يفارقه فى نهاره ، فليفرد لها صفحات يدون فيها رسائل إليها ... لن تطلع هى ولا ريب أبدا عليها ؛ فربما كان فى ذلك تسرية عنه ، وربما كان فيه أيضا إكبار للحب بغير إنكار للواجب !...

* * *

ودقت الساعة الثانية بعد منتصف الليل ، وهو يمسك بالقلم ليسطر إليها هذه الرسالة :

« صديقتى !...

آه ... لو أتيح لك أن تعلمى ما حدث لى بعد ذهابك ؟... إنك تنامين الساعة ملء جفنيك ، ولن يخطر على بالك أن هنالك رجلا ساهرا من أجلك ... ومن هذا الرجل ؟... هو ذلك الذى تركك تذهبين دون أن يبدو عليه اهتمام بحضورك وغيابك ، إنى ألمح الدهشة فى عينيك لو علمت ذلك ، ولكنك لن تعلمى أبدا ، ولا ينبغى أن تعلمى أبدا !... كل ما أطمع فيه أن أحادثك هنا طويلا ، وليس من الضرورى أن تبادلينى الحديث ؛ فإنى أعرف وقع ما أقول فى نفسك ، وأرى ابتسامك لما يروقك من القول ، وتقطيبك لما يسوءك منه ، فأنت حاضرة أمامى ، متتبعة لكلامى بوجهك ، وأهدابك ، ونظراتك ، وشعرك ، وثغرك !.

سأحدثك كثيرا عن كل ما يجول بنفسى من أشياء ، دون أن أخشى أن أثقل عليك ، وهنا فضيلة الحديث على هذا الورق الصامت ، فهو يستطيع أن يخدعنى على الأقل ، ويوهمنى أنك لا تضيقين بى ذرعا ، وأنك تصغين إلىّ ، وبك عطف على ...

آه ... ما الذى يجعلنى أذكر « العطف اليوم » ؟... تلك كلمة لم ألفظها منذ زمن طويل ... إن حياتى فى الحق لأقتم مما كنت أتصور ... نحن أهل الفكر نسير دائما فى صحراء محرقة ؛ فلا نفطن إلى مشقة الطريق إلا يوم تصادفنا واحة خضراء ، فنجلس فى الظل ساعة وقد تبدت لنا قسوة الحياة علينا ، وتساءلنا كيف احتملنا كل ذلك حتى الآن ؟... ثم لا يلبث أن يدعونا واجبنا إلى المسير ، فننتزع أنفسنا انتزاعا ؛ لنقذف بها فى ذلك الجحيم من جديد !... كونى أيتها الصديقة لى عزاء ... وليكن طيفك لى رفيقا يمشى إلى جانبى ... إنى فى حاجة إلى مجرد طيفك ، لأن طريقى موحش حقا ... إنه ليس الصحراء كما قلت لك الساعة ، فالصحراء فيها على الأقل متعة السكون !... وإن النفس لتصغو فى إصغائها إلى السكون ، ولكنى أسير فى عالم يضج بالسفالة والقبح ، وأسبح فى بحر يصطخب بالحقارة والسخف !... إنى لأثور على نفسى أحيانا وأقول :

« لماذا لا أترك كل هذا وأعيش كما يعيش الآخرون ؟... ولكنى لا أستطيع ، لأنى أريد أن أحلم بأشياء جميلة ، ولا بد دون ذلك من الثمن ، وهو تحمل سخرية الناس بنا على الأقل ... ثقى أيتها الصديقة أنى لا أجنى أحيانا غير ذم الناس ؛ كأنى قد ارتكبت جرما لا يغتفر ... لعلك قد قرأت كثيرا مما يكتب عنى فى الصحف ، ورأيت أى صورة يصنعونها لى من حين إلى حين ... لقد كان ذلك يؤلمنى فى أول الأمر ، ولكنى لم ألبث أن اعتدت ذلك ، ثم انتهيت إلى الاعتقاد بأن هذا هو ما يجب أن يكون ، فما

ينبغى أن يحسن الظن بالناس أكثر مما ينبغى !... إنهم كذلك دائما ، وكانوا هكذا فى كل زمان ، غير قديرين على أن يصوروا الأشياء إلا على صورتهم ، وهأنذا اليوم كلما رأيت صورة لى ، أو وصفا فى صحيفة من الصحف ابتسمت قائلا :

تلك هى الصورة التى لا يستطيعون أن يصنعوا غيرها أو يروا سواها ...

آه ... إننا لفي حرب دائمة ... لا من أجل فننا وحده ، ولا فى سبيل مثلنا العليا وحدها ، ولكن مع أولئك الذين كرسنا حياتنا لنعطيهم شيئا جميلا !..

لا أريد أن أطيل فى هذه الرسالة الأولى ؛ خشية أن تنفرى !... إنى حريص على خيالك حرصى على حقيقتك ؛ لأنى لا أملك غيره ، فلأضن به حتى على نفسى ، وأتمنى لك نوما هنيئا !... » .

وطرح القلم من يده ، ونهض ليسلم نفسه لنوم لا يدرى أيجىء أم لا يجىء !...

٩

رسائل إلى طيفها

توالت بعد ذلك رسائله إليها على مدى الأيام ، سائرة على هذا النحو :

صباح ١٤ فبراير سنة ......

« صديقتى » :

ما أجمل هذا الصباح !... السماء زرقاء زرقة لم أر مثلها من قبل !... لكأن الملائكة فى صفاء الأطفال تلهو فرحة ، وتلون بريشة مرحة صورا « مائية » زرقتها زاهية وخضرتها ندية لكل ما تقع عليه عينى اليوم من مظاهر الطبيعة !... إن هذا « الأكواريل » العلوى يملأ نفسى أنا أيضا صفاء سماويا !... إنى لست فى كل الأحيان أبصر الألوان التى تحيط بى ، أو أسمع الأصوات التى تترنم حولى .

كل شىء حولى الآن يتكلم ويضىء ويتحرك !...

لم يبق عندى شك فى أن خادمى قد رأى منى عجبا ؛ فصوت الكنارى المحبوس فى قفصه لدى الجيران لم يعد يزعجنى ؛ بل إنى أصغى إليه باسما ... فنحن الآن صديقان أليفان ... يفهم أحدنا الآخر ... ولا أرضى أن يغلق خادمى النافذة بينه وبينى ، حتى فى ساعة عملى ...

فهذا العصفور ... فيما يخيل إلىّ — لديه هو الآخر كلام عنك يريد أن يحدثنى به !... » .

مساء ٢٥ فبراير ...

« صديقتى » !...:

أجلس هذا المساء فى شرفتى ؛ لأن البدر الليلة فى التمام ، وفى السماء بعض غمام يوهمنا فى سيره أن القمر هو الذى يسير !... ما لهذا القرص من النور يركض هكذا فى الفضاء ؟!... ترينه على موعد مع حبيب ؟!... إن القاهرة الساعة هادئة نائمة ، أشرف عليها من مكانى القصى ، بيوتها متساندة متعانقة فى حضن « المقطم » ؛ كأنها فراخ الطير فى وكر أمها ؛ بعضها قد أغلق عينيه أو نوافذه ، واستسلم للنعاس ... والبعض ساهر ، قد فتحها تلمع مضيئة فى ظلام الليل !... ترى أين بيتك من بينها ؟... وماذا أنت الساعة تصنعين ؟... لا شك عندى أنك الآن بجوار زوجك السعيد ، تحدبين عليه بتلك الرقة التى أعرفها فيك ... إنى لأراك دائما فى صورة الزوجة المثلى ، ذلك الطراز من الزوجة ، الذى طالما تمنيت الظفر به ، ولكن الحياة ضنت به علىّ !...

ما من رجل فى التاريخ سعد بزوجة عظيمة إلا تخيلتها على صورتك ، وأعطيتها ملامحك ، وأعرتها سماتك وصفاتك !... كنت أقرأ عن « كارل ماركس » عندما طرد من بلاده ؛ لأن قومه وجدوا فى كتاباته الاشتراكية خطرا على كيان المجتمع !... لقد أبت زوجته إلا أن تخرج معه ، وتشرد كما يشرد ... وأراد أهلها أن يستبقوها بينهم ، وأن يجنبوها مصير زوجها

المبهم وطريقه المدلهم ، فما زادها ذلك إلا تشبثا به ، وبواجبها الزوجى ، فتبعته إلى أرض فرنسا ... فما كادا يحطان فيها حتى أرغما على الخروج منها ... فخرجا إلى « إنجلترا » ... كل هذا التشريد مع شظف العيش ، وحلك الأفق ، ما زعزع إيمان الرجل بفكرته ، ولا إيمان الزوجة بزوجها !... لست أدرى لماذا أرى وجهك أنت ، كلما تذكرت تلك المرأة الفاضلة ؟...

والبارحة أعدت قراءة حياة السياسى « دزرائيلى » لـ « موروا » لا شىء إلا لأتصفح من جديد صورة زوجته « مارى آن » !... ليس الذى يدهشنى الصفحات الأولى لتلك الحياة الزوجية ؛ فالصفحات الأولى دائما بهيجة فى كل حياة زوجية ، ولقد قامت « مارى آن » بواجب الزوجة ، التى تعرف كيف تجعل زوجها يعيش فى فردوس من السعادة !... كان هذا الرجل فى أشد الحاجة إليه ؛ فلقد كان يحس أنها لا تعيش إلا من أجله ، ولقد كان فى لحظات يأسه ، وفتور همته ، وشعوره بمرارة الخيبة والهزيمة — وما أكثر هذه اللحظات فى هؤلاء الرجال — محتاجا أشد الحاجة إلى من يعزيه ويواسيه !... ولقد عزته وواسته وآزرته بما خفف عنه وهون عليه !...

ولكن الصفحات الرائعات التى تعجبنى وتهز نفسى هى صفحاتها الأخيرة ... يوم رقدت هذه الزوجة مريضة ... لقد كانت تعلم منذ سنوات أنها مصابة بمرض قتال ؛ هو سرطان المعدة ... غير أنها جاهدت جهاد الأبطال فى إخفاء ما بها عن زوجها ؛ كيلا تسبب له إزعاجا ،

وكانت تتحامل على نفسها ؛ لتظهر إلى جانبه كلما اقتضت واجباتها الاجتماعية ظهورها ، وقد وضعت على صدرها — كما توضع «النياشين» — « أيقونة » كبيرة داخلها صورة زوجها ، ولقد تقدم بهما السن والإعياء والمرض ؛ حتى تعذر على أحدهما العناية بالآخر ؛ فكان هذان الزوجان المتهدمان يتبادلان أحيانا الرسائل من حجرة إلى حجرة ... فكان يكتب إليها قائلا :

« إنى الآن مستلقى على ظهرى ... فاعذرى الخط والقلم ... لقد أرسلت لى الساعة أمتع وأفكه خطاب وصلنى فى حياتى ... إن منزلنا قد غدا فيما أرى مستشفى ا... ولكن المستشفى معك خير عندى من قصر مع غيرك ... » .

وكانت هى تقول للأصدقاء :

« حياتى بفضل طيبته لم تكن سوى لحظة سعادة مستمرة ... » .

وكان هو يجيب :

« لقد تزوجنا منذ ثلاثين عاما ... ولم أشعر معها بلحظة ضجر ... » .

واشتد بها المرض آخر الأمر ، فلم تستطع إخفاءه ولم تنقطع مراسلاتهما اليومية البيتية ، فكان يكتب إليها :

« ليس عندى ما أقوله لك سوى : إنى أحبك ... » .

وكانت هى تكتب إليه :

« يا أعز ما أملك ... إنى مشوقة إليك إلى حد مخيف ... يا لفداحة

ما أدين به إلى طيبتك وإلى حنانك الدائم ... » .

وقطع كل أمل فى شفائها ؛ فقد رفضت معدتها كل غذاء ، ورأى الناس لأول مرة على وجه « دزرائيلى » الرزين انقلابا مخيفا ، ينم عن فجيعته ، وماتت تلك الزوجة فى الخامس عشر من ديسمبر ١٨٧٢ م .

ووجدوا فى أوراقها هذه الرسالة :

« زوجى العزيز ... إذا غادرت هذه الحياة قبلك ، فآمر بأن ندفن نحن الاثنين معا فى قبر واحد ، والآن فليباركك الله ... أيها الطبيب !... أيها العزيز !... لقد كنت لى نعم الزوج ... وداعا يا عزيزى « ديزى » !... ولا تعش بمفردك ... إنى أرجو من كل قلبى أن تجد من يكرس لك نفسه تكريس المخلصة لك ؟.

« مارى آن »

ولقد تأثر لكارثته الأصدقاء والأعداء على السواء ، حتى « جلادستون » — خصمه السياسى العنيد — نسى سخيمته ، وكتب إليه يقول :

« لقد تزوج كلانا فى نفس العام فيما أذكر ... ولقد ظفر كلانا فى خلال ثلث قرن بسعادة زوجية لا تقدر بثمن ، وأنا الذى أعفاه القدر من الضربة التى نزلت بك أستطيع أن أفهم ... » .

وأكد له أنه يتألم حقيقة معه ، ومن أجله ... وقد كان مخلصا فى ذلك !...

ومرت الأيام على « دزرائيلى » بعد ذلك شاقة عسيرة ، ولو كانت

« مارى آن » حية ؛ لفخرت بما كانت توفره على زوجها من متاعب يضيق بها رجل ؛ فإنه منذ زواجه وهو ينعم بمنزل وخدم على أتم نظام دون أن يشغل باله بشيء !... لقد كان يقول فى حسرة :

« وما من أمر يستلزم مشقة أو عناء ، لا تستطيع هى أن تواجهه ؟... وما من صعوبة أو مشكلة ، لا تستطيع هى أن تدبر لها الحلول !... لا أعرف امرأة فى مثل دأبها على ما فيه راحتى وسهرها على ما فيه خيرى » ...

وهكذا ماتت « مارى آن » وليس فى مقدورها بعد الآن أن تحمى رجلها العظيم ، وفقد زوجها بموتها بيته ، ذلك المكان الدافىء ، حيث يجد الروح والجسم والاستجمام ، وحيث النقد ينقلب إطراء ، واللوم ملاطفة وعزاء !... إنه لم يعرف بعد اليوم عذوبة المأوى !... لقد كان يقول لسائقه : إلى « البيت » !. فما يلبث أن يذكر أنه لم يعد له بيت ، فتتساقط العبرات من عينيه ... ولولا بعض الأصدقاء الذين كانوا يسهرون عليه ، ويرحمون ما آل إليه ، لما أصبح أكثر من حطام ، ولكن مهما يكن من عناية الأصدقاء ، فهل هى تغنى عن حنان المرأة ؟... وفى صمت الحجرة وظلام الوحدة ، جلس ذلك الرجل مترصدا للذكرى الهاربة : ذكرى صوتها المرح ...

تلك خلاصة هاتيك الصفحات التى هزت نفسى من ذلك الكتاب ، نقلت إليك أكثرها كى تحبى « مارى آن » كما أحببتها ... ولعلك ترينها تشبهك ، كما رأيتها أنا شبيهتك ...

ليلة ١٩ مارس سنة ...

صديقتى !...

هنالك امرأة أخرى أحبها كثيرا ... لأنها أيضا على مثالك وإن كنت لا أرى لها جمالك ؛ فإن تماثيلها أو صورها المتحركة فى جدران معابدها لا تنقل إلينا غير جمال فنى ، لا يمكن أن نرتب عليه أى صلة بجمالها الطبيعى !... تلك هى « إيزيس » المصرية !... لا أريد أن أتعرض للجانب الدينى أو الإلـٰهى فى أسطورتها ... فالذى يعنينى فيها هو جانب الزوجة ... إن وفاءها لزوجها « أزوريس » لمعجزة فى نظرى من معجزات القلب الإنسانى !... كان « أوزوريس » ملكا على أرض مصر قبل أن يسطر لمصر تاريخ علمى ، فجعل منها أمة متحضرة فى زمن قليل ، فاختفت منها العادات الوحشية ، وانقرض آكلو لحوم البشر ، واستتب فيها الأمن ، وحلت الديانات وعبادة الآلهة ...

ثم شرع « أوزوريس » للناس القوانين ، وعلمهم الزراعة ، والحرف ، وتأسيس البيوت ، وتوطيد أركان مجتمع متمدن ، فلما تم له ذلك ، بدا له أن ينشر مثل هذه الحضارة فى أرض أخرى غير أرض مصر !... فجعل يتغيب عن مصر من حين إلى حين ، تاركا زوجته « إيزيس » تحكم المملكة فى غيبته ، فكان حكمها هى الأخرى أصلح حكم !... وسارت فى كل شىء على غرار زوجها ، حتى أحبهما الناس وأحاطوهما بالتقديس ، ولكن عين الشر لا تنام !...

لقد كان لذلك الملك عدو لدود ، هو أخوه « سيت » كان يطمع فى

أن يتولى هو حكم البلاد فى غيبة أخيه ، فلما خاب أمله ، دفعه الحقد على أن يدبر مؤامرة يتخلص بها من أخيه الملك « أوزوريس » ، فانتظر حتى عاد من مملكته ودعاه إلى وليمة فاخرة ، أعدها احتفالا بعودته ... وكانت الملكة « إيزيس » تحذر زوجها دائما من عدوه « سيت » ولكن الملك الذى يجهل قلبه الشر ، لا يستطيع أن يعرفه فى قلوب الآخرين !...

وذهب « أوزوريس » إلى وليمة خصمه ، فلما انتهوا من الطعام والشراب ، أحضر « سيت » صندوقا بديع التركيب ، يخلب الأنظار ببراعة فنه !... كان قد صنعه مطابقا لجسم أخيه الملك ... فلما رأى عينيه تلمع إعجابا بالصندوق ... التفت إليه وإلى المدعوين — وكانوا كلهم من أعوانه المتآمرين — وقال : « من طابق الصندوق جسمه فهو له !... » ، فتعاقب المدعوون على الصندوق ، كل بنوبته يرقد فيه ، فلا يطابقه ... إلى أن جاءت نوبة الملك ، فنهض باسما ، لا تخطر له الخيانة على بال ... ورقد فى الصندوق ، فهجم الحاضرون عليه وأغلقوه وصبوا فوقه مغلى الرصاص ، فختموه ، وأمر « سيت » بالصندوق ، فألقى فى النيل على مقربة من المصب ، وهكذا ختمت حياة « أوزوريس » وهو فى الثامنة والعشرين من عمره ؛ كما قال قوم ... ومن أعوام حكمه ؛ كما قال قوم آخرون !...

إلى هنا لا أجد فى الأسطورة ما يهمنى ؛ فقد كانت تلك أسطورة أكثر الملوك فى العهود الغابرة ، حتى فى أساطير أوربا الحديثة نجد مثل هذا القصص ... فرواية « هملت » لـ « شكسبير » إنما تقوم على ملك تآمر

عليه أخوه ، واغتاله طمعا فى الملك ، ولكن الأخ الخائن فى « هملت » استعان بالملكة زوجة أخيه ، فشاركته الجريمة ، كما بادلته الغرام الآثم ... لكن انظرى هنا ماذا فعلت « إيزيس » ؟... إنها ما كادت تعلم بما حدث ، حتى جزت خصلة من شعرها ، وارتدت ثياب الحداد ، وغادرت قصرها ، وتركت سلطانها ومجدها وكل ما تملك ، وانطلقت هائمة على وجهها تبحث عن الصندوق الذى يحوى جثمان زوجها ؛ فلقد كانت تعتقد أن الميت لا يظفر بالراحة إلا إذا دفنت جثته وفقا لطقوس الدين !...

وضربت فى أرجاء الأرض أياما طوالا ، تسأل كل عابر وعابرة عن ذلك الصندوق الجميل الموشى !... فلم تسمع من أحد أنه رآه ، فلم تقنط ، واستأنفت السير فى بقاع الأرض تبحث وتسأل وتتوسل وتستعطف ، فلم تظفر بطائل ، إلى أن عثرت آخر الأمر ببضعة أطفال يلعبون على شاطئ النيل ، أخبروها أنهم رأوا الصندوق يلقى عند مصب النهر ، فذهبت إلى ذلك المكان ، تبحث وتتحرى من جديد ... ولكن جهدها كان ضربا من العبث ... وساق إليها القدر أخيرا بعض الملاحين ، فذكروا لها أنهم علموا أن البحر حمل الصندوق إلى ساحل « بيلوس » !... فركبت البحر إلى تلك المملكة البعيدة .. وسألت هناك ، فلم يدلها أحد على بغيتها . وأمضها التعب وأرمضها الأسى ... فجلست متهالكة عند صخرة على الشاطئ فرأت صيادا شيخا سألها عن أمرها فأخبرته ؛ فقال لها إن أمواج البحر قد قذفت بالصندوق إلى قلب

شجيرة حناء ، وإن تلك الشجيرة نمت نموا هائلا عجيبا ، مخفية الصندوق في صدر جذعها الضخم ، وإن ملك هذه البلاد مر يوما بتلك الشجرة فعجب لسموقها وروعتها ، وأمر بها فقطعت ، وجعل من جذعها عمودا يدعم به سقف قصره ، فلما علمت « إيزيس » بذلك ، قامت متحاملة إلى ذلك القصر ... ولم تجرؤ على اقتحامه ... فجلست بجواره عند نافورة ماء ، وجاء العصر فخرجت الأميرات بنات الملك يتنزهن ، فأبصرنها ، واقتربن منها وحادثنها ... فلاطفتهن ، وبيدها ضفرت شعورهن وبأنفاسها عطرتهن ... لأن أنفاسها أذكى من عبير الأزهار وأطيب ...

وعادت الأميرات إلى القصر ، فتعجبت أمهم الملكة من ذلك الشذا المنبعث من ضفائرهن وثيابهن ، فأخبرنها بأمر تلك الغريبة الجميلة الجالسة عند عين الماء ، فأمرت الملكة أن تدعى هذه الغريبة إلى القصر وتكرم ، ثم رجت منها أن تكون مرضعا للأمير الصغير ؛ وعند ذلك كشفت « إيزيس » عن حقيقتها ، وقصت عليهم قصتها ، وسألتهم أن يمنحوها ذلك العمود ، فرقوا لها وبادروا فشقوا الجذع وأخرجوا من جوفه الصندوق ، فما كادت تراه وتبصر جثة زوجها فيه ، حتى انطلق عويلها من صدرها ؛ كما ينطلق اللهب من جوف البركان ، وحملت الصندوق معها وركبت به البحر عائدة إلى مصر ، وعلى أرضها فتحت الصندوق مرة أخرى لتبكي البكاء المر على رفات زوجها ملك تلك الأرض ، وأخفت الصندوق بما فيه إلى حين إعداد مراسيم الجنازة وطقوس الدفن ... وإذا عين الشر تتفتح من جديد ، فقد تمكن « سيت » من

العثور على الصندوق ... ونهشه الغيظ وأكله الغضب ، فأخرج الرفات من مكانها ، وقطعها أربع عشرة قطعة ، نثرها فى طول البلاد وعرضها ...

وعلمت المسكينة « إيزيس » بهذه النكبة الجديدة ، فنهضت من جديد تسعى فى أثر زوجها ، واتخذت قاربا من غاب البردى ، طافت به النيل تبحث فى كل مكان عن بقايا الزوج المحبوب ، وظلت تبحث الأعوام لا يمسها ضجر ولا يقعدها كلل ، وكلما عثرت على قطعة من عزيزها أو عضو من أعضاء حبيبها ، دفنته حيث وجدته وبنت عليه نصبا ... ولعل هذا هو السر فى أن لـ « أوزوريس » بمصر عدة قبور ...

هكذا فعلت « إيزيس » الزوجة !... وهكذا كنت تفعلين أنت أيضا لو أنك فى مكانها ، لأنك أيتها الصديقة العزيزة تحملين عين القلب ... إنى لا أشك فى هذا لحظة !... عين القلب الذى ينبع منه كل هذا الحب ، وكل هذا الوفاء !...

مساء ١٩ مارس ...

صديقتى ...

إنى لا أنتهى من تعنيف نفسى على مسلكى معك . كيف عميت فلم أر فى مجرد مجيئك إلىّ مغزى رائعا ؟!... إن الرغبة فى الدنو من رجل يعيش مع الكتب ، هى فى ذاتها فكرة جديرة بامرأة رفيعة !... ليس من السهل دائما على كل امرأة أن تأنس إلى رجل يعيش كما أعيش ، ومن عجب أنه لم يبد عليك لحظة واحدة أنك ضقت ذرعا بى ، بل أنا الذى كان خاليا من

الرزانة والتؤدة ، فعجل بقطع تلك الصلة الجميلة التى لم يكن بها خليقا ، وهأنذا قد حرمت نفسي — كما ترين — ذلك الحسن الوحيد الذى كان له الشجاعة أن ينفذ إلى حجرتى المغبرة بتراب المجلدات ... هأنذا قد أغلقت بيدى نافذة حياتى عن شعاعك ، فلو دريت أى ظلام أحيا فيه الآن !...

تصورى القمر قد انفصل عن الأرض فجأة فى يوم من الأيام ، وسبح فى الفضاء حتى وجد كوكبا آخر جذبه إليه ، وتركنا إلى الأبد بدون نوره ؟... كيف تكون الحياة على سطح أرضنا !... إن استطعنا أن نحيا بعد ذلك ، فثقى أنها ستكون حياة بلا جمال ولا حب ولا شعر !... وما قيمتها إذن مثل هذه الحيـــاة ؟... أأدركت الآن ماذا خسرت بفقدك ؟!...

صباح ٢١ مارس ...

صديقتى :

لم يزل يدهشنى إقدامك على معرفتى ، وعدم تبرمك بحديثى ، كلما قلبت الأمر وجدته عجيبا حقا ... ندر من النساء من تحملت الحياة مع رجل يعيش مع أفكار ... لذلك كان هذا الطراز النادر من النساء موضع إكبار ، لقد حدثتك عن بعضهن !... ولكنى أحب أن أحدثك عن واحدة ، تعرفينها ولا شك ، وتحلينها من نفسك محل القداسة !...

تلك هى « خديجة » زوجة « النبى العربى » ، صورتها تخطر لى دائما ، ولا تبرح ذهنى كلما فكرت فى الزوجة المثلى ؛ — تلك التى تتخير زوجها وهو غارق فى ميدان كفاحه ، فتقف إلى جانبه فى الهزيمة والفوز

واليأس والأمل !... تشد أزره ، وتتلقى معه الضربات ، وتسهد معه الليالى ، وتتلطخ معه بالدماء ، وتضمد له الجروح ، وتبذل له ما تملك من راحة ومال ؛ حتى يصل فى النهاية إلى النصر الأخير !...

هكذا فعلت « خديجة » !... إنها حملت على عاتقها أشياء كثيرة ، حتى الحب هى التى حملته فى قلبها أولا ... وقدمته إلى « محمد » فبادلها إياه وقاسمها حمله ... فهو قبل أن يعرفها لم يعرف قلبه الحب ... لقد كانت حياته — حتى الخامسة والعشرين — حياة الشاب الهادئ البعيد عن النساء ، العاكف على عمله ، يرعى الغنم فى الفلاة ، ويلجأ إلى التأمل العميق ... فلم يكن للهو ، والمرأة — حتى ذلك الوقت — مكان من اهتمامه أو تفكيره ... كانت العفة المطلقة هى صفته الغالبة وقتئذ ، وكان له من الزهد والعلم والصبر والتواضع ما ميزه عن بقية الشبان ، وما جعل قومه يسمونه « الأمين » !...

ما الذى كان يشغل رأس الشاب « محمد » فى تلك السن ، ما دام اللهو والمرأة لا محل لهما عنده ؟... أتراه كان يحسن فى قرارة نفسه بمصيره العظيم ؟... لا ريب فى ذلك !... لقد كان هذا دائما شأن أغلب أولئك الذين انتظرتهم أقدار عظام ، وتملكتهم منذ نشأتهم مثل عليا وأحلام ، عمرت كل أعوام شبابهم ، وحلت فيها محل اللهو والمرح !... إن كل شاب يعيش مع شبح امرأة جميلة ؛ — إلا الشاب الموعود برسالة عظمى ، فهو يعيش دائما مع شبح المجد المنتظر !...

لعل هذا يفسر لنا بعض الشىء حياة الفتى « محمد » حتى الوقت الذى

لقى فيه أول امرأة أحبها . « خديجة » ا... ومن يدرى لو لم تكن « خديجة » هى البادئة بالحب ما الذى كان يحدث ؟... كل شىء يدل على أن الزواج لم يخطر له على بال ، والزوجة والمرأة آخر ما كان يفكر فيه وقتئذ ؛ فلقد كان يسير فى طريق تأملاته الداخلية وأحلامه العليا ؛ وكأنه لا يمشى على هذه الأرض ، إلى أن لحظته « خديجة » ذات يوم ، ولمست كتفه ، فأفاق قليلا ، ورفع عينيه إليها ا...

لقد كان ذلك رائعا حقا من امرأة مثلها ، ذات شرف وثروة ، أن تبدأ هى الخطوة الأولى نحو رجل فقير يتيم ا... هى التى تقدم إليها أكرم رجال قريش نسبا ، وأعظمهم شرفا ، وأكثرهم مالا ... طلبوها وبذلوا الأموال فلم تلتفت إليهم ، وأرسلت تابعتها « نفيسة » دسيسا إلى الشاب « محمد » تعرض عليه يدها ، وتزوجته ، ورأت أيام شكه وقلقه وتعسه وشقائه ا...

رأته وهو يدخل عليها مرتعدا من الروع الشديد قائلا : « دثرونى دثرونى ا... » ، فتدثره حادبة عليه ، قائلة فى قلق : « رحمة بى ا... خبرنى بأمرك ا... » ، فيقول لها :

« إنى إذا خلوت وحدى سمعت نداء خلفى : يا محمد ا... يا محمد ا... فأنطلق هاربا فى الأرض ا... لقد خشيت على نفسى ا... إنى أرى ضوءا وأسمع صوتا ا... وإنى لأخشى أن أكون كاهنا ا... يا « خديجة » ا... والله ما أبغضت ــ بغض هذه الأصنام ــ شيئا قط ، ولا الكهان ا...

فتقول له :

« هون عليك !... والله ما يخزيك الله أبدا ... إن الله لا يفعل ذلك بك أبـــدا ... إنك لتصل الرحـــم ، وتصدق الحديث ، وتـــؤدى الأمانة ، وإن خلقك لكريم » !

وبهذا تسرى عنه ... ولا تهزأ به كما هزأ به قومه الذين سبوه وسفهوه وآذوه ، وحثوا على رأسه التراب !... بل آمنت به وصدقته ، يوم لم يجد حوله أحد يحمل كلامه محل الجد ، ولقد جاءها يوما يخبرها مرتاعا أنه رأى « ملكا » هبط عليه من السماء وكلمه ، وسمع صوته !... وليس يدرى أملك هو حقا ، أم شيطان ؟... فأرادت أن تقطع شكه بيقين ، فقالت له : ... « إذا جاءك صاحبك ، هذا الذى يأتيك فأخبرنى به !... فلما نزل عليه « جبريل » أخبرها ... فنزعت خمارها الذى تنحسر به ، وقالت له : هل تراه الآن ؟... » فنظر محمد فلم ير « جبريل » ... فقال : « لا » !... فصاحت فرحة : « اثبت وأبشر !... فو الله إنه لملك : وما هو بشيطان ؛ إذ لو كان شيطانا لما استحيا !... » .

وهكذا ظلت إلى جانبه تبدد شكوكه ، وتؤمن برسالتـه ... إلى ساعتها الأخيرة ... ويوم علم أعداء « محمد » بقرب وفاتها ، تهامسوا فرحين : « خديجة » فى الموت ... ولم يستطع « أبو لهب » عدو النبى الأكبر أن يكتم اغتباطه ، فجعل يقول لمن معه : « أجل ... عما قليل تذهب تلك التى كانت تشد أزره وتعز شأنه » !...

ولفظت « خديجة » روحها الذى كان منبع ذلك الحب !... الذى

استطاع بقوته وسموه أن يفتح قلب « محمد » ، وأن يملأه كل تلك الأعوام التى عاشتها ، بل إن هذا الحب لم ينطفئ بموت « خديجة » ولقد ظل مكانها من قلبه قائما دائما ، لم تستطع قط امرأة أن تزاحمها فيه ، حتى « عائشة » التى كانت أحب امرأة إليه بعد ذلك ... ما استطاعت أن ترتفع إلى مكان « خديجة » من نفسه ، وقد غرها يوما شدة حب النبى لها ، فقالت له بدلال : « ألست خير النساء عندك » ا... فأجابها للفور : « وخديجة ؟ » ... فقالت له « ما تذكر من عجوز حمراء الشدقين هلكت فى الدهر ، قد أبدلك الله خيرا منها ا... » ... وكانت زلة ... لم تدرك مداها إلا بما بدا على وجه « محمد » من غضب شديد ... إنها لم تره قط غضب منها على هذا النحو ... فقد نهض تاركا لها المكان ، وهو يقول : « والله ما أبدلنى الله خيرا منها ، آمنت بى حين كذبنى الناس ، وواستنى بمالها حين حرمنى الناس » . وكظمت « عائشة » غيظها فى صدرها وهى تهمس : لكأنه ليس فى الأرض امرأة إلا خديجة ... حقا ... لقد صدقت ... نعم ... ليس فى الأرض غير قليل من النساء مثل « خديجة » ... إن المرأة النادرة هى هبة الله الكبرى ا...

آه أيتها العزيزة ا... لو سألونى عنك لقلت : ليس دنياى اليوم إلا أنت !...

مساء ٢٢ أبريل ...

— صديقتى ا...

كم من عمرى أدفع ثمنا لصورة من صورك ، أجعلها فى إطار ثمين ، وأضعها هنا فوق مكتبى ، أتأملها فى كل صباح وفى كل مساء ا... لكن ، لا ... حتى لو وجدت الصورة فلن يكون لى الحق فى وضعها هكذا ا...

كل ما أملك هو أن أضعك فى قلبى ... حيث لا يراك أحد ولا يوجد سلطان ينزعك من هذا المكان ... إيذنى لى فى طرح القلم الآن ، حتى لا أزعجك بحديث طويل ... إنى قائم إلى الشرفة أجلس فى هذا الليل الجميل صامتا أتأملك ا...

صباح ٢٣ مايو ...

— صديقتى ا...

أهكذا كتب علىّ ألا أسمع عنك خبرا ؟... أما أنت فتعرفين من أمرى على الأقل ما ينشر عنى فى الصحف ا... خطر لى هذا الخاطر وأنا أقرأ كل صباح الصحف والمجلات بعين فاحصة ا... إنى أقف الآن طويلا عند كل خبر يمسنى ، أو كل كلمة تنسب إلىّ ، وأذكر أنك سوف تطلعين على ذلك فيملؤنى الخجل ا...

أيتها العزيزة ا... سامحينى ا... إنى ولا شك غير جدير بك ا... أين أنت السيدة الفاضلة ، التى لا يعرف المجتمع عنها إلا الخير ، منى أنا الذى تحصى عليه كل كلمة سخيفة ، وكل كلمة سخيفة ، وكل حركة حمقاء ا...

آه ، لو كان فى مقدورى إقناعك بأن تحسنى بى الظن قليلا ا... ثقى

أن هنالك فرقا كبيرا بين حقيقتى الباطنة ، وحقيقتى الظاهرة لعامة الناس !... أقسم لك إنى فى الباطن خير بكثير منى فى الظاهر ؛ لأن الباطن هو ملكى ومن صنعى ، ولكن الظاهر هو ملك الناس ، ومن صنع الظروف !... وأنا لست ممثلا ، ولم أحاول يوما التمثيل ، فأصنع للناس ظاهرا رائعا بيدى ؛ بل تركتهم هم يصنعون لى ما شاءوا من أردية ، دون أن أحفل بغير حقيقتى التى أعيش معها داخل نفسى !...

ثقى أنى أعيش داخل نفسى فى عالم نقى مرتفع قدسى ، فإذا خرجت إلى المجتمع انطفأت تلك الأضواء من حولى ، وزال عالم السحر الذى كنت فيه ، وبدوت فى ثياب من السخف ، لست أدرى كيف ألقيت علّى ؟!.

إنى لأدهش أحيانا لأولئك الذين أعطوا المقدرة على خداع الناس ، فيظهرون فى المجتمع فى مسوح القديسين ... وهم فى باطنهم من أفجر الماجنين ... بينما أنا أبدو أحيانا للناس هازلا دائم الابتسامة ، وفى باطنى الجد ، وفى طبيعتى الصرامة !... إنى رجل مخلص مع نفسه وكفى ، وليس يعنيه بعد ذلك الباقى ! كل ما يحيا فى أعماق النفس يهمنى ، أما ما يطفو على السطح من زبد ، وما يعرض على الأنظار من صدف ؛ فلا شأن لى به ... حتى حبى لك ؛ من ذا يصدق أنه كائن حى موجود ؟...

آه لو علم الناس أنى أحب !... ما من أحد فى الوجود يرى ذلك الحب المضىء فى قاع نفسى كاللؤلؤة !... حتى ولا أنت !...

* * *

هكذا لبث يكتب إليها على هذا النحو حتى دخل الصيف ... وذهب إلى شاطئ البحر ... ثم أقبل الخريف !... وعاد إلى « القاهرة » ، وهو دءوب على رسائله إلى طيفها ، لا ينقطع عنها ولا يسهو ، وأقبل الشتاء التالى ، ومضى نحو عام على زيارتها الأولى له وهو على حاله ، لا يتغير !... يكتب إليها ويكدس الرسائل فوق الرسائل ، دون أن يسمع عنها خبرا أو يلقاها فى طريق ... ولقد طمع فى أن يضعها القدر أمامه يوما ؛ بل إنه أمل فى أن يراها فى مصيف « الإسكندرية » أو يبصرها مصادفة فى مكان ، ولكن المصادفة ضنت ، والقدر أبى !... إنه مع ذلك كان يحس فى قرارة نفسه أنه سيلقاها ذات يوم ... لأن من المستحيل أن يكون كل شيء بينهما قد انتهى على هذه الصورة !... ولكن ذلك شعور داخلى لا أكثر ولا أقل !... وهو شعور طبيعى يخامر كل قلب يبحث عن حبيب بعيد ، هى همسة الأمل الذى لا يموت ، ولا يمكن أن يموت فى الإنسان !...

١٠

إصبع القدر

دخل الشتاء !... وشعر « راهب الفكر » بحاجة إلى الدفء وحنين إلى الشمس !... إنه يخشى الشتاء ؛ لأنه لا يطيق برده مع برد الوحدة !... إن طيفها استطاع أن يؤنسه فى الربيع والصيف والخريف ، ولكن ليالى الشتاء الطويلة !... آه ... ليس أقسى من الفراق مع الشتاء !... يا لذكراها يوم كانت تأتى ها هنا ، وتخلع معطفها ، وتنزع قفازها !... ثم تلقى بقبعتها ، وتنثر شعرها الجميل !... لا ... ليس فى مقدوره أن يبقى فى ذلك المكان ، فى مثل ذلك الوقت من العام ، حيث كل شىء يقطر كرذاذ المطر بمرارة الذكرى !... عند ذاك خطر له أن يترك مسكنه زمنا ، ويهبط فندقا يستطيع أن يسرى فيه عن نفسه ، وأن يشغل باله عن « طيفها » وقتا ...

واستصوب الفكرة ، فنهض من فوره إلى حقيبته فأعدها !... ثم انطلق إلى « حلوان » ونزل فندى « جراند أوتيل » ، وكان الجو منعشا ، والهواء جافا ، والبرد غير قاس ولا قارس ، فلم يغير من عادته شيئا ، وجعل يخرج فى الصباح إلى أقصى المدينة ؛ مخترقا طرقاتها الخالية ، ومنازلها

الصامتة !... إن حلوان حقا هى مدينة السكون !... كل شيء فيها هادئ ، يومئ بالهدوء ، وكل شيء فيها يكاد يضع سبابته على فمه ؛ كيلا يبدر صوت يزعج قطانها وضيوفها الآتين للراحة والاستجمام !... وكانت الصحراء فى خارج المدينة بغيته : يجلس على حافتها الساعات ؛ كأنه على حافة بحر عجاج !... يشاهد كيف تلعب كرة الشمس مع كثبان الرمال : كأنها حورية الماء تلعب مع الأمواج !. فهى تارة ترمى على صدر الرمل شعرها الأشقر ، فيصفر وجهه ويحمر ، وتارة تتوارى عنه خلف الغمام الرمادى ، وتتركه شاحب اللون كالخائف من ذهابها !... وتارة تمزق قليلا غلائل غمامها وتبسم بسمات متقطعة ، فتبدو كثبان الرمال كالرقطاء قد رقشتها قطع السحب بظلها المتناثر !... إلى أن تنتهى الطبيعة من تلك المغازلة ، وتضع حدا لتلك المداعبة بين الضوء والظل ، فينهض راهب الفكر عائدا إلى الفندق !... ويجلس فى شرفته المطلة على الحديقة ، يتناول الشاى ، وهو غارق فى ذلك الكرسى الضخم المريح ، من الخيزران المبطن بالوسائد !... حتى تهبط الظلال ، أو يبرد الجو ، فينهض داخلا بهو الفندق ، أو صاعدا إلى حجرته !... وكان بمفرده دائما ، يسلم على من يحييه من عارفيه بتحية مختصرة ، لا تشجع أحدا على مصاحبته أو إخراجه من وحدته !... حتى فى قاعة الطعام ؛ اتخذ له مائدة صغيرة فى أحد الأركان لا يشاركه فيها أحد !...

لبث على هذا الحال يومين ... وفى اليوم الثالث وقع حدث لم يكن فى الحسبان !... لقد عاد من نزهة الصباح ، فصادف فى بهو الفندق رجلا

جالسا يطالع كتابا !... ما كادت عينه تلمحه حتى اضطرب كالقصبة ، وخفق قلبه خفقة شديدة ، وصعد الدم إلى وجهه ، وخيل إليه أن من فى البهو يسمعون دقات قلبه وضربات نبضه !... وخاف أن يبدو عليه شيء ، فأسرع متعثرا إلى حجرة يخفى فيها ما ألم به !... يا للعجب !... إنها إصبع القدر ... نعم !... هو الذى ترقب كثيرا وانتظر ... ولم يجد إلى ضالته سبيلا ... ولم يدر لها مكانا فى هذا الفضاء الواسع !. ها هى ذى إصبع القدر تشير الآن إلى الطريق فى صورة ذلك الرجل الجالس !... إنه لم يكن قد رأى هذا الرجل غير مرة واحدة ، ولكن صورته كانت قد رسخت فى ذهنه ، وشخصه كان قد اتخذ له فى نفسه مستقرا منذ زمن طويل !... وكيف ينسى هذا الرجل وهو ... زوجها !... نعم ... إنه زوجها بعينه ... زوجها الذى جاء إليه فى مسكنه منذ نحو عام ، يحدثه عنها ذلك الحديث الذى لم ينسه ولن ينساه !...

« زوجها هنا ؟... إنها هى أيضا هنا إذن !!... هى هنا ؟... هى هنا ؟!... » ردد ذلك لنفسه عشرات المرات وهو فى حجرته ، وقد ذهب عنه الاضطراب قليلا ، وحل محله الفرح ، أو على الأصح شيء كالفرح ممزوج بالخوف ... إنه بالطبع يتوق إلى رؤيتها ... ولكن مع ذلك ... يحس برهبة !... إنه يريد رؤيتها ... ويخاف رؤيتها !... نعم !... وليس يدرى علة ذلك الخوف !...

أتراه يخشى أن يعجز عن ضبط نفسه أمامها فتقرأ ما فى وجهه ... وتطلع على سره ؟ وتتبين لساعتها أنها أمام رجل غير ذلك الذى ذهبت عنه

منذ عام ، وودعته وهو هادئ بارد ، مشغول عنها وعن وجودها وذهابها بورقه وكتبه وأفكاره وتأملاته ؟!... من غير شك أنها بغريزتها ستشم رائحة الرجل الجديد !... إن للمرأة لغريزة تدرك بها ما يقع فى نفس الرجل منها ، وإن لم يجر بينهما كلام ... بل إنها تستطيع — دون أن تنظر إليه — أن ترى بعين خفية إذا كان قد رمقها أو لم يرمقها ، وأى موضع من جسمها وقع عليه بصره !!... إنها مثل تلك الزهرة التى تعرف بالغريزة أى نوع من الهوام يفتن بألوانها ... وتدرك بالطبيعة متى أثر سحرها فيه فتتأهب لاستقباله والانطباق عليه : كما أنها تعرف عجزها عن استهواء بعض الأنواع فتتركه يمر بها ... ويذهب عنها ؛ وكأنها عنه مشغولة لاهية !... لم يكن يدير فى رأسه مثل هذه الأفكار من قبل ، ولكنه الآن وهو موشك أن يلقاها وجها لوجه ، أدرك للمرة الأولى خطر تلك الحاسة الخفية فى المرأة ؛ فهى التى ستمزق قناعه وتكشف عن عواطفه ، لا كما صورها هو وسطرها وأقنع بها نفسه ؛ — ولكن !...

على أن هنالك خوفا آخر كان يحسه : إنه يتهيب مجرد لقائها !... إن لها عنده الآن لهيبة !... إن البعد والشوق والأحلام جعلت تنسج لها فى نفسه — رويدا رويدا على مر الأيام — صورة لم تعد من صور البشر !... لقد نسي تفاصيل قسماتها الواقعة ، ودقائق ملامحها الحقيقية !... ولم يعد يذكر منها إلا جمالا مثاليا ، وجلالا خلقيا !...

إنها فى نظره اليوم شيء معنوى رفيع ، أكثر مما هو كائن موجود . إنها قصيدة ، ولم تعد حقيقة ... إنها أسطورة ، وليست حياة ... إنه

سيقابلها الآن ، لا كما كان يقابلها بالأمس ... بل إنه سيبدو عليه ، ولا ريب ، احترام لشخصها ، قد تراع منه وتدهش ... سيكون شأنه معها شأن من يقابل قديسة من القديسات وقد بعثت حية ، أو ملكة من ملكات الحكايات التى عمرت أدمغة الأطفال ، منذ غابر الأجيال ...

ثم هنالك أمر آخر ... كيف يسلم عليها ... وعلى أى وجه يدار الكلام معها ؟... أيتكلف لها ويتصنع ، ويجعل أنه قد نسيها قليلا ، وأنها امرأة لا يحمل لها إلا ذكرى شاحبة عابرة !... هذا هو الوضع المعقول فى نظرها ونظر زوجها ... ولكن كيف السبيل إلى ذلك !... وهى التى عاشت معه بطيفها طوال الأيام والليالى ... يبثها خواطره ونوازعه ، حتى زالت بينهما الكلفة ، واستحكمت الألفة !...

طفق يفكر فى كل ذلك حتى حان وقت الغداء ، فتردد وحار : أينتظر فى حجرته ، ويطلب أن يؤتى إليه بالطعام ؟... أم يتشجع وينزل إلى القاعة ، ويتعرض لمواجهة الأمر ؟!... إن شوقه إلى رؤيتها فى حقيقتها كان قد بلغ أيضا مبلغا لا تنفع عنده المقاومة ، ولا تفيد الإرادة ... لماذا لا يقابلها ؟... إنه لحسن الحظ قد أعطى الوقت الكافى لتدبر موقفه وتهدئة روعه ؛ ففيم الخوف ؟... وكيف كان يصنع إذن لو أنه أخذ على غرة ، ورآها فى البهو بغتة وجها لوجه ؟!... كل ما ينبغى له الآن أن يضبط نفسه ، وقد هيئت وأعدت للملاقاة ما هو حادث ، وأن يكون طبيعيا فى تصرفاته على قدر الإمكان ... وليترك الأمر للقدر فهو الذى يخلق الظروف التى يتحرك فيها الناس ويسكنون ، ويلتقون ويفترقون !...

ونهض وقد صح عزمه على النزول إلى القاعة ، والجلوس فى مكانه المعتاد إلى الخوان الصغير ، كأن لم يتغير شىء فى نفسه ولا فى يومه ... غير أن شيئا داخليا ذكره بالمرآة ، فوقف أمامها لحظة يصلح — لأول مرة — من هندامه قبل أن يغادر الحجرة ، ولم تعجبه ربطة عنقه ، فحلها وعقدها من جديد ، ونظم شعره !...

وأضاع فى تلك الأشياء وقتا لم ينفقه فى مثلها طول حياته ، ولم يسخر مع ذلك من نفسه ؛ لأنه لم يكن يفكر فى ذلك ؛ بل كان يفكر فيها « هى » ، وفيما ينبغى للقائها ... وهبط أخيرا إلى قاعة الطعام ، واتخذ مجلسه فيها ، وهو يجهد فى التمسك بالهدوء ، ويحاول أن يتجنب بأنظاره الناس ، ولكن عينه مع ذلك كانت تبحث خفية « عنها » ، وعن زوجها بين المقاعد والموائد ... على أن من الغريب أنه لم يعثر لهما على أثر ، وانتهى الغداء ولم ير أحدا ... ولم يأكل بالطبع فى ذلك اليوم أكلته المعتادة ، فإن قلقه النفسى أخمد شهيته ... أين هما ؟... أتراهما يتناولان الطعام فى حجرتهما ؟!... هذا معقول !... إذن فلا أمل له فى أن يراهما إلا فى البهو أو الشرفة أو الحديقة !...

وخرج يمشى وئيدا فى تلك الأمكنة بحثا عنهما .. عجبا !... أهو الآن الذى يطاردهما بعد أن كان يريد الهرب منهما ؟!... ولكن هكذا الإنسان !... الآن وقد اختفى شبحهما امتلأ قلبه شجاعة ، ونفسه رغبة فى أن يراهما ، ولو مرة واحدة أخرى !... إن كل خوفه الآن هو أن يفلتا منه ويذهبا بلا رجعة ، وهو الذى لم يكن يفرح بالعثور عليهما ، ولكن فيم

اليأس ؟... إنهما الساعة ولا ريب يستريحان بعد الغداء ... ولن يخرجا من حجرتهما قبل العصر ، فليدع كل شيء للمصادفة ، وليسر هو فى طريقه على نظامه السابق !... يقرأ وقت القراءة ، ويكتب وقت الكتابة ، ويتنزه وقت التنزه ، ويتناول الشاى فى الشرفة إذا جاء العصر ، وقد فعل ... وجلس ذلك اليوم فى مقعده الخيزرانى بشرفة الفندق ... وإذا هو يبصر « زوجها » فى الحديقة يمشى فى بعض مسالكها ، مع ضابط فى الجيش برتبة « البكباشى » ؛ على كتفيه شارة النسر والنجمة ولم ير أحدا آخر معهما ولا قربهما ... أين « زوجته » إذن ؟... من يدرى ؟... ربما تركها فى الحجرة ... أو ربما خرجت مع إحدى صديقاتها ، فليس من الضرورى أن يمكثا معا طول الوقت ، ولا بد أن يراها معه فى فرصة من الفرص ، فقد يتفق ألا يلتقى النزلاء من المعارف يومين أو ثلاثة ، فى مثل هذا الفندق الكبير ... ولكن لا مناص من تلاقيهم يوما من الأيام ، وكان هو يرى الزوج من مقعده ... ولكن الزوج لم يكن قد فطن إليه حتى الساعة ، وقد خطر فى باله وقتئذ أن يتحين من الزوج التفاتة فيظهر نفسه له ، لعله يقبل عليه ، وتتجدد بينهما المعرفة ، وتتوثق الصلة ، حتى إذا صادفها مع زوجها بعد ذلك ، كان موقفه منها أدنى إلى السلامة ، وأقرب إلى المألوف !...

وجعل يرقب الزوج من شرفته ، فأبصره يحادث صديقه الضابط حديثا خافتا ، لا يستطيع سماعه بالضرورة !... ولكن البادى من حركات يده يدل على أن الحديث خطير ، وأنه يجهد فى تهدئة صديقه

وإقناعه ، ولم يكن مظهر الزوج هو الذى يسترعى النظر ، إنما هو منظر صاحبه الضابط ... كل شيء فى ذلك الضابط ينم عن نفس ثائرة ، ويكاد ينطق بهياج عصبى مكتوم . إنه كان يمشى يهتز ويترنح وينفخ ويزبد ؛ كأنه مرجل يوشك أن ينفجر !...

هذا كل ما استطاع راهب الفكر أن يعرفه من مظهر الرجلين ، ولقد كانا فى سن واحدة على وجه التقريب ، فكلاهما فى نحو الثامنة والثلاثين أو التاسعة والثلاثين ، وكان من الواضح أن الرابطة بينهما أوثق من رابطة الصداقة العادية ، ولبثا فى حديثهما وإشاراتهما وقتا ، ثم استدارا ليعودا إلى داخل الفندق ، فلم ينتظر « راهب الفكر » حتى يبصراه ... وخشى أن يشغلهما عنه ما هما فيه ... وأغراه القلق بالعجلة ، وحثه الشوق على خلق الفرصة بنفسه ... فنهض سريعا وتصنع الخروج من الفندق ساعة دخولهما حتى يقابلهما بالباب ، وقد تم هكذا كما أراد ، ولكن الزوج وقد رآه ، لم يفعل أكثر من أن حياه تحية سريعة مقتضبة ... ومضى مع صاحبه دون أن يقف أو يبسم أو يبدو عليه انصراف عما يشغل باله ، وبال صاحبه الضابط من شئون ...

دخلا وتركا رجل الفكر واقفا ساهما لا يدرى ما يصنع ، وأفاق من ذهوله فلم ير لنفسه مخرجا غير الخروج من الفندق ، كما أوهم أنه انتوى ؛ ومشى فى الطريق على غير هدى ، وهو يقلب فى رأسه ما حدث !. إنه كان ينتظر على الأقل تحية أطول من هذه مع شيء من الاهتمام ... وبضع كلمات يتبادلانها تفسح المجال للقاء آخر ، وتنم عن حرص على صلة

يرجى لها النماء ، لقد كان فى تحية الزوج على قصرها معنى الاحترام ، ولكن ليس فيها معنى الرغبة فى إنشاء صداقة أو اتصال ، ألا تراه يبالغ فى مطالبة الناس بما يريد هو وبما لم يخطر فى بالهم هم ؟... ما ذنب هذا الزوج المشغول الآن بشئونه ، المنصرف إلى أحواله ، الخالى الذهن مما يجرى فى رأس هذا الأديب ؟!... إن الإنسان ليفسر تصرفات الناس أحيانا ، ويضخمها أو يصغرها ؛ تبعا لعلاقتها بمشاعره وأهوائه ... أما هى فى ذاتها فليست ضخمة ولا ضئيلة ، ولكنها متناسبة مع منطق الظروف المجردة من كل اعتبار ... ووجد فى هذه الفكرة تسرية عنه ، فعاد إلى حجرته فى الفندق وهو يوصى نفسه بأن يأخذ الأشياء كما تقع ، وأن يقبل من الناس ما يعطون ، لا ما كان ينتظر منهم !... وألا يتعجل الأمور ، ولا يصطنع الفرص ويختلق المناسبات !... ونام ليلته هادئا ، وجاء اليوم التالى فلم يحدث جديد ... إلى أن تناول عشاءه فى قاعة الطعام ، وفرغ منه ؛ فخرج مارا ببهو الفندق !... فما كاد يضع قدمه فيه حتى أبصر أمامه « الزوج » جالسا بمفرده ، وفى يده كتاب مفتوح ؛ وكأنه ينظر فيه بعين ، ويرقب بالعين الأخرى شخصا ينتظر قدومه !...

وضبط « راهب الفكر » نفسه هذه المرة ، وتأهب لتأدية تحية مختصرة لا يزيد فيها عن حد اللياقة ولا ينقص ذرة ... وإذا هو لدهشته يرى الزوج قد نهض لاستقباله محتفلا به ، راجيا منه أن يتفضل بالجلوس معه لحظة ، وكان فى عينيه ونبراته حرارة الإخلاص والرغبة الصادقة ، لا تكلف المجاملة أو مراعاة الواجب وهو فرح فى قرارة نفسه . وبدأ الزوج الحديث قائلا :

ـــ أخشى أن أكون قد أزعجتك فأنت قد جئت « حلوان » ولا شك للراحة ... أو لتضع مؤلفا جديدا فى هذا الهدوء !... إنى أخشى أيضا أن تكون قد نسيتنى ، ولعلك رددت التحية البارحة ، وتكرمت بقبول دعوتى الآن ، وأنت لا تذكر من أنا ... فلقد تقابلنا مرة واحدة منذ عام !...

فبادر الكاتب يقول بابتسامة كلها مودة :

ـــ إنى أذكر كل شىء كأنه بالأمس ، لقد كنت أنت المتفضل بزيارتى !...

فأطرق الرجل ؛ كأنما يهرب من شبح ذكرى ، وقال بصوت خافت غامض :

ـــ نعم ...

ثم لم يلبث أن تدارك أمره ، فرفع رأسه على عجل قائلا :

ـــ أنزلت هذا الفندق منذ وقت طويل ؟!...

فقال رجل الفكر :

ـــ منذ ثلاثة أيام !...

فقال الزوج :

ـــ عجبا ... وكيف لم أرك إذن إلا البارحة ؟!...

فلم يجب الكاتب عن هذا السؤال ... بل سأله هو أيضا :

ـــ وأنتم ؟... جئتم « حلوان » ؟...

وكان وضع السؤال بصيغة الجمع مقصودا ، ولكن الزوج أجاب

دون أن يفطن إلى مراد الكاتب :

— لقد جئت منذ أسبوعين !...

هنا أطرق « راهب الفكر » حتى لا يرى الزوج تغير وجهه ، فقد أدرك من هذه الإجابة أن الزوجة لم تحضر مع زوجها ... وشعر فى تلك اللحظة بإحساسين متناقضين : أحس شيئا من القنوط وشيئا من الراحة فى عين الوقت ؛ فهو يتحرك لرؤيتها ، ولكنه لا يكره تأجيل لقائها حتى يعد له نفسه الإعداد الكافى ... إن هيبة لقائها كانت مشقة ... فليتنفس الآن الصعداء ... وحسبه اليوم أن يعرف أخبارها إلى أن يحين اليوم الموعود ، والتفت إلى الزوج لعله يعرج بالحديث إلى الزوجة ، منتظرا منه أن يكون هو البادئ ، ولكن الزوج كان هو الآخر مترددا ... وكأنه يرجو أن يحرك لذلك أو يدفع إليه ، وهبط عليهما صمت ؛ خاف الزوج أن يطول ؛ فبدده قائلا :

— أتعجبك « حلوان » ؟...

فقال الكاتب للفور :

— نعم .. وأنت ؟...

فتردد الزوج قليلا ، ثم قال :

— إنى فى الحقيقة جئتها لسبب خاص !...

وتشجع « راهب الفكر » وسأله :

— أأنت هنا وحدك ؟...

— نعم ... ولكن ابن خالى الضابط الذى رأيته معى البارحة ينزل هنا

أيضا منذ أربعة أيام ... إنه مصاب بالأرق ... ولم ينم ليلة واحدة منذ مجيئه ... إنه ليكاد يجن ... لقد طلبت له أحد الأطباء فى الليل ... لا شيء أفظع من الأرق !... إنه لقدير أن يجن رجلا ، أو يدفع به إلى الانتحار ...

قال ذلك فى نبرة المخاطب لنفسه ؛ المؤمن بما يقول ، المجرب المعانى لما يصف ... وتذكر « راهب الفكر » أرقه السابق هو الآخر مصادقا وهو يقول مؤمنا :

ـــ نعم !... نعم !...

واستأنف الزوج الكلام قائلا ، وكأنه يحدث نفسه :

ـــ إنى فى موقف يشق على النفس احتماله !!...

وأراد الأديب أن يجذب الحديث إلى حيث يرمى ، فقال :

ـــ لو كانت السيدة زوجتك معك لأعانتك على احتمال كل شيء !...

فأطرق الرجل ، وقال مغمغما :

ـــ زوجتى ؟!...

فقال الكاتب بنبرة أراد أن تكون طبيعية :

ـــ إنى لم أزل أذكر حديثك لى عنها ... وقولك لى إنها أمست تحب لكتب ، وتقبل على القراءة !..

فرفع الزوج رأسه ، وقال فى شبه صيحة مكتومة :

ـــ إنها الآن تكتب يا سيدى !...

ـــ تكتب ؟!...

لفظها الكاتب فى دهشة يمازجها رضا ، ولكن الزوج قال بصوت

بعيد عن الرضى ، قريب من الأسف والأسى :

ـــ نعم !... تكتب اعترافات !...

ـــ ماذا ؟!...

قالها « راهب الفكر » مستفهما مستغربا ، ولكن الزوج اعتدل فى جلسته ، وقد اتخذ وجهه صورة أخرى ، فيها معان مختلفة من العزم والحزن والتوسل والتجلد ، وأنشأ يقول :

ـــ إنى انتظرتك هذا المساء هنا عن قصد وتعمد ؛ فإنى بعد أن رأيتك البارحة ، وعلمت أنك فى هذا الفندق خطر لى أن أعرض عليك ما انتويت عرضه ، ولم يكن من السهل علىّ أن أفاتحك فى الأمر ، ولكن ما دام الحديث قد جرنا إلى ما كنت أريد ، فإنى أسمح لنفسى أن أطلعك على أمر خاص بى ، قد يهمك الاطلاع عليه وقد لا يهمك !... ولكنى على كل حال محتاج إلى أن تصدقنى الرأى فيه !... وفيما يجب أن يتبع ... ثم إذا شئت فإنى أخبرك بما أنتظره منك بعد ذلك !...

فلم يبد على « راهب الفكر » أنه فهم شيئا كثيرا من هذا القول ، وأدرك الزوج ذلك من وجهه ، فقال له :

ـــ ستفهم كل شيء بعد اطلاعك على اعترافاتها ، ومن اللغو أن أقص عليك القصة وهى مسطورة بخطها فى كراسة !... إنى لا أريد أن أثقل عليك ، أو أضيع من وقتك !... حسبك أن تقرأ تلك الصفحات الليلة ، إذا أردت ، قبيل نومك ؛ فتلم بكل موقفى ... حتى نستطيع فى الصباح أن نتناقش فى الأمر مليا ... ألديك ما يمنع من ذلك ؟...

فأشار الكاتب برأسه أن « لا يوجد مانع » فنهض الزوج وهو يقول :

— « اسمح لى بدقيقة واحدة كى أحضر لك الكراسة من حجرتى !... » .

وانصرف مسرعا تاركا « راهب الفكر » فى شبه ذهول ... أى كراسة !... وأى اعترافات !... ترى ماذا كانت تكتب هى أيضا ، وماذا كانت تقول ؟... عجبا !... أهذا ممكن الحدوث ؟... ولِم لا ؟!... لعلها كانت تكتب إليه هو ؛ كما كان يكتب إليها ... لعلها كانت تملأ تلك الكراسة حديثا مع طيفه ؛ كما كان يملأ رسائله حديثا مع طيفها ، ولقد كانا يتراسلان إذن ويتكاتبان ، دون أن يعلم أحدهما بما يفعل الآخر !... لقد كان كل منهما يبث الآخر على الورق حبه وحنانه ... ويعترف بدفين عواطفه ويخفيها فى طيات الصفحات !... إنه إذن لم يكن يلقى فى الهواء الصيحات ، وما كان ينفث سدى فى جوف الليل بالآهات ... كل هذا كان يبلغ قلبها على البعد ، وكانت تجيب ... ياالأعجوبة الله التى تربط هكذا بين القلوب !... تدفقت هذه الخواطر وتراقصت فى رأس « راهب الفكر » ولكنه تذكر موقف الزوج ، بل ذكر موقفه هو من الزوج ... وماذا هو قائل له وصانع معه ؟...

إن ذلك الزوج الحزين قد رأى أن يطلعه على كراسة زوجته ... ولا شك أنها قد وقعت فى يده على غير إرادتها ... ولا جدال فى أنه يريد أن يناقشه الحساب فيما ورد فيها ... ما أحرج هذا الموقف !... إنه لم يخطر له على بال أن يسىء إلى زوج ، أو يعتدى على كرامة زوجة ... وكيف يدرأ

عن نفسه تلك التهمة ؟... وكيف يطيق أن يفقد تقدير هذا الزوج له ، واحترامه إياه ؟!... حقا إن هذا الزوج المهذب لم يبد إشارة واحدة تنم عن قلة تقدير ، أو نقص احترام « لراهب الفكر » ... ولكن المعول عليه ما يجول فى خاطره وما يجوس داخل نفسه ... وهو ما لم تشأ كياسته أن تظهره ، وما لم يرد تهذيبه أن يبديه !... ما هو الطريق السوى فى هذه الحال ؟... لا شك أنه الصدق !... فليصارحه بالحقيقة ... والحقيقة هنا بسيطة نقية ، وتصرفاته كلها لا غبار عليها ولا مأخذ ، فكل ما بينه وبينها من علاقة لا يعدو العاطفة الطاهرة المكتومة فى صدر الورق ... مهما يكن من أمر فهو لا يعرف بعد مدى حديثها فى الكراسة ، ولا ما كاشفته به من مشاعرها ... ولا كيف وصفت هذه العواطف !... لا ريب عنده فى أنها عواطف نبيلة رفيعة ... غير أنه لا بد من الاطلاع عليها ، قبل أن يعرف حقيقة موقفه من الزوج !... وسرعان ما تقشع ذلك الحرج الذى أحسه منذ قليل ؛ ولم يبق فى نفسه غير السعادة الفياضة ، والشوق الملتهب إلى مطالعة كراستها !...

وظهر الزوج عائدا يحمل دفترا متوسط الحجم ، أحمر اللون ، داخل غلاف حكومى قدمه إلى « راهب الفكر » ، وهو يقول له :

— إنى واثق بالطبع من شرفك ... وأعرف أنك ستقدر أن ما بهذه الصفحات سر عائلى لا يجوز إفشاؤه ، إذا استطعت أن تقرأ هذه الكراسة الليلة ؛ لتعيدها إلىّ فى الصباح ، فإنك تحسن صنعا ، وأكون لك

شاكرا ... على كل حال موعدنا فى الغد ... وأرجو لك نوما هنيئا !...

وتصافح الرجلان ... وافترقا ...

وذهب « راهب الفكر » توا إلى حجرته ، ودخلها حاملا الكراسة ؛ كأنه يحمل قلبه !...

١١

الكراسة الحمراء

« ... أريد أن أكتب !... نعم ، لا بد أن أكتب كل ما عندى !... إن نفسى غارقة فى أمواج من الانفعالات لا يكفى فى تسكينها أن أفضى ببعضها إلى صديقة ... لا بد أن أتكلم لأزيح عن نفسى ما يملؤها ، ويكاد يخنقها من ضيق ويأس ، وفرح وأمل !... إن إحساسى بضرورة الكتابة شيء لم يسبق لى أن عرفته أو فهمت له معنى ، ولكنها اليوم رغبة لا تقاوم ، أحسها فى كل كيانى ... أريد أن أعترف بكل ما خالجنى ويخالجنى من أشياء قد تكون غريبة مخيفة ، لكن لم أخاف ، وما دمت لن أطلع مخلوقا على ما أسطر هاهنا !...

أليس لى حتى حق الهمس بما أحس بين طيات الورق ؟... سأقص كل ما حدث بالصراحة والدقة ... وسأقول ما أعتقد بالحق والصدق ، ولن أدافع عن نفسى ، أو أحاول أن ألتمس لتصرفاتى الأعذار ... فما أنا فى حاجة إلى ذلك فى هذه الصفحات الخاصة . لست كذلك أريد هنا أن أدون مذكرات ، أو يوميات مرتبة مؤرخة ؛ فهذا شيء لا يعنى امرأة مثلى ... إنما هذه الصفحات ليست أكثر من صيحات !... نعم !... كل

ما أريد هنا هو أن أصيح بملء فمى ... أصيح بدون أن يسمعنى أحد ... فى مثل هذا الجو الذى أعيش فيه ، لا بد أن تعطى لى هذه الحرية على الأقل !... آه ... يا لى من شهيدة !... هذا المساء أيضا أتحمل مشهدا جديدا من مشاهد الاضطهاد !... إنها عمتى أوفدتها أسرتى اليوم سفيرة إلىّ لتلقى علىّ دروسا فى الأخلاق !... كلا إن الأمر حقا أصبح لا يطاق ... وإنه لمن المستحيل علىّ معالجة هذا الموقف الذى يسوء من يوم إلى يوم ... وإنى لأرى الآن جليا أنه لو تكرر هذا المساء مرتين أو ثلاثا ؛ — فإنى لن أحجم عن ترك كل شىء وأهرب ، أو أقدم على عمل ذى خطر ؛ فكل شىء مباح لامرأة مهانة على النحو الذى وقع لى اليوم !... إنى أحس أنى مقيدة بالسلاسل ؛ كأنى كلب !... على أن الكلب له على الأقل حق النباح ، أما أنا فلا أستطيع الصياح ... إذ لمن أصيح ؟!... هل أصيح للنجوم شاكية لها بأنى أختنق فى السجن الذهبى ، الذى أحاط فيه بسجانين ، لا يلقون فى نفسى غير الرعب والهلع ؟... إن حياتى الصغيرة لتثور ، إنها لترتعد بكل قواها المكتوفة !... نعم ... إنى لأبحث عن مثلى الأعلى فى موضع مختلف كل الاختلاف عن ذلك الذى صنعوه لى صنعا !... إن حاجتى إلى حياة حرة كانت دائما حلمى المسيطر على نفسى الناشئة ، ومع ذلك فقد نشأت فى أسرة كبيرة عديدة الأفراد ، كلهم متفق على مضايقتى إلى أقصى ما يستطيع ، وكلهم يحاول أن يبحث فى مجرد نظراتى ، وأن ينقب فى أعماق أفكارى ؛ ليرى إذا كان يجوز لى أو لا يجوز أن أتصرف هذا التصرف أو ذاك !... إنهم لا يكلون ولا يتعبون

من مراقبتي وملاحظتي ... لا أريد أن أقول إنهم شريرون ، ولكنى أريد فقط أن أقول : إنى لا أتفق معهم قط فى الأفكار ، وأن طريقة تفكيرى وفهمى للأشياء تختلف عن طريقتهم على الإطلاق !... إنه لشقاء لى ولهم !... إنها لمصيبة من تلك المصائب التي تأتى بها الحياة فلا نملك لها دفعا ، ولا نستطيع لها تعليلا !... إنى لست عاقلة جدا !... أعرف ذلك ، ولكنهم هم أيضا ليسوا إلا خلاصة حقيقية لكل تلك الفضائل السخيفة المصطلح عليها ... إن ما يسمونه « العائلة » شيء مؤثر حقا ... وشيء طيب ، ولكنه شيء « يضايق » !...

اليوم كان النزاع يدور حول « المرضعة » ؛ فقد قيل إنها امرأة ذات سير معوج ، وقد جعلت عمتى بالطبع تسرد علىّ الأدلة والبراهين والحكم والمواعظ !... وأنا أصغى إلى نصائحها غير الجذابة فى هدوئى المعتاد ، ولم أحاول حتى أن أغضب أو أتجهم ؛ فلقد كان « قرفى » بلغ حدا زهدنى فى أى رد أو كلام ... ولكنى اكتفيت بأن قلت لها فى ابتسامة مصطنعة : إنى فى الوقت الحاضر لا أرى فى سلوك المرضعة المعوج خطرا على طفلتى التى لم تبلغ العامين !...

آه !... إنى لأكاد أجن فى عزلتى النفسية ... لا شيء يخفف من شدتها أو يلطف من وقعها !... آه ... الحياة ... الحياة ... أريد أن أذهب إلى حيث تدفعنى أهوائى وتقودنى رغباتى !... أريد أن أحلق فى فضاء المغامرة !... لا أن أقعد هنا كعصفور كسروا جناحه !... نعم ... إنى عطشى لأن أصغى إلى رجل ... إلى رجال يقولون لى إنى جميلة !... تواقة

إلى أن أرتجف تحت لمسات أيديهم المداعبة ، وأستمع إلى رجائهم المنبعث من قلوب محترقة ... فأتأبى عليهم وأتمنع !... أو أسلم بجنون ، وأتصرف فى كيانى وقلبى وجسدى !... أمنح نفسى ، أو أسترد ما منحت !... وأهب جسمى وأرجع فى الهبة !... أريد أن أعرف لعب الحب ... نعم ، أنا أيضا أريد أن أحب ، وأن أكون محبوبة !... أريد أن يداعبنى ويلاعبنى رجل يحبنى حب الجنون !... ولا بأس عندى بعد ذلك من أن يكون مصيرى مصير الزهرة التى تنتزع — وقد ذبلت — من صدر الثوب الأنيق !... الحب !... الحب !...

آه ... لكم أقاسى فى سجنى هذا من داء لا وصف له ولا دواء !... حقا ، إنى أعلم عن نفسى أنى أصبحت لا أطاق ، بأزمات صمتى وحالات كآبتى ، والواقع أنه ما من شىء حتى ولا أبرع «نكتة» تستطيع أن تدخل على قلبى السرور ، أو تنتزعنى على الأقل من ذلك الحزن العصبى الذى يخيم على نفسى ... أنا المرأة الشابة التى فى الخامسة والعشرين ، الجميلة كما يقولون ... التى تعيش إلى جانب زوج ذى مركز راسخ مستقر ... لا أظن من المفيد توجيه اللوم إلى آرائى ... إنى معترفة بأنى قد أكون على خطأ ... ولكن ثقوا أنه من الخير أن أترك فى حالتى هذه ... فهى أفضل من إرغامى على الخروج منها ؛ لأنى إن هوجمت فى معقلى الأخير هذا ، فإنى أخشى أن أفقد توازنى ، أو أن يخرج من يدى زمام الأمر !...

حقا إنه لجو لا أستطيع التنفس فيه ... الجو الذى أعيش فيه ، يحف بى

ظلم هؤلاء الناس !... من الإنصاف أن أزعم قليلا أنى على حق فى هربى من هذا المحيط الجاف الجامد ، وأنى أحسنت صنعا بالتجائى إلى مخدعى ، محاولة نسيان تلك المناقشات الحمقاء ... مفضلة الحديث مع نفسى ، فى حجرتى ، على الحديث مع عمتى العانس ، فى أمثال ما عرضت له هذا المساء !!... نعم إن لى من العمر خمسا وعشرين سنة ... ولكن هل كتب علىّ أن أضيع حياتى كلها فى أشباه تلك اللحظات التعسة ؟...

لقد مضى نحو ثلاث سنوات وأنا زوجة رجل كامل الأخلاق ، لا عيب فيه ، مستقيم استقامة جديرة أن تعطى مثلا لشبيبة الجيل الحديث ، وإنى بالضرورة لا أستطيع أن أخالط من الأصدقاء غير أولئك الذين يسمح لى زوجى بمخالطتهم ، وكلهم من طرازه وعلى صورته ، على أنه ليس فى المقدور أن يتم بينى وبين زوجى حديث دون أن تصدمنا أبسط العبارات ، وترغمنا على السكوت فجأة ، إذ نلحظ فى الحال أننا فى سبيل أن نضل ، وأن أقدامنا إنما تسعى إلى حيث تختلف طبيعة كل منا ذلك الاختلاف الواضح !...

نعم !... ما من موضوع نستطيع طرقه معا ، فكل شىء يجب أن تلاحظ فيه قيود الزوجية وواجبات الوفاء الزوجى !... ما أشق العيش هكذا !... كلا ... ليس فى بيتنا رحابة الصدر ، وسماحة النفس ! ما من أحد هنا يفهم عاطفة ملتهبة ، أو يغفر زلة أو يتغاضى عن جنون !... على النقيض : كل شىء هنا يجب أن يفوح برائحة « الشرف » و« الحياء » و« العفة » ... إلخ !... أى رائحة البلى والقدم والعوائد العتيقة

والحجرات المغلقة !... انا التى اعتقدت أنها ستنجو بنفسها ، وتعتق من كل هذا بالزواج ؟... إنى لأتساءل الآن : أى الحياتين أقبض للنفس وأسخف ؟!... لعل الفرق بينهما أنه فيما سبق كانت لى فسحة الأمل على الأقل ، ولم يكن على عبء الزوج !...

آه ... إنى وحيدة ... لكم كان ينبغى أن يكون بين الزوج وزوجته ذلك الحب العنيف الذى لا طعم للحياة بدونه ، لا ذلك الحب الفاتر الذى لا فرق بينه وبين الصداقة الهادئة ، لكم كنت أطمح إلى تذوق طعم السعادة فى هذا الاتصال الوثيق ، الذى يسمونه « الزواج » ، وأعرف ذلك الشعور الذى تحسه الجارية المعبودة من مولاها ، وأبهر إعجابا بذلك الرفيق لحياتى ، الذى جعلته المقادير من نصيبى ، فأرى كيانى كله قد أضاء بما انعكس علىّ من أشعة قوته ، لطالما حلمت وتمنيت أن أحب حبا جنونيا من كل قلبى ! حبا يفقدنى رشدى وصوابى !... دون أن يخطر ببالى البحث عن سبب هذا التفانى العارم ، أو سر ذلك السحر الذى يمكن ذلك الحبيب المجهول من أن يجعل منى تلك العاشقة المفتونة الممنونة !...

تلك الأحلام الذهبية المشرقة التى طالما شيدتها قد انجلت وأسفرت عن ماذا ؟... عن زوج وضعونى تحت وصايتــه ، زوج جاد أكثر مما ينبغى ،... وها هو ذا أمرى قد انتهى إلى ما صرت إليه : مومياء حية !. لم يزل أكثر الناس لا يفهمون ما هو « الحب » ؟... وإن العواطف القوية تعتبر لديهم من الأشياء الضارة الخطرة ، وإنه لا يجوز لنا أن نحب إلا ذلك الزوج الذى قيدتنا به الظروف ، حتى وإن اختلفنا معه كل الاختلاف فى

الطبع والمزاج ، والميول !... إنهم لا يريدون أن يفهموا أن هنالك أنواعا عدة من الحب ، وأن الإنسان لا يستطيع أن يحيا بغير أن يحب من أعماق كيانه ...

آه !... يا لها من حياة ... حياة البيت !... ما أبهجها حقا ... فى الصباح ماذا أصنع وقد انتهيت من زينتى ؟... لا شىء غير الخروج إلى الحوانيت مع بعض الصديقات ... أو إلى حديقتنا أو حديقة بعض المعارف لنلعب « التنيس » مع الصديقات بالطبع ، فإن زوجى لم يعد يجد فراغا للعب معى أو مع غيرى ؛ فقد أصبح رجلا مشغولا بعمله ككل الأزواج ، بعد العام الأول من عقد القران ... فإذا لم أخرج فليس عندى غير التسكع الكئيب فى أرجاء المنزل !... أترك حجرة لأدخل أخرى ، إلى أن أستقر آخر الأمر قرب « الراديو » ؛ لأصغى إلى الأغانى وأجد فى آهاتها صدى أحزانى ، فإذا لم أجد فى الأغانى ما يطربنى لجأت إلى القراءة ... آه ... لقد أدركت ... أدركت لماذا كان زوجى يوصينى دائما بالكتب ، إنه كان يعلم أن السأم ينتظرنى ، ولكن القليل منها ، أجد فيه ما يروى ظمأ نفسى !... لقد خاب أملى فى الكتب ومؤلفى الكتب !...

ويأتى زوجى من عمله متعبا فنتغدى فى صمت ، ثم نأوى إلى حجرتنا ، أو أتركه يذهب إليها وحده أحيانا ، وأجلس أنا فى الصالون أطالع بعض المجلات ، فإذا جاء العصر ، زارنا بعض أقارب زوجى ومن بينهم ابنة عم له ... فتاة سخيفة تخفى — تحت مظهرها الساذج — نفسا

خبيثة شريرة !... فنجلس نتحدث فى شئون فارغة ، ونقص حكايات تافهة مضجرة ، إلى أن يحين وقت العشاء ، ثم نأخذ فيما كنا فيه من باطل الأحاديث ، أو ننكب على مائدة « الكونكان » أو « البيناكل » ، مع بعض المعارف . إلى أن تأتى ساعة النوم فنفترق ... كل إلى فراشه بعد أن نلفظ العبارة المألوفة : « تصبحوا على خير ... » ونأوى إلى مضاجعنا ، فننام ملء جفوننا نوما طويلا هادئا ؛ كأنه نوم الأطفال المطيعين البررة !...

إنى لا أغالى فى شىء ، تلك هى حياتى وإنى يوم وطنت عزمى على أن أسطر اعترافاتى قطعت على نفسى العهد ألا أقول غير الصدق ، مهما يكن قاسيا أو شائنا أو مخجلا !...

آه !... إنى سئمت !... إنى ضجرة ... وإنى لأعذب نفسى بمحاولتى تذكر لحظة سعيدة مرت فى تلك السلسلة التى لا تنتهى من أيامى التى سلفت ، ولكننى الآن قد سئمت ... أريد اليوم أن أتنفس قليلا !... وأن أتذوق سحر الحياة ... لكن كيف ؟... ومتى ؟... إنى لا أجرؤ على سؤال الغيب عن مصيرى !... خشية أن يقول لى إن غدى كأمسى !...

أخيرا ... يبدو لى أن السماء قد سمعت زفرات قلبى ... وأنها قد أزمعت أن تقف لحظة إلى جانبى ... فها هو ذا زوجى يعود اليوم من ديوانه يعلن أنه مسافر غدا لأعمال مصلحية تقتضى غيبته بضعة أسابيع ، لقد مضى عليه أكثر من عام لم يتركنى يوما واحدا !... لقد تنفست وهو يعلن إلىّ ذلك الخبر ... ولكننى كتمت ما بى ، كى لا يظهر على وجهى

الفرح واتخذت هيئة القلق والكدر ، وقلت له كالوالهة :

— « مسافر ؟... يعنى ضرورى من سفرك يا « محمد » ؟... » .

فقال :

— « ضرورة !... مأمورية مستعجلة فى الأقاليم !... » .

فعبرت له عن حزنى لمجرد فكرة فراقه ، ولو كان ذلك ليوم واحد ... وقد حرصت على أن تبدو على وجهى مظاهر الضيق والألم !...

واليوم الثلاثاء ، سأتناول الغداء فى منزل والدتى ، حيث يجتمع بعض أفراد العائلة ، حسب العادة المتبعة كل أسبوع ويا لها من اجتماعات ثقيلة !... بل هى سخرة لا بد من تحملها ؛ فأقل ما فيها من مشقة وجوب الحيطة والاحتراس فى كل كلمة ألفظها ؛ خشية أن تفسر أسوأ تفسير .. لذلك أفضل الصمت المطلق على أن أتهم بالجنون والخروج على قواعد الحشمة والأدب !... على أنى أحيانا أوثر أن يتهمونى بأى شىء على أن أشترك فى تفاهاتهم وأباطيلهم وإشاعاتهم التى يغتابون بها الناس هناك ... وهل أستطيع أن أرد على أقاويل عمتى ، وهى تحكم برجعيتها وضيق أفقها على تصرفات صديقتى « مرفت » زوجة « البكباشى حسنى » ابن خال زوجى ، الذى يعزه دون بقية أقاربه !... هذه الصديقة المسكينة كل جريمتها أنها أرادت أن تعيش ؛ وأن تتنفس قليلا !... وأن تحيا كمخلوق حر متمدن ... ولكنها فى نظر عمتى وأمثالها من أفراد أسرتى : امرأة ساقطة : أفعالها وأحوالها تشبه أفعال وأحوال العاهرات !... يا لها من ألفاظ شنيعة ، تكاد أذنى تثور لسماعها !... وغير عمتى واحدة أخرى

من قريباتنا لا تنسى أن تضيف : « الحق أن كل شيء فى هذه المرأة يدل على الخفة والطيش والاستهتار ... حتى العطر الذى تتعطر به !... » .

ويمضى على هذا النحو كل من حضر !... فيتبرع بكلمة ينهش بها تلك المرأة الشقية ، متخذين منها ، ومن مثيلاتها مادة للحديث والسمر !... لقد كنت أدرك أنه ما من جدوى فى الدفاع عن مثل هذه المرأة فى مثل هذه الولائم !... فهى طبق ضرورى من أطباق المائدة !... وإن لحمها ألزم للحاضرين من لحم الضأن أو الأوز ، أو الديك الرومى !...

لقد كنت أكتم ازدرائى لهؤلاء الناس الذين يشتهون أن يتغذوا « بفضائح » الآخرين ... حتى الشابات من فتيات الجيل الحديث ممن أومن أن آراءهن فى ذلك مخالفة لآراء العجائز المحافظات — يجدن عين اللذة فى هذا « الطبق » ، وهذا اللون من الطعام : طبق « الفضيحة » و« الإشاعة » ... ما من أحد يلتمس العذر لمن يغتابونهم ... فيذكر ضعفهم الإنسانى الذى قد يكون هو المسئول أولا وأخيرا ... لا ... فالجميع مع إدراكهم لملذاتهم الاجتماعية ... لعلى أنا وحدى التى كانت فى قرارة نفسها تلتمس الأعذار لجميع الغوايات والغلطات على هذه الأرض ... تاركة حق الحكم عليها للديان وحده ... الواقع أن فى أسرتى — كما فى أكثر الأسر — أفرادا يحبون التظاهر بالغيرة الكاذبة على الأخلاق، ويؤثرون على الآخرين من الضعفاء الذين لا يجرءون على معارضتهم ، حتى وإن كانوا فى حقيقة الأمر لا يشاركونهم عين الرأى ... إنى لعلى ثقة بأنهم فى غيبتى يحكمون علىّ أنا أيضا أشنع

الأحكام ... ولكن ماذا يهم ؟... فليقولوا ما شاءوا ... فإنى لن آكل معهم هذا اللون من الطعام ؛ لأن معدتى لا تقوى على هضمه !...

فى الساعة الرابعة ... أختى الصغرى تسألنى بالتليفون عما نصنع اليوم ؟... سنذهب الآن عند بنت عمنا ... لنلعب قليلا من « الكونكان » أو « البوكر » أو « البيناكل » ، وفى المساء نذهب إلى سينما « .... » ؛ لنشاهد الفيلم الجديد « هناء الغرام » ؛ فقد حجزت لنا أختنا الكبرى « بنوار » ، فلا مفر من الذهاب ؛ لأن إرادتها عندنا أمر لا بد من طاعته !... على أنى فى الحقيقة أحب « السينما » !. وتروقنى بعض الأفلام المصرية !... إنها على الأقل خير لى من مجالسنا العائلية !... ولكن ما الذى يدعونى إلى إضاعة هذا العصر عند بنت عمى ، أصغى إلى بقية الحلقة التى لا تنتهى من « التشنيعات » ؛ أما يكفى ما سمعت فى الظهر عند والدتى ؟... كلا ... إنى أفضل الذهاب مع زوجى ومع زوج أختى الكبرى إلى « ميناهاوس » نتناول الشاى ؛ — على الاستمرار فى تناول الناس بالنميمة فى منزل ابنة عمى !...

آه ... لو كنت أعلم ما يخبئه لى القدر !... لو كنت أعلم تأثير ذهابى يومئذ إلى « ميناهاوس » على مجرى حياتى كلها لأحجمت عن الذهاب ... إنى كلما فكرت فى ذلك لا أتمالك عن البكاء بدموع غزار !... لا دموع الندم ؛ بل دموع أذرفها على ذكريات ، هى — ولا ريب — أجمل وأروع وأغرب ما مر بى فى الحياة !...

فى نحو الخامسة ، كنا فى طريقنا إلى « ميناهاوس » ، وكان الجو لطيفا

فاخترنا مائدة فى الحديقة ، وأقبل علينا الخادم ، فسألنى زوجى عما أطلب ، ثم أوصى الخدم بإحضار ما طلبنا ، وأدرنا أعيننا لنجيل النظر فيما حولنا ، وإذا ... وإذا عينان ترنوان إلىّ من مائدة أمامى على نحو هز نفسى !... لقد كان صاحب هاتين العينين شابا ، بديع القسمات ، منتظم الملامح ، معتدل القد ، تبدو عليه أناقة تنم عن سلامة ذوق وحسن اختيار !... فحولت فى الحال عينى إلى جهة أخرى ... ولكن على الرغم من ذلك فإن نظراتنا تقابلت غير مرة ... وفى مدى الساعة أو الساعتين لجلوسنا كانت أعين أحدنا تبحث عن أعين الآخر دون علم منا ، ثم تتجنبها ، ثم تعود إليها من جديد !... لطالما حاولت عبثا أن أقصى نظراتى عن نظراته ... لقد حدث فى نفسى شىء لا يمكن تفسيره ... شىء عميق غامض ، يجذبنى جذبا إلى ناحيته ، وبغير أن يقوم بيننا تعارف شخصى ، شعرت لفورى أنى واقعة تحت تأثيره ... وليس هذا بالأمر الشائع الحدوث ... فإنه ليصادفنا فى حياتنا النسائية رجل عابر يعترض طريقنا ، فنتحاذى الأكتاف ، وتتقابل النظرات ... ولكنها نظرات عدم الاكتراث ... ثم يمضى كل منا لشأنه ... بل إنه ليحدث أحيانا أن نعرف شخصا بالذات فلا يخطر على بالنا قط أنه سيتخذ فى أنفسنا محلا ، ولا فى وجودنا مكانا ... ولكن القضاء يشاء ... فإذا الحب قد أوثقنا بسلاسله وإذا نحن نتساءل كيف وقع هذا ؟... ولماذا ؟... فلا نتلقى غير إحساس يصعد من أعماق قلوبنا صائحا : إن هذا الحب كان دائما موجودا ...

هذا الشاب ليس عندى بغريب ... بل الغريب حقا ؛ هو هذا الاتفاق

أو المصادفة أو القدر الذى وضعنى أمامه اليوم وجها لوجه ... هذا الشاب الأنيق لم يكن غير « .... » الممثل الأول ، فى فيلم « هناء الغرام » ، الذى سنشاهده هذه الليلة ... ولطالما شاهدته من قبل فى أفلام أخرى ... ولطالما سمعت بأخباره من الصديقات ، وقرأت عنه فى المجلات ، أعجبت به ذلك الإعجاب العام الشائع الذى يكنه له كثير من النساء ... ولكنى ... ولكنى ، منذ هذا العصر ، أحس أن رباطا خاصا وثيقا يقيدنى به !...

ذهبنا فى المساء إلى سينما « .... » ورأيت هذا الشاب على الشاشة خيالا نابضا ، وأصغيت إلى صوته يتدفق حرارة ، خيل إلىّ أنها تنساب فى مفاصلى . وتشيع فى نفسى وتصعد إلى رأسى فتكاد تفقدنى صوابى ... ترى أهو فى الحياة كما هو فى الرواية ؟... أتراه فى الواقع يحادث من يحب من النساء بمثل هذا الحديث العذب وهذه العاطفة الملتهبة التى يحادث بها هذه الممثلة التى تشاركه التمثيل ؟... أتراه حقا يستطيع أن يحب هكذا ؛ كما يتطلب دوره فى الفيلم أن يحب ؟... أتراه ينتصر دائما هكذا فى ميدان الحقيقة ويفوز بأمتع النساء وأصعبهن منالا ، كما يستطيع ذلك فى هذه الروايات ؟... ليس فى عزمى مطلقا أن أرمى بنفسى فى أحضان هذا السيد المفضال الذى لن أراه ولا شك بعد اليوم أبدا ، إلا من « بنوار سينما » . ولكن لا بأس مع ذلك من مجرد التأمل ومحادثة النفس !. لقد قلت فى نفسى : إن رجلا فى هذا الشكل والقد والتأثير ، لو عنى بأن يغزو قلب امرأة ، لكان من المحتمل أن تخضع هذه المرأة ، وإن كانت من أحرص

النساء !. ترى ماذا يحدث لو أن رجلا مثل هذا وقف فى طريقى ، كلمنى بهذا الصوت الساحر ؟!... لو أنه أمرنى بتلك اللهجة التى تمتزج فيها شبه رقة حالمة ، بشبه بهيمية عارمة !... إذا أمرنى بتلك اللهجة الحلوة الصارمة أن أتبعه فماذا ترانى صانعة ؟... إن الجواب على هذا ليس بالشئ الهين ، ولا بالأمر اليسير !...

لقد شعرت تلك الليلة أنى فريسة عواطف شتى حلوة وغريبة وما استطعت لحظة أن أصرف ذهنى عن التفكير فى هذا الرجل !... لقد جثم طيفه على مخيلتى ... وجعلت صورته تتبعنى بغير انقطاع ؛ ذلك أن كل شيء فيه يعجبنى : نظرته وصوته وإشارته وإيماءته !... لقد جعلت أفكر ، وأتصور ، وأعجب ؛ لمتناقضات الحياة !. كيف يسمح لرجل ثرى بدين مصاب بضغط الدم ، أن يرقد فى سرير ممثلة شابة جميلة ؛ باعتبار أنه خليلها ، مع ما فى هذا المنظر من إيذاء لشعور كل ذى فهم وذوق ... ولا يسمح لمثل شاب جميل مثل « .... » أن ينام فى فراش امرأة لطيفة من نساء الأسر ؟!... آه ... إنى لأتمنى ذلك مرة !... مرة واحدة : أن أنام بين ذراعى هذا الرجل ... يا لى من خاطئة !!... إن مجرد هذا التفكير خطيئة !... ولكن ... أليس الاعتراف بالخطيئة جديرا ببعض الغفران ؟... إن فى إخراج هذه الخواطر من صدرى ، ورفعها عن كاهلى ، وإلقائها فى هذه الصفحات ؛ — ليشعرنى بإحساس من تخفف من عبء ثقيل ... ولكنى مع ذلك لست أعرف ما بى ... ولم أستذ الرقاد تلك الليلة ، ولم أكف عن المشى فى الحجرة ، أدور فيها وأقطع

طولا وعرضا ... حتى صاح بى زوجى آخر الأمر :

— « عجبا لك ... ألا ترقدين ؟... مالك تدورين هكذا ؟... » .

مالى ؟... هل فى إمكانى أن أصارحه بما بى !... بى يا سيدى الزوج أنى لو وجدت فى فراشى رجلا مثل « .... » لكنت قد رقدت منذ زمن طويل !...

هنالك شىء لست أفهمه : لطالما شغف الرجال بالممثلات ، يغدقون عليهن الإعجاب ، ويغرقونهن فى البذخ والترف ، فلماذا نحن النساء لا نفعل كما يفعلون ، فنسبغ عطفنا على الممثلين ونحوطهم بعنايتنا وحبنا ؟... يقولون إنها الفضيلة والأخلاق تأبى ذلك علينا !... إنى لأعجب لهذه الفضائل والأخلاق التى تحلل لهم ما تحرم علينا ، وتغفر لهم ما لا تغفره لنا أبدا نحن النساء الضعيفات !...

استيقظت هذا الصباح مبكرة لأجهز الحقيبة لزوجى المسافر ضحى اليوم !... ثم جاء موعد السفر فودع أحدنا الآخر وداعا روحيا طيبا ... ثم أوصانى ببعض حاجات له أقضيها أثناء غيبته ... وذهب !...

وهأنذى أشعر بجو من الحرية يغمرنى ... فتأهبت على عجل للخروج ، وغادرت المنزل بحجة شراء بعض الحاجات من الدكاكين ، ولكنى بدلا من ذلك رحت أهيم على وجهى فى الشوارع ... أملأ عينى الفرحتين بألوان المارة وأصناف المعروضات فى واجهات الحوانيت ... وتعقب خطاى رجل وسيم ، وهو يقول :

— « أما شيك صحيح » !... أنا مستعد أكون تحت تصرفك طول

حياتى ...

فأسرعت فى خطواتى وأنا أقول له :

— « وأنا غير مستعدة أن أضيع وقتى مع حضرتك بخمس دقائق » !...

وألهتنى أمثال هذه الحوادث والمحادثات أثناء سيرى فى الطرقات ، إلى أن جاء الظهر ، فقادتنى قدماى — على الرغم منى — قرب سينما « .... » وما استطاعت نفسى أن تقاوم تلك الرغبة الملحة فى دخول السينما ... لقد دفعنى إلى ذلك دافع أقوى منى !... لقد كان كل أملى هو أن أعرف شيئا عن هذا الممثل « .... » الذى شغل فكرى بهذا المقدار !...

ولكن هاهنا مفاجأة حياتى التى لا يمكن أن تدانيها مفاجأة !... كلا ... بل ذلك هو العجب الذى لا يرقى إليه خيال الروائى ... فمهما خصبت قريحة الروائيين فإنهم لا يستطيعون الإتيان بمثل مفاجآت الحقيقة !... إنهم قلما يصورون الحقيقة ؛ لأن الحقيقة أحيانا أروع خيالا مما يتوهمون ، لو أنى قرأت فى إحدى القصص ما أرويه مما اتفق لى ، لهززت كتفى غير مصدقة ولا مكترثة !...

هل أنا أحلم ؟... كلا ... بل هى الحقيقة ... أو قل هى المصادفة ، أو القدر ، أو النصيب !... ما وطئت قدماى عتبة السينما ، حتى أبصرت الممثل « ... » أمامى واقفا بجوار شباك التذاكر ... فألجمتنى عاطفة قوية ... أهو وجوده المفاجئ الذى سبب لى هذا الاضطراب ؟... أعتقد ذلك ؛ فلقد ملكت نفسى حتى لا أشعره بالتفاتى إليه ... وأخرجت

سريعا من حقيبة يدى نقودا ، وحجزت محلا لم أعن باختياره ، ولم أدر أفى حفلة « الماتنيه » هو أم « السواريه » ثم هممت بالانصراف على عجل ... وإذا المصادفة مرة أخرى ، أو هو القدر !... لست أدرى ماذا أسمى ذلك الذى يصرف أمورنا على نحو مباغت غير متوقع الحدوث ... لقد سمعت لدهشتى صوت الممثل « .... » الحلو النبرات ينادينى بأدب قائلا :

— لا مؤاخذة يا هانم ... وقعت منك حاجة !...

يا لك من منطقى بارع أيها الشيطان !... ما أمهرك فى اختراع الأسباب المعقولة ، والمناسبات المقبولة !... لقد حدث فعلا وأنا أخرج النقود من حقيبة يدى أن سقطت منها ورقة ، مدون بها الحاجات التى سألنى زوجى قضاءها ، فالتقطها الممثل « .... » سريعا وناولنى إياها ، فرفعت عينى نحوه فألفيته يحدجنى بنظرة غريبة من عينين تلمعان ببريق فجائى كله نشوة !... فأحدثت هذه النظرة هزة فى كل جسمى ، فمددت يدى لآخذ الورقة ، فإذا يده تلامس يدى ، فشعرت بيده ترتجف ؛ كأنها مست سلكا مشبعا بالكهرباء ، فأحسست فى تلك اللحظة كأنى ثملة بخمرة مجهولة لذيذة ، لا تستطيع قوة فى الوجود أن تخرجنى عن نطاق سحرها ... ومع ذلك فقد تجلدت ، وشكرته وتحركت للانصراف ، ولكنه بادر قائلا :

— «إنى سعيد يا سيدتى لهذه المصادفة التى سمحت بأن ألقاك اليوم، فلقد رأيتك أمس الأول مرة فى حديقة «ميناهوس» ، والآن عندما أبصرتك مقبلة تملكنى فرح، لا يقاس إلى جانبه أى فرح آخر مهما عظم!...» .

كان يقول هذا وكأنما كان يتحدث بلسانى ... فأنا أيضا تملكنى لرؤيته مثل هذا الفرح ، ولكنى لا أستطيع مطلقا أن أخبره بذلك ، لقد كنت أمامه صامتة ، ولكنى أحس سعادة ، لا قبل لى بوصفها ، وأنا أسمع هذا الاستعطاف من فمه ، وبصوته الحار المترنم ...

ودار بيننا هذا الحديث :

ــ إنى امرأة خجلة ، ولست أدرى كيف أجيب ...

ــ لا يا سيدتى !... إنى حقيقة لست أدرى من أنت ... ولا ماذا تصنعين ؟... ولكن الذى أريد أن أعتقده ، هو ألا يكون من المستحيل أن تفكرى فىّ قليلا !... إنى كثير الادعاء !... أليس كذلك ؟...

فأخذت فى الضحك ... وقلت له :

ــ إنه ليتفق لى أن أفكر فى أناس كل فضلهم أنهم يحبسوننى فى سجن من السأم ... أفلا أستطيع أن أفكر أحيانا فى فنان استطاع بمواهبه أن يؤثر فى نفسى ؟...

ــ لا أحب يا سيدتى أن يتجه اهتمامك إلى الفنان وحده ... إن لدى شيئا آخر غير هذا ... لا تنظرى إلىّ فقط باعتبارى ممثلا !...

ــ وكيف تريدنى أن أنظر إليك إذن ؟...

ــ لا تؤاخذينى !... إنى أعرف أنك ستحكمين علىّ حكما سيئا ... فهذا حقا عمل جنونى ... وليس من حقى أن أطلب إليك تصديق رجل لا تعرفينه ، ولكنى أرجوك أن تثقى فى إخلاصى !... البارحة عندما رأيتك فى « ميناهوس » خيل إلىّ أنى أرى رؤيا إلـٰهية ...

لقد غمرنى إحساس بأنه كان ينبغى أن يعرف أحدنا الآخر منذ زمن طويل !... إنى أعلم أنى لا أستحق منك هذا العطف ... فأنت جميلة يا سيدتى ، ولا شك أنك محبوبة ... ومدللة من أولئك المحيطين بك ، ولكننى مع ذلك أرجو أن تنظرى إلىّ بعين التسامح ... وألا ترفضى رجائى !...

وهنا رأيت أن الحديث قد وصل إلى مرحلة خطرة ... فأنا لست مدربة بعد التدريب الكافى على هذا النوع من المغازلات الجريئة ، حتى أستطيع اجتياز مثل هذه الأحاديث برشاقة ولباقة ، دون أن أورط نفسى ، أو أصدم شعور غيرى ... ثم إنه فضلا عن ذلك فإن « .... » لا يغازل ، ولا يداعب ، ولا يمزح !... فهو جاد فيما أرى !... أو على الأقل يبدو لى أنه كذلك ؛ فصوته يغمره الشعور الصادق ، وعيناه تنطقان برجاء يائس ذليل ، وشفتاه تبتسمان ضراعة واسترحاما ، وخياشيمه تضطرب رهبة وأملا ، ونفسه التى يقدمها كأنها قربان !... كل هذا وجد إلى قلبى سبيلا سهلا ممهدا ... لعل من تقع فى يده هذه الصفحات يوما يتهمنى بالطيش وعدم الاتزان ، ولكن هل نستطيع دائما أن نفسر كل شىء بالعقل الرجيح والمنطق السديد ؟...

فليقف عاذلى موقفى : ليرى تلك الكلمات ، ويطلع على ما اضطرم به قلبى ... ثم ليرمنى بعد بما يشاء ... إنى لواثقة أنه سوف يقف حائرا مترددا ، قبل أن يصدر فى أمرى حكما !...

وقلت أخيرا للممثل « .... » وأنا أهم بالصعود إلى السيارة :

ــ شكرا !... و ... وداعا !...

فقال وهو ما زال محتفظا بيدى فى يده :

ــ لا يا سيدتى !... لا تقولى وداعا ... بل إلى لقاء هذا المساء ... سأنتظر هنا فى حفلة « السواريه » ... إنها لقسوة منك شديدة إذا أنت لم تحضرى ... كونى كريمة ... إنى مع ذلك ــ بغير أن أطالبك الآن بجواب ــ سأنتظرك ... وسأحل نفسى الليلة من كل موعد أو اتفاق ... لا تقولى شيئا ... أرجوك ... دعى لى على الأقل حلاوة الأمل !...

فى هذه اللحظة أدركت أن الحب قد أمسى سيدى ومولاى ... ما من أحد يستطيع أن يدرك قوة تلك الكلمات التى قالها لى !... لقد هزمتنى ، واكتسحتنى ، وسيطرت علىّ ... وما أن جاء المساء حتى كنت قد نسيت كل شىء ، حتى تلك الحاجات التى كلفنى زوجى اقتناءها ، لم يكن فى رأسى غير فكرة واحدة ... لقد كنت على استعداد أن أدوس كل ما يعترض سبيلى إلى رغبتى ، ولو كانت الإنسانية جمعاء !... لقد شعرت بأنى أصبحت جارية رقا لقوة غريبة مسيطرة . كان يجب علىّ أن أتخذ واحدا من أمرين : إما أن أنساه ، وإما أن أقع فى ذراعيه ، وقد وطنت عزمى على اختيار الأمر الثانى !... لماذا انتهى بى الأمر إلى هذا الاستسلام !... إلى هذه الحمى !... إلى هذه التضحية بكل كيانى ؟... وكيف رضيت أن أعرض نفسى لأشياء لا أجرؤ على مجرد تصورها ؟... ولكن عبثا أحاول التماس الأسباب ... إنى منذ ساعات قد تسلط علىّ حب أعمى ، من العبث أن أقاومه أو أكافح فى سبيل الانتصار عليه !...

إن مجرد ذكر اسم « .... » أو مرور طيفه على خاطرى كاف لأن يلقى فى رأسى الجنون !... لقد أمسى بالنسبة إلىّ رمزا لسحر الحياة الذى طالما تمنيته ، وجريت خلفه ؛ كما نجرى خلف سراب !... ليس من السهل أن أجد تعليلا قويا لما سيحدث لى !... إنى أتهم نفسى بالمس من الشيطان ... لقد حاولت أن أخجل من هذا الحب ، وأعمل على ازدرائه ... ولكن كلما اقتلعت منه شعرة نبتت شعرات ... إن القلب ليتخذ مائة طريق يصل بها إلى ما يريد !...

لطالما قالوا إن الحياة رواية تمثل ... هذا صحيح ... ولعل الأصح أنها فيلم سينمائى ، قد صنعه القدر فى معمله صنعا ... وهيأ لكل منا دوره الذى لا يتعداه ؛ ليعرضنا بعد ذلك خيالات تتحرك طبقا لسابق مشيئته ، على لوحة المكان تحت أشعة الزمان ...

هكذا اعتقدت أن القدر هيأنى لهذا المصير ، ولهذا لم أستطع مقاومة تلك الرغبة التى كانت تدفعنى إلى لقاء هذا الرجل الخلاب ، ولكن كيف الذهاب للقائه فى دار السينما فى حفلة المساء أمام الناس ؟... هنا خالجنى شىء من الرهبة ، ولكن لا ينبغى أن أتفكر ولا أن أتدبر ... لم يعد الزمام بيدى ، فلأسيرن كما يأمرنى قلبى ، نحو ذلك المجهول بمفاتنه ومخاطره .

إن « الحب » إذا تراءى لنا نحن النساء ، فإنه ليهبط علينا متدثرا فى أجمل المشاعر وأروع الإحساسات ، فينبت عندئذ فى صدورنا إيمان !... نعم ... إيمان بأن لنا رسالة ... رسالة نسوية لا تدركها إلا الأنثى !... هى أن تعطى السعادة لذلك الذى عرف كيف يعطينا السعادة !... هذا

الإيمان الذى يمدنى بالقوة ، ويجعلنى أصبح قائلة :

— « إنى أحب .. إنى أحب .. وما من عقل أو حزم أو منطق يحول بينى بعد الآن وبين الهدف !... لا بد لى من بلوغ مأربى ... وفى سبيل أن أفوز بـ « ... » لن أحجم — إذا لزم الأمر — عن ارتكاب جريمة ...

آه ... لو وقع ما أكتب الآن فى أيدى أولئك الغيورين على التقاليد ، لثاروا علىّ ، وودوا أن ينشبوا أظفارهم فى عنقى !... ذلك أنهم لن يستطيعوا أبدا فهم عواطفى !... إن عقولهم الهادئة ومنطقهم المطمئن ليقف مشدوها بليدا أمام امرأة تعوى وتخور ؛ كحيوان جائع ، صارخة :

— إنى أحب ... أحب ... أحب ...

ولكن ماذا أعمل لأخفى غيبتى ؟!... وأنا التى تتبعها عيون الرقباء من كل جانب ؟... حتى خدمى يتجسسون علىّ ، وعندى الدليل ... ليس من العسير علىّ أن أجد طريقة ... وأنا التى ترغم دائما على الالتجاء إلى الكذب فى كل يوم ...

رأيت أن أتصنع المرض ، وأزعم أن صداعا شديدا يضطرنى إلى ملازمة حجرتى ، والتبكير فى النوم ... وعلى هذا أخبرت الخدم بأنى لن أتناول العشاء ، وأن فى مقدورهم إذا شاءوا أن يتصرفوا فى ليلتهم كما يشتهون ، ولقد بادروا بالطبع إلى تنفيذ هذا الأمر المحبوب !...

على أنى فيما بعد لم أشغل بالى إلى هذا الحد ، بأمر إخفاء سهراتى الليلية !...

فى نحو التاسعة والنصف كانت الأنوار كلها قد أطفئت ... وخيم على المنزل صمت عميق ...

آه ... ما أسعد الإنسان بالحرية !... هأنذى حرة أخيرا !... من الدقة أن أتحرى فى نفسى ، عما إذا كانت تلك اللحظات الأخيرة قد أيقظت عقلى ، ونبهت ضميرى ؟... لا أظن ذلك !... الأمانة تقتضينى هنا أن أعترف بصراحة ، إنى لا أذكر مطلقا أنى راجعت نفسى فى شىء ، أو أنى عيرتها بالخجل من تلك الساعات المقبلة التى قد تجر علىّ فى أذيالها العار !...

لم يخطر على بالى هذا ... لقد كان ما يشغلنى أهم من ذلك ؛ لقد أردت أن أستجمع كل مواهبى لأجعل نفسى جميلة ...

لو أن « .... » استطاع أن يرانى فى تلك اللحظة لشاهد منظرا عجيبا رائعا : ذلك منظرى وأنا أمام مرآتى ؛ كالقطة المتنمرة ، هائجة هادئة فى عين الوقت ، راضية عصبية ، أتهيأ وأتجهز بعناية دقيقة ، ورغبة عنيفة فى أن أخلب لب هذا الرجل !...

واخترت ثوبا من القطيفة السوداء ، أعرف أنه « يحبك » جسمى حبكا يظهر محاسنه ويبدى تفاصيله . وهو مع ذلك غاية فى البساطة ... ولم أرد التزين بسوار فى معصمى ، ولا بخاتم فى إصبعى ، ولا بقرط فى أذنى ، نبذت كل حلية من الحلى ، ولقد أردت أن أترك لوجهى وحده ولجسمى !... لى أنا وحدى كل الفضل فى سلب فؤاد هذا الرجل ، وتأملت نفسى مرة أخيرة فى المرآة شددت من عزيمتى ، وقوت من ثقتى

فى نفسى ، غير أنى لم أنس مع ذلك ، أن أجرع كأسا من الويسكى ، الذى يعنى زوجى بتخير أجوده ... فأعانتنى هذه الكأس على اكتساب تلك الإرادة الثابتة ، وتلك البديهة الحاضرة التى يضفيها الكحول على العقول ؛ كأنه السحر ، ورفعت سماعة التليفون ، حتى لا يدق جرسه فى غيبتى ... ثم ... ثم فى غير تردد ولا إحجام ، خرجت ذاهبة إليه ...

فى الساعة الحادية عشرة إلا ربعا وقف بى « التاكسى » أمام دار سينما « .... » فدخلت ، وكان الفيلم الكبير قد بدأ ، فسألت القائم بالباب عن الممثل « ... » فأخبرنى أنه دخل « الصالة » فقلت :

— إنى أريد مقابلته !...

فسألنى :

— « نقول له من ؟... » .

فشعرت بالدم يصعد فى وجهى ، فهذا سؤال محرج ما كان يحسن أن يلقى على سيدة فى هذا الموقف ، ولم يخطر لى قط أن أحدا سيلقيه علىّ ، ومن الإنصاف والأمانة أن أورد هنا أنى حاولت فى تلك اللحظة فقط أن ألقى على نفسى درسا فى الأخلاق ، وأن أثنى عزمى على المضى فيما أنا فيه ، والعدول عن هذا اللقاء ...

ولكن ماذا كان فى مقدورى أن أفعل ؟... إنى لم أكن فى وعيى ، لقد كنت أشبه الأشياء بقشة تتقاذفها الأمواج ... كنت قد ألقيت بنفسى فى أحضان المغامرة وانتهى الأمر ، وما من قوة وقتئذ كانت تستطيع الوقوف فى وجهى !... لقد كنت متأهبة للإقدام على كل شىء من أجله ؛ فلتكن

الفضيحة !... ولتقع المأساة ... كل شيء أقبله إلا الرجوع على أعقابي ، والعدول عن غرامي ... تلك هي التضحية الكبرى التي لن أقبلها من أجل شيء في الوجود ... ومع ذلك شعرت بضربات قلبي تشتد وأنا في موقفي هذا !...

وكان يجب أن أخرج منه سريعا ، فقلت على عجل للقائم بالباب ، في لهجة جمعت بين عنف الأمر ، ولطف الرجاء :

— « قل له واحدة ست طالبة تقابله !... » .

ولم يجد ذلك الرجل مناصا من تنفيذ رغبتي ، فذهب واختفى قليلا ثم عاد وفي أذياله الممثل « .... » يكاد يعدوي نحوي ... إلى أن اقترب مني ، فأمسك في الحال بيدي وجذبني برفق إلى « بنوار خال داخل السينما » !... وهو يقول لي بصوته المتدفق بحرارة الفرح :

— آه يا سيدتي ... يا له من فرح ؟... أنت أنت ... هأنتذي أخيرا ... إني لسعيد !... وأجلسني في صدر « البنوار » ... وتناول يدي ، وطبع عليها قبلة ، وكان الظلام لحسن الحظ مخيما ، والجمهور مشغولا بعرض الفيلم ... فدار بيننا هذا الحديث في همس كأنه همس الحلم :

— ألا تدهش قليلا لمجيئي ؟...

— إني كنت أنتظرك ، وكان يجب أن تأتي !...

— ولكنك لن تتصور معنى مجيئي هذا ، ولا ما ينتج عنه ؟...

— أظن أني أستطيع أن أتصور هذا ، وأن أدرك موقفك !... ولكن

ثقى يا سيدتى العزيزة أنه كان مقدرا لنا أن نتلاقى ، وأن يعرف أحدنا الآخر ... وأنه مهما نفعل فلن نتجنب هذا القدر ... لقد أدركت ذلك ؛ كما قلت لك منذ الساعة التى رأيتك فيها أول مرة فى « ميناهاوس » ولقد أنتظرتك ، وكنت واثقا من أنك آتية ... أنتظرتك على الرغم من أنى لم أتلق منك جوابا صريحا بالمجىء ... ولكن كنت أشعر بمصيرنا ... هل تشكين أنت فى أنه كان ينبغى لنا أن يحب أحدنا الآخر ؟...

وهنا كاد يثب قلبى من بين جنبى !... لقد تحدث عن الحب ... وامتلأت بفرح بلغ مداه حتى كاد ينقلب حزنا خفيا ... وعندئذ حانت منى التفاتة إلى الشاشة ... وما كنت منذ دخولى قد أعرتها التفاتا ، فلقد شاهدت الفيلم بالأمس ... وما كان يشغلنى اليوم أقوى وأروع من أن أعنى بسواه ... ولكنى رأيت فجأة مشهدا مثيرا لحبيبى « .... » الجالس إلى جوارى فى الظلام ، يسكب فى قلبى الغرام !... رأيته وهو يعانق الممثلة الأولى فى الفيلم !... وقد كانت تتحرك بطيفها على الشاشة بجسمها الممشوق ووجهها الحلو الوضاء فى ثوب بديع يكشف عن ذراعيها المطوقتين عنق « .... » صاحبى ... لست أنكر أن الغيرة بدأت تعض قلبى !... ولقد جعلت أتأمل هذه الممثلة الجميلة ، أصغى إلى حديثها لبطلها الممثل « .... » وحديثه هو لها ... وألفاظ الحب التى يناغى بها أحدهما الآخر ... وتساءلت فى أعماق نفسى : لِم لا يكون حديثه لها حقيقيا ؟!... إنهما كانا معا بالطبع أثناء صنع الفيلم ، وليس بمستعص على

مثل هذه الممثلة أن تفوز به ، وهن الخبيرات المدربات الإخصائيات بسلب أفئدة الرجال ... فهل تستطيع مثلى أن تنافس مثلها فى هذا الميدان ؟... وشعرت عندئذ بطنين فى أذنى وجفاف فى حلقي ... وخيل إلىّ أنى أصحو وأهبط من حلم ، لأرتطم فجأة بالحقيقة الخداعة ... ها هو ذا الحب يمثل أمامى على الستار الأبيض ... فمن أدرانى أنه لا يمثل أيضا إلى جانبى فى هذا الظلام ؟... إن الممثل هو عين الممثل فى الحالين ... فأين الحقيقة ، وأين الرواية ؟... أو تراه يميز هو بين الاثنين ؟... أيعرف من كان مثله الفاصل بينهما ؟... الحب ؟... هل يستطيع « .... » أن يحبنى ؟... إن عقلى وإدراكى لقاصران عن تلمس الحقيقة فى هذا الظلام !... كل ما أعرف الآن هو أنى أنا أحبه ... ولكن أى مدى بينى وبينه ؟... وأى فارق بين حياته الصاخبة البراقة ، وبين حياتى الهادئة الحبيسة ؟... بل أى مكان فسيح — إذا جد الأمر — لآلام كبرى لا بد أن أعد لها نفسى ... إنى منذ الآن أرتعد لمجرد التفكير فى كل هذا ... أينبغى لى أن أحب رجلا مثل هذا ، مهيأ لإلقاء الفتنة وبذر الاضطراب فى قلوب النساء !... المتعلمة منهن والجاهلة ، والخبيرة والبريئة ؟!... وهل فى الإمكان الاحتفاظ بمثله وتقييده ؟... آه ... التقييد والقيود ؟!... هأنذى أتحدث الآن عن القيود ، وأنا التى أنفقت وقتها فى لعن قيودها الموضوعة حول عنقها !...

مهما يكن من أمر فما أحلى القيود مع « .... » وما أسعدنى برباط يشدنى إليه أبد الدهر !... ومررت بيدى على جبينى أفكر فى كل هذه

المغامرة ، وخيل إلىّ لحظة أن من الحكمة أن أهرب بنفسى الآن ، وأن الأجدر بى أن أعود من فورى إلى سجنى وحظيرتى ...

أأفعل هذا الساعة ، وأخبره أنى أشعر بدوار وأنصرف ؟... أم أنه ينبغى لى أن أمضى فى هذا الطريق ... هذا الطريق الخطر الذى تكفى فيه زلة قدم صغيرة ؛ لأسقط فى الهاوية ؟!... إنى على الرغم منى أحس أنى فقدت كل إرادة ... إنى نائمة أو منومة ... إن شيطان الغواية كان قد لبس نفسى وجسمى !... أوَلست امرأة مثل الأخريات ؟... ضعيفة !... طيعة !... قابلة للتأثير !... خاضعة للمؤثرات ؟!...

لقد قلت فى نفسى :

ماذا يحدث لو عدلت الآن ، ورجعت من منتصف الطريق ؟...

لا شيء سوى عودتى إلى حجرتى الباردة ، أعض بنانى ندما على إحجامى وفرارى من وجه ذلك المصير المجهول ، والخطر المقنع الذى قد يخفى ابتسامة حلوة مع تقطيبه المخيف ؟... ما فائدة المقاومة الآن ؟... لقد أردت هذا الذى حدث ويحدث ، وتمنيته ، ورغبت فيه بكل قواى وكل جوارحى !... إنى الآن على أعتاب اللذة أو الألم ... أوَلم أقل من قبل إنى أفضل العذاب على هذا العدم الذى يكتنف حياتى ؟...

ومع ذلك ، لماذا أفترض حدوث الألم ؟!... لماذا أقدر مسبقا خيبة الأمل ؟... ها هو ذا « .... » إلى جانبى ينتظرنى !... تلك هى الحقيقة التى لا مراء فيها ... تلك هى الحقيقة التى تستحق أن أحياها . وبددت هذه الفكرة كل ترددى ... فأشرق قلبى من جديد بضياء الرجاء ...

وكان الفيلم قد قارب النهاية دون أن أنتبه أو أصحو من خواطرى !... فما شعرت إلا ويد « .... » تمس يدى بلطف ، وصوته يهمس فى أذنى قائلا :

« يحسن بنا أن ننصرف الآن ، إذا شئت ، قبل أن تضاء الأنوار !...

ولقد ارتحت لاقتراحه ، وأعجبت بلباقته وفطنته !... فمما لا شك فيه أنى أخشى أن يرانى أحد يعرفنى ، إذا أضيء المكان ، فنهضت فى الحال ... وتناول هو يدى ، فقادنى إلى باب السينما ، وقال :

— « إنى تحت تصرفك ... أين تحبين أن نقضى السهرة ؟... » .

فترددت وتمنعت برفق قائلة :

— ولكنى فى الحقيقة !...

فأسرع يقول :

— « هدية القدر لى ... فلن أفرط فيك بهذه السهولة !... لا ... لن أقبل عذرا !... ولن أصغى إلى اعتذار !... إنك ...

ونظر فى معصمه إلى ساعته الأنيقة وقال :

— الساعة الآن نصف الليل إلا عشر دقائق ، لا بد أنك تودين أن تأكلى شيئا ... فى منزلى طعام خفيف ، أرجو أن يعجبك !...

وقبل أن يسمع منى جوابا أشار إلى أحد الواقفين بالباب ليحضر سيارة « تاكسى » !... وكان « التاكسى » بالمصادفة على مقربة من الباب ، فما لبثت أن تقدمت فأعانني « ... » على الصعود إليها ، واتخاذ مكانى بها ، ثم صعد وجلس إلى جانبى ، وأمر السائق بالذهاب إلى « الزمالك » ...

فسارت السيارة فى ذلك الليل الهادئ وهمس « .... » فى أذنى :

ــ « لا أريد أن أتسرع فأسألك عن اسمك ... ولكنك لا شك تسمحين لى فى أن أناديك بصديقتى !... » .

فقلت له :

ــ « بالطبع أنت صديقى !... » .

وهنا قال فى عذوبة :

ــ ما دمت صديقك فلا أظنك تأبين علىّ أن أقبلك !...

وطوقنى برقة وحرص ؛ كأنه يطوق شيئا مقدسا . ووضع شفتيه على شفتى وضعا لطيفا خفيفا ، قبلة شبه طاهرة ؛ كأنها قبلة الخطوبة !...

ووقفت السيارة أخيرا أمام عمارة فخمة فى حي « الزمالك » ، فنزل « .... » وأعاننى على النزول ، ووضع فى كف سائق « التاكسى » ورقة نقدية ، ثم تأبط ذراعى وصعد بى إلى مسكنه ، وهو « شقة » ظريفة أنيقة فلمحت فى ركن الصالون مائدة منصوبة عليها أطباق من اللحم البارد والحلوى وزجاجة من الويسكى ، وساعدنى فى خلع معطفى ... بينما شفتاه تلمسان يدى ، وذراعى ونحرى ، لمس النسيم !...

لقد تجنب فى كياسة تشبه الحياء أن يتعجل أى التصاق بين جسمينا !... لكأنى به ذلك الذواقة ، الذى يريد أن يستمرئ الكأس على مهل ، وقال لى بابتسامة وديعة :

ــ « أرجوك أن تعتبرى البيت بيتك » ...

وجعل ذراعه حول خصرى ، واتخذ رأسى من كتفه شبه وسادة ...

فقادنى إلى حجرة نومه وتلقى جسمينا « ديوان » وثير !...

وقال لى فى همسة عذبة :

— « يا حبوبتى !... » .

وطوقنى والتصقت شفاهنا ، وتنفسنا والعين فى العين ، فخيل إلىّ أنى أشرب أنفاسه شربا ، وأنها تهبط إلى سويداء قلبى ، فأدركت عندئذ أن جسدى كان جوعان حبا !... وأن هذا الرجل يستطيع أن يصنع بى ما يشاء ... وهنا شعرت بأصابعه اللبقة تفك أزرار ثوبى ، وتجردنى منه بغير لهفة ولا عجلة ... ثم جعل يعجب بى وأنا هكذا ... ثم أخذ يداعبنى بيده وفمه ... إنها عين القبلة التى عرفتها فيما مضى ... ولكنها من قبل كانت تطبع على جسد هامد ... يتمنى فى قرارته الخلاص ، ويود لو يدفع عنه تلك المداعبات الثقيلة التى يتكلف احتمالها تكلفا ...

أما هذا الحبيب « .... » فلا شىء منه أكرهه قط ، لقد خيل إلىّ أنى أريد بدورى لو أغطى جسده بقبلاتى ... وأخيرا حملنى ، وأنا فى شبه غيبوبة إلى سريره المعطر ، وتركنى واختفى لحظة ، ثم عاد متدثرا فى « روب دى شامبر » خفيف من الحرير « الستان » ، لم يخلعه عنه وهو يطرح جسمه إلى جانبى ، وبدأ المداعبة والملاعبة من جديد !...

وجعل يهدهدنى بكلمات الحب :

— « يا حبيبتى ... يا معبودتى ... يا حياتى ... إلخ ... » !... إلى أن صرنا جسما واحدا ... لا تفصل بيننا شعرة ...

آه !... اليوم فقط أدركت لماذا تحطم النساء كل قيد يحول بينهن وبين

الرجل الذى يكشف لأعينهن العمياء عن ملذات الحب !... أين كنت غافلة عن اللذة الكبرى : لذة منح النفس للحبيب والفناء فيه ، والإحساس بأنى شيء ضعيف هش بين يديه ، وانتظار أحلى المشاعر التى يهيجها فى !... ما أسعدنا نحن النساء بأن نذعن لمثل هذا الرجل ، وأن نطوى إرادتنا تحت جناحيه !...

إنى لأحس أنى الآن امرأة جديدة إلى حد الاعتقاد بأنى لم أكن أكثر من بكر بريئة ، قبل أن يدخل الممثل « .... » فى حياتى ، وإنه لحق ما أعترف به هنا ... فهنالك رجال نجد فى الاتصال بهم ألما وعنفا يملؤنا سخطا ... وإنهم ليمعنون فى أنانيتهم ، دون أن يلقوا بالا إلى الاشمئزاز الذى يثيره فينا أحيانا منظرهم هذا الدال على الاستهانة الصريحة ، ودون أن يعنوا فى موقفهم هذا بإخفاء معنى الآلية و« الروتين » ... أو سترها ولو بقليل من المداعبة اللطيفة ، والمغازلة الرقيقة !... هذا الشعور بالازدراء والاشمئزاز الذى قد يعترى المرأة ، عند لقائها برجل للمرة الأولى ، قلما يتغير ... إلا إذا استطاع أن يغلف كل شيء فى دمقس من لباقة الحس والإحساس لا يجرح ولا يخدش !... إنى مع « .... » لم أر شيئا صدمنى على الإطلاق ؛ فإن كياسته قد غمرتنى فى جو مشبع باللذة الحالمة ، وحمتنى من مجرد التنبه إلى ملاحظة ما يصنع أو أصنع ... لقد تم كل شيء فى نشوة من الملاطفات والقبلات !... وبعد ؟... وبعد فما أثر ذلك عنده بعد أن وقع هذا الأمر ؟... لقد بدا عليه شيء من الاعتراف بالجميل !... ولقد كانت ذراعه تسندنى إلى صدره فى حركة المالك القابض على ملكه ... أما أنا

فكنت آوى إلى جسمه وأدعه ، وكان مجرد التفكير فى الانفصال عنه يملؤنى حزنا لقد تمنيت لو أبقى بين ذراعيه طول الخلود !...

ولبثنا هكذا حتى مطلع الفجر ... وما كانت تلك الليلة إلا عناقا طويلا ... وعرفت عندئذ أنى امرأة مثل الأخريات أستطيع الاستمتاع !... لقد كشف لى هذا الرجل عن المجهول فى ... وعرفنى إلى نفسى ، ولقد سكرت من تلك النشوة الحلوة ومن همسات أغنية الغرام التى كان ينشدها لى طول الليل ، فاسترخت أعضائى ولانت ، ودب النعاس بين أهدابى بطيئا بطيئا ... ورحت فى نوم بين ذراعيه لذيذ ... كم من الوقت نمت ؟... لست أدرى !... ربما نمت ساعة أو أكثر أو أقل ... كل ما أعلم هو أنى استيقظت فألفيت « .... » مستندا إلى مرفقه ... ورأسه مائل على رأسى ، وهو يرنو إلىّ ... فابتسمت !...

فقال عندئذ بصوت يقطر رقة :

— « كنت أتأملك أثناء نعاسك ... لقد خيل إلىّ أنى ثملت بعطرك الساحر ... إنك تحسنين اختيار عطورك فيما أرى ... لقد كنت أمسك أحيانا بأنفاسى خشية إيقاظك ... لقد كنت تبتسمين فى نومك ؛ كأنك فى حلم ، وغدا وجهك عذريا كأنه وجه طفلة !... » وهنا طلبت إلى « .... » مرآة لأستوثق من نفسى بنفسى ، وأصلح من شأنى ... وكانت نظراته تلتهمنى . ولكنى لم أشعر بحياء يدفعنى إلى ستر جسمى العارى . بل كنت سعيدة ... فإن المرآة قد ملأتنى ثقة واطمئنانا على محاسنى !...

على أن الطلاء القرمزى ، الذى كان يصبغ البارحة شفتى ، تحول إلى

لون وردى ، والسواد المحيط بأجفانى تبدد وبدا كأنه هالة رسمتها أنامل التعب المسترخية حول أهدابى !... وشعرى المرتب تبعثر وتناثرت خصلاته على وجهى المحموم ... لقد اتخذت هيئتى وضعا غريبا ؛ لكأنى أنظر فى المرآة إلى « اللذة » مصورة فى إطار !... ولقد أخذت « .... » شبه رعدة ، وهو يتأملنى هكذا ، فخطفنى بين ذراعيه من جديد ، اختطاف النسر للحمامة ، وضمنى ضمة شديدة بجنونة ، فأحسست فى تلك اللحظة بشعور من الزهو والتيه ، يغمرنى غمرا لا عهد لى به من قبل !... وجعل كل منا يرمق الآخر بنظرات كلها اضطراب وفزع ؛ كأنه لا لقاء بيننا بعد الآن !... وأخذت أشعة الشمس الأولى تتسلل من خلال أستار النافذة ، وتلقى دنانيرها الذهبية على سجادة الحجرة !... ثم انعكست على مقابض أدوات الزينة الفضية ، فوق منضدة « التواليت » ، ثم أضاء نورها وجه الساعة الموضوعة هناك ، فإذا نحن فى السادسة ... وكان لا بد إذن من الانصراف !... فنهضت فى الحال ، ونهض « .... » تاركا لى الحجرة لألبس فيها ثيابى ، وذهب هو ليرتدى ثيابه فى الحجرة المجاورة ، ثم نزلنا على عجل إلى الطريق وصعدنا إلى سيارة « التاكسى » ، ونحن نستقبل بوجوهنا الملتهبة نسيم الصباح ، وقد كان مطلع النهار جميلا ، وصفت السماء صفاء أحسته نفوسنا ؛ كما أحسته عصافير الأشجار التى حولنا فزقزقت ، وعبرت بلغتها عما لا نستطيع نحن التعبير عنه ، وأوصلنى « .... » إلى منزلى وافترقنا على أن نعود إلى اللقاء فى المساء ... ودخلت بيتى ... ويا لها من وحشة !... لقد خالجنى

فجأة شعور بأنى أدخل سجنا ؛ لأعيش وحدى وقد بترت عنى سعادتى بترا ... إن من المستحيل علىّ بعد سحر تلك الليلة أن أتصور استئناف حياتى المخيفة ، التى جاء الكذب أيضا ــ الكذب الجسيم ــ ليزيدها كربا :

آه !... يا لها من ليلة !... لن أنسى هذه الليلة ما حييت !... لقد أضحكني منظر صديقتي « مرفت » وهى فاغرة فمها دهشة ، عندما رويت لها خبر هذه المغامرة ... لقد قالت لى :

ــ « وكيف تسلمين نفسك من أول ليلة ؟... » .

ولكن لم تلبث أن سلمت معى مقتنعة ، وأنا أجيبها باسمة :

ــ لأنى لست امرأة من الطراز القديم ... تلك التى كانت تحاول دائما أن توهم الرجل أنها قاومت طويلا حتى غلبت على إرادتها ... لماذا هذا ؟... أوَ كتب على المرأة أن تلعب دائما دور مسلوبة الإرادة ؟!... لا يا عزيزتى « مرفت » !... هذا ليس خليقا بامرأة تعيش فى عصرنا !... إن المرأة يجب أن تفهم الرجل أنها مساوية له ، وأن الأمر بإرادتها هى أيضا ، وأنها تعطى عندما تريد هى أن تعطى ... فى الليلة الأولى أو الليلة الأخيرة سيان عندها ذلك ، ما دامت هى تريد وتحس أنها تريد !...

وتعاقبت بعد ذلك أيام لذيذة ، على غرار تلك الليلة المشهودة ... نعم قد أتهم بالجنون ... ولكن آه ... ما أحلى الجنون إذا كنا نجد فيه ذراعين مفتوحين دائما لضمنا إلى صدر كالعش الأمين ... يخفق فيه قلب يحبنا وإعزازنا !...

لقد كانت لنا فى كل يوم أحلام وآمال ... ففى هذا المساء قال لى وأنا فى حضنه :

— ماذا تقولين لو سافرنا معا ، وهربنا بعيدا بحبنا ؟...

فقلت له :

— « وبيتى وأهلى ؟... » .

فقال :

— « اتركى كل شىء وتعالى نظلل سعادتنا تحت أشجار البرتقال فى فلسطين !... » .

واأسفاه !... مشروعات كهذه لم تكن سوى أوهام ... لو أن الأمر يتعلق بقلبى وحده لما ترددت فى اللحاق به إلى آخر الدنيا ... ولكنى بعد أيام فكرت فى الأمر مليا وحكمت عقلى طويلا فيما أنا مقدمة عليه ... إن زوجى على الرغم من فتوره الحالى نحوى ، وقربه الذى لم يعد يثير فىّ أى عاطفة قوية ، ما أساءنى قط يوما ، بل إنه ليعزنى ويودنى ... وفجأة بدا لى شبح عملى المخيف البشع ، وما سوف يحدثه له من آلام لو أنى أطعت هواى ، وهربت من بيتى ، أو قطعت صلاتى الزوجية بمثل هذه الفضيحة !... وتيقظت فى نفسى تلك اللحظة بقية ضمير وإخلاص ، فلم أقبل بحال أن أجعل زوجى وطفلتى ضحايا ضعف وأخطاء وعواطف هى عندى أقوى من إرادتى !... إن الخوف من الإساءة إليها كتفنى وشل عزيمتى !...

ثم هنالك شىء آخر : لقد فكرت فى مصير تلك المرأة التى تذهب إلى

رجل لتضع حياتها بين يديه ، دون أن يكون فى جيبها قرش ؟... حقا ، كيف أستطيع وأنا المجردة عن كل ثروة خاصة إذا انفصلت عن أسرتى ، وترفعت عن مد يد السؤال إلى أموال والدتى ؛ — أن ألقى بعبئى على كاهل « .... » ، وأفرض عليه أمر معاشى وكسوتى وزينتى وترفى !... إن كرامتى لتأبى ذلك ، وإذا أرغمنى حبى وضعفى على التفريط فى هذه الكرامة ، فهل يطيق هو أن يتحمل هذا العبء طويلا ؟... لا ... لا ينبغى أن يضلنى الحب إلى هذا الحد ، وليس من الضرورى أن ينتهى الحد دائما بالهرب مع الحبيب ، وهو لا شك لم يخطر بباله قط هدم عش الزوجية ، والانطلاق معه بعد قطع الرباط الرسمى المقدس ، لأنه يدرك عواقب ذلك !...

إن مثل هذه الفكرة وحدها كفيلة بإطفاء جذوة غرامه ... إنما الذى أراده ولا ريب بتلك العبارة ، التى لفظها ونحن فى نشوة الغرام : أن أدبر وسيلة ، أو أخترع حجة للسفر معه بضعة أسابيع إلى فلسطين أو غيرها ، دون أن يفطن زوجى أو تتنبه أسرتى للباعث على هذه الغيبة ، ولكن هذا مستحيل ، ومهما أوتيت من سعة الحيلة فلن أجد الوسيلة ، حسبنا إذن — هذا القدر من اللقاء ، ولا يجب أن نطمع فى أكثر منه ، وإلا تعرضنا لكارثة لا يحب كلانا أن تقع !...

١٢

معبود من الطين

الصدمة التي أصابت « راهب الفكر » بعد أن قرأ صفحات تلك الزوجة ، بلغت حدا يصعب تصويره ، وإن كان لا يصعب تصوره ، فلم تكن قداسة حبه وحدها هي التي انهارت وتلطخت ، ولكن كل شيء … كل شيء عزيز عليه سقط فجأة من عليائه فى التراب وتلوث …

يا له من عجب !… كيف استطاعت هذه المرأة أن تكون كذلك !… وكيف استطاع هو أن يصنع لها ذلك التمثال الشاهق بنبله وطهارته !… لقد جل الخطب عن الحزن بل عن الجد … وانقلب كل شيء فى عينه هزءا وسخرية !… لقد تبين له أمره …

يا له من أحمق !… لقد كان شأنه شأن طائفة الوثنيين الذين صنعوا من الطين والوحل آلهة يعبدونها . وذكر رسائله إليها !… وما كان ينعتها به ويتخيلها عليه !… لم يبق ريب فى أن كل سطر من سطوره ليس إلا ضحكة ممتدة تشهد بحمقه وغفلته …

وا أسفاه !… ذهبت إذن هباء كل تلك العاطفة المسكوبة على الورق من أجلها !… وانقلبت تلك العبادة الرفيعة — التى عفر بها جبينه فى

محرابها — شيئا مخجلا مهزءا كألعاب المهرجين ما دام مثل هذه المرأة هى التى كانت فى المحراب !!...

لبث الكاتب تلك الليلة المشئومة ساهرا حتى طلع عليه الصبح ، وهو فى جلسته لم يغيرها ، ولم يشعر بنفسه ، ولا بشىء حوله ... ولم يعرف أين يستقر بقلبه الدامى ورأسه المكدود ؛ فهو تارة يتوجع على الرغم منه ؛ توجع من خلع له ضرس ، وإن كان فاسدا ، وتارة يضحك ذلك الضحك الذى وصفوه بأنه أحيانا كالبكاء ، وهذا ليس من خيال الشعراء ؛ فلقد حدث ذلك « لراهب الفكر » تلك الليلة !... لقد خادع نفسه كثيرا ، وقال لها :

— « مالى ولهذه المرأة ... وماذا يهمنى من سلوكها ومن عشقها وسقوطها ... أأنا زوجها ؟... » .

هذا منطق العقل ولكن صوت النفس كان يرتفع فى صمته الجلى راعدا بين أركان قلبه : إنها كانت له أكثر من زوجة !... لقد عشت معها ولها بكل فكرك وعواطفك ... وخيالك ، ومطالعاتك ، ومؤلفاتك ، ومشاهداتك !... إنها كانت شيئا يسندك ، ويعينك ، ويشجعك ، ويقويك !... إنها كانت لك نوعا من الدين !... » .

حقا إنها كانت له كل ذلك ، ولو لم تكن كذلك لما أحس الليلة هذا الفراغ المخيف ، نعم إنه قد فقد شيئا كبيرا ، يشعر لفقده بفجيعة ...

ولم يستطع حكم أعصابه ، فتساقطت العبرات من عينيه ، وخجل من نفسه ، وهو يلمح فى مرآة الحجرة قطرات الدمع على خديه ... وهو

الذى ما بكى قط فى شبابه الأول !...

تذكر حقيقة تلك المرأة وما قرأ الساعة من خبر فجورها ، فضحك من أمره ، أو أراد أن يتضاحك ... ولكن هيهات أن يقنع نفسه ... فقد اختلطت عبراته وضحكاته ، وامتزجت فى شهقة واحدة ... فلم يعد من السهل فرز الضحك من البكاء !...

كل هذا حدث له ، وكل الأفكار مرت به ، ما عدا أمرا واحدا نسيه كل النسيان ، ولم يتجه إليه تفكيره ولا خاطره ؛ ذلك هو الزوج ذاته الذى أعطاه الكراسة ؛ فقد ألهته مصيبته هو عن مصيبة الزوج ، فلم يرها ولم يشعر بها ، حتى حان موعد خروجه فى الصباح ، فتذكر أنه وعد الزوج برد هذه الصفحات إليه !...

وهنا طفق يفكر فى أمر هذا الرجل ، ويسأل نفسه لماذا وضع هذه الكراسة بين يديه ؟... ولماذا يريد أن يناقشه فيها ؟... وما وجه الكلام فى مسألة كهذه ؟... وماذا عليه هو أن يجيب ؟... وما هذا الهدوء الذى يبدو على ذلك الزوج التعس ؟!... مهما يكن من أمر فلا مفر من لقائه ، بل إن فى مقابلته لراحة له ، وفى الحديث إليه عزاء !... فكلاهما قد نكب ، وكلاهما قد أصيب ، وقد أحس « راهب الفكر » عطفا شديدا على ذلك الزوج ، ورحمة به ، وحدبا عليه وشعر كأن عاطفة واحدة تربط أحدهما إلى الآخر ؛ لكأنهما متضامنان فى النازلة !... ولكأن غريما واحدا هو الذى نال منهما وثل هناءهما !...

وأسرع فارتدى ثيابه ، ولم يجد رغبة فى تناول فطوره ، فاكتفى بجرعة

من الشاى ، وخرج من حجرته حاملا الكراسة التى أيقظته فجأة وبقسوة من أجمل أحلامه !...

ونزل إلى بهو الفندق وهو يخفى كل أثر للانفعال ، يمكن أن يبدو على وجهه ، فوجد الزوج فى انتظاره ، وفى يده كتابه ، فحياه وجلس إلى جانبه صامتا ، ثم قدم إليه تلك الصفحات المخجلة ، وهو لا يدرى ماذا يقول ... ولكن الزوج قال بصوت خافت مرير ، وهو يتناولها من يده :

— قرأتها ؟...

— نعم !...

لفظها « راهب الفكر » وهو مطرق ، لا يجرو على النظر إليه ... وسكت الزوج قليلا ، ثم قال بأدب :

— إنى آسف إذ أرغمتك على قراءة مثل هذه الصفحات ... ولكنى أعتقد أنك تدرك الآن موقفى ، وتغفر لى إثقالى عليك ، فإن زوج هذه السيدة التى قرأت عنها ما قرأت ، لا بد أن يكون فى حاجة إلى معونة رجل فى مثل عقلك وخلقك ...

فغمغم الكاتب قائلا :

— ثق أنى طوع أمرك ، ورهن إشارتك ، أرجو أن أكون نافعا لك ، فى كل ما توجهنى إليه من شئونك !...

فقال الرجل ، وقد استراح قليلا فى جلسته :

— يحسن بى أن أقص عليك كل شىء من البداية ؛ كى تحيط بظروف هذا الموضوع من نواحيه كلها ، فأنت قد تجهل اسمى الكامل حتى

الساعة !... إنى « .... » من أسرة معروفة كما ترى ، وكذلك زوجتى ، وإن كانت أسرتى الآن متوسطة المال والجاه ، ولقد نشأت منذ الصغر فى مدرسة إنجليزية حتى بلغت رشدى ، فالتحقت بمدارس الحكومة المصرية ، ونلت شهادة « البكالوريا » ثم أرسلتنى أسرتى إلى إنجلترا ، لأتم دراستى فيها ، فمكثت هناك ست سنوات ، عدت بعدها إلى مصر ، وانخرطت فى سلك الوظائف ، وبالطبع فكر أهلى وقتئذ فى البحث لى عن زوجة ، ولكنى كنت ممن يعتقدون أن الزواج نعمة لا نستحقها إلا بعد أن نبلغ فى الحياة شوطا مستقرا ؛ فهو تتويج لجهود الشباب ، وينبغى أن يبدأ فى وقت ينتهى الجهاد الأول فى سبيل المركز الاجتماعى ، ويطمئن فيه الإنسان إلى عمله ومستقبله ، فيهون بذلك على شريكته متاعب المرحلة الأولى ، ويشيد أسرته الجديدة على أسس من الأمان لا من القلق ، ويفتح نوافذ بيته على أفق باسم ، لا على قفر مكفهر !... لذلك لم أتزوج إلا وأنا فى نحو الخامسة والثلاثين ... وقد اختارت لى أسرتى هذه الزوجة من أسرة عريقة ، تربطنا بها أواصر المعرفة من قديم ... وقد رأى أحدنا الآخر فى فترة الخطوبة ، ثم تم الزواج ، ولم أشعر قط أن قلبينا ينطويان على شىء ، غير المحبة والمودة المتبادلتين ، ولم أر منها قط شيئا ساءنى إلا قلة اكتراثها بالكتب والمطالعة ... وهذا شىء مقدس عندى ؛ فإن الكتاب لدىّ ضرورة من ضرورات الحياة !... ولعلى اكتسبت عادة القراءة من طول إقامتى فى « إنجلترا » ؛ فقد كنت أسكن ضواحى « لندن » وكان علىّ أن أركب القطار فى اليوم مرتين ، فى ذهابى إلى الجامعة ، وعودتى منها ، فكنت

ألاحظ فى أول عهدى أنه ما من راكب واحد لا يحمل كتابا يطالعه أثناء الطريق ، ثم فى البيت الإنجليزى ... ما أمتع القراءة بجوار المدفأة !... وأحاديث الأسرة حولها فى مختلف شئون الحياة والفكر !... لطالما تمنيت أن أبادل زوجتى الآراء فيما نطالع ونشاهد ، فنملأ حياتنا الزوجية الطويلة بخير ما تملأ به حياة ، لكن واأسفاه !... كانت هذه الزوجة مثل كثيرات غيرها ذات ثقافة سطحية مصطنعة براقة المظهر ، ولكنها فى لبها وجوهرها لا تعنى بغير التافه من شئون الدنيا ، ولقد سميتها مازحا : « الفتاة الطائشة » ولقد أردت أن أصلح من أمرها ، وأصنع منها المرأة التى أريد ، وبدأت معها بما هو أيسر لها وأسهل على طبيعتها : وهى الرياضة ، فعلمتها « التنيس » فحذقته فى وقت قليل ، من الإنصاف أن أقول لك : إنها ذات ذكاء عجيب ، ولها إرادة لا تقاوم ، ولقد أرادت فعلا أن تصغى إلى رجائى وتعنى بالقراءة ، وتم لها ما أرادت ، وكان ما تعلمه أنت من إقبالها على قراءة كتبك ، مما أخبرتك به فى حينه عند زيارتى الأولى لك !

وسكت الزوج لحظة ، فقد أبصر « راهب الفكر » ، يطرق شارد اللب . والواقع أنه أطرق مفكرا فى زيارات تلك الزوجة له ، تلك الزيارات التى يجهلها الزوج حتى الآن !... أترى من الواجب عليه أن يخبره بأمرها اليوم ، أو يمضى فى الصمت ؟!... وتردد لحظة ووازن بين الأمرين ، فرجحت كفة السكوت ، فالسكوت الساعة من ذهب حقا ، ولا ينبغى أن يفتح أى باب تنفذ منه شكوك جديدة ، قد تحوم حوله وحول هذه المرأة ، ورفع رأسه استعدادا للإصغاء ، فمضى الزوج فى

كلامه :

ـــ قرأت كتبك إذن يا سيدى الأستاذ كما قرأت غيرها ... ولا شك أنك تأسف مثلى للنتيجة ... لم يدر فى خلدك ولا خلدى أن كل ما استطاعت هذه السيدة أن تكسبه من ذلك هو أسلوب تكتب به مثل هذه الاعترافات !... ولكن ما ذنبك أو ذنب المطالعة فى ذاتها ؟!... كل شىء نبيل يمكن أن يكون أداة سمو وأداة عبث ، وإن العبرة أحيانا باليد التى تتناول الأشياء لا الأشياء فى ذاتها ؛ فاليد القذرة قد تلطخ كل نظيف ، واليد المطهرة قد تنظف كل قذر ... على أنى أستطيع أن أؤكد لك أنى ما علمت قط يوما عن امرأتى سوءا وإنه ليدهشنى قولها فى كراستها ؛ إن أسرتها كانت تلقى عليها دروسا فى الأخلاق تثقل عليها ، وتقيدها بالسلاسل : كأنها كلب ليس له حق النباح !... كل ما أعلمه أن أسرتها ، فيها من يتمسك بالقديم ، وفيها من نشأ على الحديث ... وإن للفتيات الحديثات اتجاها حرا يعد فضيحة فى نظر الأمهات والعمات ، وكثيرات من البنات عرف عنهن الخفة فى السلوك فى المجتمعات ، والسهرات ، وعلى شواطئ البحر !... والمغالاة فى الملبس والمظهر ... والتحرر إلى حد قبول مغازلة الشبان فى الطريق أو فى « التليفون » ... ولكن الأمر فى الغالب يقف عند هذا الحد ، وإذا تزوجت بنت من هذا الطراز ، ففى الغالب يتغير سلوكها السابق ، ويتجه إلى احترام الزوجية والحرص عليها ؛ فهل كانت زوجتى من هذا الصنف من البنات ، وكان هذا ما تعلمه أسرتها عنها ، وما تراقبها من أجله ؟... أو كان فى الأمر شىء أكثر

من هذا ؟!... لست أدرى !... وكيف تريد لزوج مثلى ، تعلم كيف يحترم الزوج زوجته ، يخطر فى باله أن ينبش فى مثل هذه الأشياء ؟... كل ما فى مقدورى العلم به هو ما خبرته بنفسى ، من اتصالى بزوجتى طول هذه الأعوام الثلاثة ... إنى لم ألمح عليها قط أى نفور منى !... كيف استطاعت أن تخفى ذلك عنى ؟... ولماذا تخفيه ؟... ولماذا لم تصارحنى ؟... لقد كنا سعداء فى عامنا الأول ، وأظنها لم تنكر ذلك ... وأحسبها ذكرت أنها بدأت تمل الزوجية بعد أول عام ... ولكنها كانت قد ولدت طفلة جميلة ، وكنت أظن عاطفة الأمومة تصرف الزوجة عن ذلك التعلق الجامح بزوجها باللهو والمرح والنزهة ... لقد تحدثت عن تغيرى بعد العام الأول من عقد القران ... واتهمتنى بأنى أوصيتها بالقراءة لعلمى أن السأم ينتظرها ... أظن أن هذا هو سوء التفاهم الخالد فى كل حياة الزوجية ، منذ نشأت على الأرض أسرة وزواج ... ما من زوجة منذ القدم حتى اليوم لم تقل لزوجها هذه العبارة : « إنك قد تغيرت ... كنت تحبنى فيما مضى أكثر من الآن !... » والحقيقة أن الزوج لم يتغير ، ولكن لون الحب هو الذى تغير ، دون أن يؤثر ذلك فى بنائه ؛ كما يتغير لون العمارة الجديدة من الزمن دون أن تفقد حجرا ... ولا يزيدها لون القدم إلا إشعارا بجلال الرسوخ ، أو كما يتغير لون التقدير الذى يظفر به الأثر الفنى ، ألا تلاحظ أن كتابا من كتبك مثلا قد استقبله الناس عند ظهوره بالطبل والضجيج ؟!... ثم يخفت كل هذا مع مر الأيام ولا يبقى للكتاب إلا ذلك التقدير الهادئ العميق المستقر فى النفوس ؟ لا يتزعزع اعتباره ..

ولا يبلى ولا ينسى ... وتظل تسلمه الأعوام للأعوام ... وقد أصبح حقيقة راسخة ، لا تثار فيها المناقشة ، ولا يباح الجدل ... ويدخل فى نطاق الأعمال التي تسمونها « الكلاسيك » ... بوقارها الصامت الذى حل محل بريقها الصاخب ؟... فيم إذن كان الاحتفال بالعيد الفضى والعيد الذهبى للحياة الزوجية ؟... أهو شيء غير مظهر تقدير لذلك الحب الزوجى وقد رسخت أعمدة هيكله فى صدر الزمان ؟!... ولكن المرأة للأسف تنسى ذلك أو تتناساه ، وإذا تذكرته فإنها لا تقتنع به ، فكل هذا لا يعدل عندها اللحظات الطائرة العابرة لذلك الحب البراق الفوار !... لا يؤثر فيها كثيرا ذلك الحب القيم النفيس الباقى ؛ لأنها جبلت على الشغف بكل ما يبرق عينيها ، ويخطف بصرها ومهجتها ، ويطير بلبها !... وإنها لتدفع الذهب ، وترمى به فى سبيل اقتناء سوار من الزجاج ، أو حلية من الخزف بهرتها ألوانها !... لم يكن هنالك إذن تغير منى نحوها أو فتور !... على النقيض ، فهى فهمت بعد أن ولدت لنا طفلة أن حبنا قد سما وجل عن مظاهر العبث والملاعبة التى كان يحتاج إليها الحب الزوجى فى أول مراحله ليثبت وجوده ، ويبرهن على قوته ... فهو الآن موجود بذاته قوى بنفسه ... وتستطيع الزوجة أن تحسه فى زوجها من كلمة أو إشارة أو إيماءة !... أو من مجرد نظرة جزع يلقيها عليها إذا شحب وجهها ذات صباح أو أصيبت ببرد خفيف !... لا أظن كثيرا من الأزواج عاملوا زوجاتهم ، بمثل ما كنت أعامل زوجتى !... إنى كنت أتصرف معها كما لو كانت « ليدى » من سيدات الأرستقراطية الإنجليزية !... فما كنت

أسمح لنفسي بالتدخل فى شئونها ، ولا حتى بلمس خطاباتها التى كانت ترد باسمها ، ولم أسألها يوما أين كانت ، ولا أين تذهب ؟... ولا من هن صديقاتها ؟... على أنى كنت دائما « تحت تصرفها » ، وفى متناول يدها ؛ فلم أتركها يوما بمفردها ، لا عن قصد حراستها أو تعمد مراقبتها ... أو رغبة فى الاطمئنان على سيرها ، فتلك أفكار لم تخطر لى قط على بال ، وإنما كنت أرى من واجبى ألا أتغيب عنها !... وألا أخرج إلا معها ، وألا أدعها تعتقد لحظة أن لى حياة منفصلة عن حياتها ؛ فأنا رجل قد فهم الزواج على أنه شركة روحية !... ولقد نفذت من جانبى كل ما يجب علىّ فى هذه الشركة ، وقدمت كل نصيبى من رأس المال ... حتى أصدقائى لم أرد أن أستأثر بهم ، وأنفرد بمجلسهم ، وأمنحهم من الوقت ما قد يكون من حظ شريكتى ؛ فعملت على أن أشركها معى فى استقبالهم ، والاجتماع بهم ، ولم يكن يدور بخلدى قط أنها ستكتب يوما فتقول : إنها كانت تتبرم بهم وبى ... وأنها كانت تضيق بوجودى ، وتختنق لأنى لم أتركها يوما واحدا ... وأنها لم تتنفس إلا يوم أعلنت إليها خبر اضطرارى إلى التغيب فى أعمال حكومية بضعة أسابيع !!... هذا فى الحق قد جاوز كل تقديرى وحرف كل تدبيرى ، وكيف يقع فى وهمى أن كل ما حسبته أنا حسن معاملة ، وظننته تصرفا محمودا ، ورأيته تفانيا فى واجبى وإخلاصى ؛ — هو بالذات موضع الشكوى منى ، وموطن ذنبى وجريرتى !... إذا كان أحد يرى أنى أخطأت فثق أن هذا حدث بغير علمى ، وبدون قصد منى !... وأن حياتى معها على هذا الوضع هى إذن

سلسلة أخطاء ... وكان عليها أن تنبهني إليها !...

أما أنا فلا أعرف إلا أني صنعت كل شيء حتى لا تقع فى الملل الذى تتحدث عنه ، فما كان يسرنى إلا أن تقترح هى نوعا من النزهة أو السهرة فتجد بغيتها ، وتظفر برغبتها ... فما من حفلة من الحفلات العامة أو الخاصة أو الخيرية ، فيها شيء من الطرافة أو المتعة والتسلية لم نشاهدها؛ — لطالما ذهبت بها إلى أفخم الملاهى ودور السينما وسباق الخيل !... ولقد ذهبت بها فى شتاء عامنا الأول إلى « الأقصر » و« أسوان » !... أما فى الصيف فكان الرأى لها أن تختار : بين « أوربا » أو « الإسكندرية » أو « العزبة » فى الريف ... وقد مضينا كل صيف فى جهة من هذه الجهات ، ولست أدرى ماذا كان يجدر بى أن أصنع ؛ لمداواة ضجرها ولم أفعل ؟... إلا أن يكون للملل أو السأم معنى آخر غير الذى ينصرف إليه ذهن مثلى ، ولقد ذكرت هى هذا المعنى صراحة فى كراستها ، وعبرت عنه بما سمته « الرغبة فى المغامرة » !... أظنك توافقنى على أن هذه « الرغبة » لا يمكن أن تخطر فى بال زوج ، فالمغامرة والزوجية ضدان لا يتفقان ، إلا إذا كنت ترانى زوجا رجعيا مخرفا ، وكانت الزوجية فى زماننا هذا وفى بلدنا هذا قد بلغت من التقدم والتطور « المودرن » شوطا أعجزنى إدراكه وفاتنى اللحاق به ، على الرغم من اتصالى الدائم بأحدث أوضاع المجتمع الأوربى !... إذا كانت زوجاتنا ترى « المغامرة » حاجة لا بد منها ، وضرورة لا يستغنى عنها !... وإلا كانت الحياة الزوجية سأما لا يطاق ... والعواطف الزوجية نوعا من « الروتين » الفاتر ...

لا أملك الحكم فى ذلك بمفردى ، أترك لمثلك فيه وللمجتمع ، إنما الذى أرى من حقى الكلام فيه ، هو أنى فهمت الزوجية كما يفهمها أكثر الناس ، أو كما كنت أتوهم أنا أن أكثر الناس يفهمونها ... وثق ، وأقسم لك بشرفى .... « معذرة ... إنى لم أعد أدرى أمن حقى أن أقسم لك بشرفى المسلوب !... » ، ولكننى أرى فى عينك أنك تصدقنى !... ثق أنى كنت لهذه السيدة زوجا لا غبار عليه !...

وأطرق الرجل لحظة ... وكأن عينيه تخترقان الماضى ... وتنبشان أحداث ذكريات عزاز !... وتأثر « راهب الفكر » لمنظره ، ولم يجد كلمات تصلح لإظهار ما يكنه له وقتئذ ... وخاف أن ينبس بلفظ جارح لشعوره ، فآثر الصمت والإصغاء ...

ورفع الزوج رأسه بعد قليل مستأنفا حديثه :

— وهكذا سارت حياتنا الزوجية على الصورة التى وصفتها ... وأنا أجهل كل الجهل — كما قلت لك — نزعات زوجتى الداخلية وخلجاتها الخفية !... ولا أعلم إلا أنى أعيش حياة زوجية سعيدة فى ظل زوجة راضية قريرة العين ، وابنة نحلم بتربيتها أحسن التربية ... إلى أن كان ذلك اليوم منذ أسبوعين ... فقد لزمت المنزل ذلك العصر ، لأكتب تقريرا مهما فى بعض شئونى المصلحية ، ودسست وجهى فى أوراق الملفات ، وأنا أرد تحية زوجتى الموشكة على الخروج ، ذاكرة لى على عجل — فيما أظن ... أنها ذاهبة لزيارة صديقة من صديقاتها ، ولم أحفل أنا بالطبع بهذا الأمر ؛ فهو شىء معتاد ... ولم أحاول حتى مجرد رفع رأسى للنظر إلى

هندامها ؛ فقد كنت مشغولا بعملى !... ولكننى أذكر أن عطرها المثير الجميل كان يملأ خياشيمى ... ولكن هذا أيضا ليس عندى بمستغرب !... إن أناقة زوجتى وترفها لمن الأشياء التى كانت تسرنى !... وخرجت مسرعة ، ومكثت أنا غارقا فى أوراق ، ومضى نحو نصف الساعة وإذا خادم لنا كنا قد جئنا بها حديثا من الريف لمعاونة الخدم فى تنظيف البيت ، دخلت تحمل هذه « الكراسة » ، وكانت كما هى الآن داخل غلاف حكومى من أغلفة عملى ، ووضعتها بجانب ملفاتى ظنا منها أنها لى ، وكدت أنا أشكرها ، وأدس الكراسة بغلافها فى ملف ، ظنا منى أنها جزء من أوراق قد سقط ... ولكن ... ولكننى لمحت لون الكراسة الأحمر ، ففتحتها فلحظت أن هذا الخط أعرفه : إنه خط امرأتى ... وما شأن كتابات زوجتى بملفاتى الرسمية ؟ فسحبت بيدى الكراسة ، وأنا أقول للخادم :

ـــ أين وجدت هذا ؟...

فأجابت أنها وجدتها ملقاة على الأرض تحت أقدام « دولاب » الحلى فى حجرة « الست » ، وقد دخلتها لتنظمها بعد خروجها ؛ كما أمرتها الخادم الكبرى المسئولة المشغولة ... كما قامت بعمل آخر فى الحديقة مع المرضع فأشرت إليها بالانصراف إلى عملها ... ووضعت الكراسة فوق المكتب فى غير اكتراث ؛ إذ لم يكن من الممكن أن أتصورها تحوى ما تحويه ، وكان ذهنى خاليا كل الخلو من أى ريبة ... وعدت إلى عملى ، ولم يعلق فى رأسى ذلك كله ؛ إلا أن هذا شىء يخص زوجتى ، قد جاءت به الخادم

خطأ !... ويجب ألا أنسى رده إليها عند عودتها ... أو الأفضل أن أطلب الخادم من الفور ، وآمرهـا أن تضع هذه الكـراسة فى حجـرة « الست » ... وتركت عملى ورفعت رأسى عن ورق ... ومددت يدى أتناول الكراسة ... وأنا أهم بنداء الخادم ، وإذا سؤال يخطر لى فجأة : فيم تستطيع زوجتى أن تكتب كل هذه الصفحات ؟... وقلبت أصابعى على الرغم منى بعض صفحات الكراسة ، وإذا بصرى يقع على ألفاظ وعبارات وقف لها شعر رأسى !... وعدت أقرأ من البداية كل ما فى يدى ... والعرق يسيل فى كل بدنى ... والرعدة تسرى فى أناملى ، فلا تحسن تقليب تلك الصفحات ... وكلما مضيت فى القراءة شعرت بالظلام يدب فى عينى ، والدوار يصعد إلى دماغى !... فتماسكت وتحاملت ، وجعلت أسرع فى القراءة وأنا ألهث إسراعا حتى لا أخر على الأرض ، قبل إتمام هذه الصفحات ... إلى أن قرأت كل شىء ...

مستحيل ... من المستحيل قطعا أن أصف ما حدث لى وقتئذ ... هنالك أشياء تحس ولكنها لا توصف ... وإنها لتشتد حتى تفقدنا صدمتها إدراكنا الوقتى بما حولنا ... وإنها لتهول حتى تخرج من نطاق المشاعر المعنوية إلى محيط الآثار المادية فى جسم الإنسان ؛ فلقد نسيت فى لحظة كل شىء ، ولم أع شيئا ، إلا أنى أحس ألما كالمغص فى المعدة وميلا إلى القىء ... وشعورا شديدا بالإغماء ... قاومته بكل ما بقى لى من قوة حتى لا أشعر أحدا بما أنا فيه ... وتمددت على مقعدى ، وألقيت برأسى إلى الوراء ... ولبثت هكذا لا أفكر إلا فى استرداد قواى ... إلى أن انقطع

تصبب العرق ... وبدأ النور يعود رويدا رويدا إلى بصرى ... والدوار يزول والتنفس ينتظم ... فاعتدلت فى مقعدى منهوكا ، وأنا أمسح وجهى بكم ردائى المنزلى ... وذهب عنى قليلا هذا الأثر المادى للصدمة ... ونشط إدراكى من جديد ... فكان أول ما اتجه إليه ، ليس الحزن ولا الأسى ، ولا الألم ولا الغضب ؛ فتلك مشاعر لا نحسها فى الأحداث الجسام إلا فيما بعد ... إننا إذ نفاجأ بموت عزيز علينا لا نفكر فى البكاء ، ولكن نفكر فى كيف يدفن ... أما الدموع فيأتى دورها بعد ذلك ؛ إنها للذكرى لا لمعالجة المواقف ، لذلك ما فكرت وقتئذ إلا فى أمر واحد : كيف يكون موقفى منها ؟!... من العبث أن يلقى مثل هذا السؤال على العقل وحده فى مثل هذه الظروف ؛ فكل شخص يتصرف فى ذلك الحين طبقا لطبيعته ونشأته وثقافتة ، ومن الدقة أن أقول لك : إنى لم أحاول قط أن أتدبر الأمر أو أحكم عقلى فيه ... فلم يكن هذا وقته ... بل لم يكن هنالك وقت لذلك على الإطلاق ... فإن نفسى كلها قد استحوذ عليها شعور واحد ، هو مزيج من الرعب والاشمئزاز والنفور ، لمجرد الخاطر بأن عينى قد تقع على هذه الزوجة وهى عائدة !... كان ما يشغلنى ويقلقنى هو أمر لقائها بعد ذلك !... كلا !... إن هذا لا يمكن تصور وقوعه... لو قيل لى وقتئذ : إن الموت قد تجسد فانظر إليه ؛ لكان أهون على نفسى من النظر إلى وجهها بعد الآن ... ليس فى مقدورى أن أصف لك هلعى من مجرد فكرة النظر فى وجهها ... ذلك الوجه الجميل الذى ما كنت أمل أبدا من النظر إليه ... وتركز تفكيرى كله عند ذاك فى

تلك النقطة .. كيف أراها ؟... كيف أستطيع أن أراها ؟... إنها لا شك عائدة هذا المساء ، وستدخل عليّ تحييني ؛ لأنها طبعا لا تعلم بعد بأني قد علمت ، فماذا أنا قائل ، وماذا أنا صانع ؟... كلا ... إنه المستحيل بعينه ... إني أتخيل إمكان كل شيء في هذا الوجود ، إلا إمكان وقوع عيني عليها ذلك اليوم ... ونهضت واثبا على قدمي ... وأنا لا أرى لنفسي غير الهرب ... نعم !... فلأهرب أولا من مرآها ؛ إذ محال أن يظللنا سقف واحد بعد الساعة !... الهرب أولا منها ... الهرب ... وليكن التفكير في الباقي بعد ذلك ، وذهبت مسرعا إلى حجرتي فارتديت ثيابي ، وأعددت حقيبتي ، وقد وضعت فيها كراستها مع ملابسي ، وكل ما أحتاج إليه في غيبة طويلة ... وطفقت عيني تقع على الرغم مني على أثاث تلك الحجرة التي قضينا فيها معا أياما سعيدة ... فإذا كل شيء فيها الآن يصيح بالخيانة ... هذا السرير الذي وصفته هي في صفحاتها ... وهذا البساط التي كانت تمشي فوقه رائحة غادية ، يوم رأت صاحبها أول مرة ... وأنا لا أدري سر قلقها ولا سهادها ... كل سؤال له عندي الآن جواب !... حتى سبب انتقالها إلى حجرة أخرى خاصة بها ... لقد ذكرت هي لي أنها كانت تخشى أن تزعجني بالليل ، كلما نهضت لتشرف على طفلتنا في حجرتها مع المرضع ، وأن من الخير الآن أن يكون لكل منا حجرة مستقلة ، فصدقتها وشكرت لها حرصها على راحتي وراحة الصغيرة ، ولكن متى اقترحت ذلك بالضبط ؟... أليس ذلك بعد عودتي من رحلتي وغيبتي المشئومة ؟... تلك التي تم خلالها ذلك الإثم !...

ولماذا أرادت ذلك ؟... أليس رغبة منها فى التحرر والخلو إلى نفسها وإلى تدوين إعترافاتها !... ومن يدرى ربما استطاعت أن تخرج ليلا ، وتعود دون أن يفطن أحد !... ومن يدرى إلى أين خرجت عصر اليوم بهذه السرعة ، واللهفة التى أنستها — ولا شك — إخفاء كراستها حيث كانت تخفيها .. لعلها كانت تضعها فى خزانة حليها ذات المفتاح الذى لا يفارقها ... ولكن القضاء شاء أن تسقط الكراسة اليوم دون أن تتنبه ، وهى تخرج حلية تزين بها جمالها الفاجر !... كل تلك الخواطر مرت كالبرق فى ذهنى ، وأنا فى حجرتى أمام حقيبتى ... فأدركت للفور أن ذهابى أمر لا بد منه ، وإذا كانت الجمادات تصيح بى هكذا ، وتذكرنى وتحدثنى ، وتجيبنى عن كل سؤال !... فما بال الأشخاص ؟... وما بالها هى ... بما فى عينيها من نظرات لن يستطيع الكذب بعد الآن أن يسدل عليها قناعه ؟!... وخرجت من حجرتى وناديت أحد الخدم ، فحمل الحقيبة ، ووضعها فى سيارة « تاكسى » أمرت بإحضارها ... وذهبت دون أن أخبر أحدا أين أذهب . فأنا نفسى لم أدر ما أقول للسائق ، وهو يسألنى عن مقصدى !... إلى أن خطر لى فى الطريق أن أنزل هذا الفندق « بحلوان » ، فلطالما نزلته وأنا أعزب قبل الزواج كلما طلبت الاعتكاف والاستجمام ، جئت هنا وأنا كالشىء المحطم ، ولم أنم ليلتى ولا ما تلاها من ليال !... وأعدت قراءة اعترافاتها مرة ومرتين !... إنها حقا لفظيعة ، إن الخيانة الزوجية لأمر فظيع !... وإنها تذكر تفاصيلها ، وتسرد وقائعها ، لا بلهجة النادم التائب عن زلة ... ولكن بلهجة الواثق

المتحدى بأن هذا حقها المشروع !... يالله !... أتلك شريكتى وأم طفلتى التى كانت تعيش إلى جانبى معززة مدللة كل تلك الأعوام ؟!... ومضى أغلب الأسبوع الأول وأنا فى عذاب أعفيك من سماع وصفه وتفصيله ... فقد لا يهمك ذلك ، وحتى لو سألتنى ذلك فإنى لن أستطيع له تصويرا ، ويكفى أن أؤكد لك أنى صرت إلى حالة تشبه الجنون ، أو تقرب فعلا من الجنون ... فإن عدم النوم مع التفكير المضنى المستمر ، والأعصاب الثائرة المنهكة ، وتركيز الذهن فى نقطة واحدة ليل نهار ؛ — كل ذلك كاد يوقعنى حقا فى مرض عصبى خطير !... لقد كان من المتعذر على بصرى أن يرى شيئا غير صور دائمة شبه مجسدة ، لما وصفته فى صفحاتها من مناظر الزنا !... لقد أصبح رأسى صندوقا لا يحوى غير هذه الصور معروضة لذهنى ، لا تتغير ولا تتبدل أياما برمتها ... لقد كنت أحيانا أضرب رأسى بيدى ضربا شديدا ، أريد تحطيم ذلك الصندوق الشنيع !... لقد كدت ذات ليلة ألقى بنفسى من النافذة تخلصا من تلك الصور ...

ولقد فهمت منذ تلك اللحظة ما الذى يدفعنا فى أكثر الأحيان إلى الانتحار !... إنه ليس الألم ؛ بل فكرة ... ليس أخطر على الإنسان من اضطهاد الفكرة ... ليس الخطر علينا من الحقائق والواقع ؛ بل من الصور والأشباح !... فإن الذى يدفعنا غالبا إلى الموت هى أشباح ، على أنى فى تلك اللحظة تذكرت ابنتى !... هى التى أنقذتنى ، فتركت كل شىء ، وجعلت أفكر فيها ، لقد كنت نسيتها !... وبتفكيرى فيها تغيرت تلك

الصور المخيفة ، وانزاحت قليلا من رأسي ... فشعرت ببعض الراحة !... لقد أنقذتني ابنتي من بعض آلامي ، ولعلها أنقذتني كي أنقذها ، وأنه واجب عليّ محتم أن أنتشلها من أحضان مثل هذه الأم ، وهنا حدث تحول فى اتجاهي كله ؛ لم تعد الزوجة تعنيني !... بل إنه على الرغم من الصدمة التى حلت بى لم يخطر ببالي قط لحظة واحدة أى خاطر إجرامي ، أو أى رغبة فى عقاب أنزله بها أو بشريكها فى الإثم !... حتى اسمه لم أحاول معرفته أو التحرى عنه ، وربما كان هذا راجعا إلى طبيعتي أو نشأتي وتربيتي كما قلت لك ، إنما الذى خطر لى هو البعد بنفسي فى الحال عن هذه الأدران !... وأذهلتني المفاجأة عن كل شيء أو شخص غيرى ... فهربت بمفردى ؛ ولو تنبهت لحملت معي ابنتي ، ولكني أحمد الله أنى لم أتسرع ، ولم أرتكب حماقة ؛ فإنى فى مطلع الأسبوع الثانى ، وقد عرفت بعض الهدوء ، وبدأت جفوني تعرف بعض النوم ! عكفت على تدبير أمرى ، فنظمت شأنى وضمدت جراح نفسي ، وغسلتها بمطهر رائع الأثر ، أتدرى ما هو ؟... هو الجيد من الكتب !... إنك لم ترنى هنا إلا وبيدى كتاب ... إنى وأنا أغرق نفسي فى المطالعة القيمة ؛ إنما أغرقها فى محلول بلسم ، ولما سكنت العاصفة فى رأسي قليلا ، بدأت التفكير فى الموقف كله ، فرأيت أن التصرف السليم هو فى كتمان كل ما حدث عن الناس ، ومفاوضة زوجتي سرا فى الطلاق على هذا الأساس : وهو أن تتنزل لى عن حقها فى حضانة البنت ؛ وأن أتسلم طفلتي من الفور : وأربيها على مبادئ ، وكما يحلو لى !...

وأظن المنطق يقضى بأن مبادئ أسلم لهذه البنت على الأقل وأشرف لها من مبادئ أمها ... وإذا أرادت الأم أن تحرص على مستقبل ابنتها ، فلتحذر كل الحذر من أن يطلع المجتمع على هذه الفضيحة !... ولها أن تخلق سببا شريفا تبرر به الطلاق ، ولن تجد هى صعوبة فى اختراع سبب له ؛ « فالطلاق » اليوم أصبح « موضة » وبدعة ؛ شأنه شأن « المغامرات » !... إنما عليها أن تجد سببا لا يشين ابنتها فى المستقبل ؛ فالويل للطفلة إذا علم الناس الحقيقة ، فهم سوف يقولون مع المثل السائر : « البنت لأمها » ، وبذلك يقضى على سمعة هذه الصغيرة منذ الآن !... ولكن بقيت أمامى مشكلة : من الذى يفاوض هذه الزوجة ؟... أما أنا فمستحيل أن تراها عينى أو يخاطبها لسانى ... إن مجرد تخيل ذلك يصيبنى بقشعريرة أخاف أن ينتكس معها أمرى ، وهنا خطر لى أن يقوم بذلك عنى رجل يعتمد عليه ، يوثق فى شرف كلمته وحفظه للسر ، ولم أتردد فى اختيار هذا الرجل ؛ فقد كان هو ابن خالى ، ذلك الضابط الذى رأيته معى ؛ فلقد نشأنا معا منذ الصغر ، ودرجنا على المودة والإخلاص من قديم ، وكان هو من بين جميع أقاربى الصديق الوفى ، والأخ العطوف ، وعلى الرغم من اختلافنا فى المشارب والميول ، وافتراقنا فى الطبائع والاتجاهات ؛ — فإننا متحدان فى جوهر السلوك ، متلاقيان فى كثير من الخصال ؛ فهو يختلف عنى منذ الصبا فى ميله إلى الحياة العسكرية وتبرمه بالحياة الفكرية ، وفى تفضيله الحصان على الكتاب ، وبراعة الرماية على متعة القراءة ... ولكننا نتفق فى فهمنا لكلمة « الواجب » ،

وفى تقديرنا لمعنى الشرف ... إنه رجل ، وكان دائما رجلا ، حتى يوم كنا أطفالا نلعب لعبة « الحصاة » ، يخفيها أحدنا فى إحدى يديه ويسأل الآخر عنها ، فإذا غلط ضربه بالمنديل المفتول كذا ضربات !... كنا معشر الأطفال اللاعبين نحاول التنصل أحيانا ، والمماطلة أو المغالطة !... أما هو فكان صريحا مستقيما ماضيا ؛ كأنه سيف ... إذا أخطأ مد كفيه من تلقاء نفسه ، وتلقى الضرب وهو يتلوى من الألم حتى يوفى بالشرط ... كان هذا الأخ هو الذى فكرت فيه ... ولم أفكر فى أحد غيره ، حتى ولا أمها ؛ خشية تسرب الخبر فى الأسرة ، وانتشار التهامس ، ثم الثرثرة ، والقيل ، والقال ، ولكن ابن خالى هذا لو قلت له : اكتم عنى فلن يتكلم ، وإن ذبح ، فاستقدمته بالتليفون إلى هذا الفندق ، فجاء على عجل ، وكان الوقت عصرا أو بعد العصر بقليل ، فلم أر أن أصف له الأمر بنفسى أو أخبره ؛ لئلا أزيد فيه أو تخوننى أعصابى ، فأصورها تصويرا ظالما ... وآثرت أن أضع بين يديه الكراسة يطالعها أولا ، قبل أن أنطق بحرف ، وهو عين النهج الذى اتبعته معك بعد ذلك ، فحمل الكراسة ومضى بها إلى بيته فى القاهرة ، على أن يجيئنى بها فى اليوم التالى وقد قرأها ؛ إذ كان من المتعذر عليه المبيت خارج بيته تلك الليلة ، فقد سافرت زوجته إلى مدينة « أسيوط » ، لتكون بجانب شقيقتها الحامل التى تضع ... وتركت له إدارة المنزل ؛ ورقابة ولديه ، كلاهما يذهب إلى المدرسة ؛ فالولد الأكبر فى الثامنة من عمره ، والأصغر فى السادسة كما ترى قد تزوج قبلى بسنوات !...

وجاء الغد ، وعاد إلى ابن خالى بالكراسة ... ولكن بأى وجه ؟... لقد كان شاحبا شحوبا هالنى وأفزعنى ، ورأيت فى عينيه كأن مصيبتى أفدح مما ظننت وأعظم ، وأخذتنى عليه شفقة ، وكاد يذهلنى ما به عما بى ، فقلت له وأنا أجلسه بجوارى :

— «هوّن عن نفسك ، ولا تدع كارثتى تفعل بك كل هذا !... ولنعالج الأمر بعقل هادئ ... فأصغ إلىّ أحدثك بما استقر عليه عزمى ، وأرجو أن تقرنى فيما اعتزمت ... » .

فلبث مطرقا ، ولم أسمع منه إلا غمغمة تصعد من أعماق قلب مجروح قائلة :

— « سحقا للنساء !... » .

وأردت أن أعيد الصفاء إلى ذهنه ؛ لنتعاون على حل المشكلة حلا حصيفا ، ولكنه انتفض قائما ، وكأنه لا يصغى إلى ، وفاجأنى بقوله ، وهو ينظر إلى مكان « التليفون » :

— اسمح لى أطلب « الترنك » !... لا ... لا بد من الاستعلام فى « أسيوط » !...

فاستوقفته وأنا أردد فى شىء من العجب :

— « أسيوط » !...

فقال فى لهجة عصبية تدل على خروجه عن طوره :

— « من أدرانا يا أخى ؟... من أدرانا ؟... لقد جاءنا تلغراف حقيقة بأن شقيقتها موشكة على الوضع ، فسافرت ... وقد حادثتها تليفونيا

البارحة فوجدتها حقيقة هناك ، ولكن كل هذا لا يقوم دليلا ... إنها تذهب كثيرا إلى « أسيوط » أخيرا ... لماذا ؟... ولمن ؟... لقد ذهبت هذا العام أكثر من ... أكثر من ... » .

وظل يهذى بكلام كثير عن زوجته ، فأدركت من الفور أنى قد ارتكبت غلطة كبرى ، دون أن أشعر ، إن الكراسة فيها لو تذكرت نبذة عن زوجته ، وآراء البعض فيها وفى تصرفاتها ، وانفراد زوجتى بالدفاع عنها ، وعن أفعالها ... وهاك نص بعض دفاع زوجتى فى صفحاتها :

« ... هذه الصديقة المسكينة كل جريمتها أنها أرادت أن تعيش ، وأن تتنفس قليلا !... وأن تحيا كمخلوق حر متمدن !... ولكنها فى نظر عمتى وأمثالها من أفراد أسرتى ، امرأة ساقطة : أفعالها وأحوالها تشبه أفعال وأحوال العاهرات !...

ما من أحد يلتمس العذر لمن يغتابونهم فيذكر ضعفهم الإنسانى ، لعلى أنا وحدى التى كانت فى قرارة نفسها تلتمس الأعذار لجميع الغوايات والغلطات على هذه الأرض !... » إلخ إلخ .

ما الذى أطاش عقلى فأسلم زوجا آمنا صفحات بها هذه العبارات عن زوجته ؟!... الحق أنى ما تنبهت لذلك !... إن عينى عميتا عن كل ما تعلق بغيرى ، ولم تريا إلا ما خصنى وألم بى !... إن الأثرة فينا أقوى منا ، وإن الأنانية ركبت فى كل حاسة من حواسنا ؛ كما يركب « المحرك » فى كل آلة من الآلات ...

فلقد دفعت إليه الكراسة وأنا لم أفطن إلى أن فيها ما يمسه ، ولعله قرأها

فتسمر بصره على ما يخصه ، وأرغمته على الجلوس ليفضى إلى بذات نفسه ، فجلس وطفق يبدى لى ألمه لما قرأه عن زوجتى !... ويحاول تعزيتى تارة والثورة لى تارة أخرى !... لكنه فى أكثر الأحيان كان يسهو عن موقف الصديق المحمل بمهمة ، ويخرج عن صفة القريب والخدين ، المطالب بالرأى والنصح ، ولا يبقى منه إلا زوج تنهش الريب والشكوك قلبه ، ولم يلبث أن نسى قصتى قليلا ، وأفاض فى شرح قصته ؛ فذكر لى أنه هو أيضا لم ينم ليلته تلك بعد مطالعة الكراسة ، وأنه قام فى البيت هائجا ينبش فى هدو الليل وأطفاله نيام والخدم راقدون ، صناديق زوجته وأمتعتها وخزانتها وأثوابها ، يفتح ما طاوع يده ، ويكسر ما استعصى عليه فتحه ... باحثا ... منقبا عن ماذا ؟... عن اعترافات زوجته هى الأخرى !....لم يعثر بالطبع على شىء ، فليس كل النساء يحتفظن بكراسات ، ولا كل الزوجات يسجلن الاعترافات ، فتلك ولا شك مزية من مزايا زوجتى ، المغامرة المولعة بالحرية ، المتمدنة المشغوفة بالحياة ، وزوجته على كل حال تكبر فى السن قليلا زوجتى ... ولها من ظروفها وميولها وطبيعتها ، ما قد يجعلها تختلف عن صديقتها بعض الاختلاف فى الأسلوب والطريقة على الأقل ، بفرض اتحادهما فى لب المبادىء ، ولكن ابن خالى وقع فريسة تلك الصور الشائنة التى طالعها ، فخلط بين زوجته وزوجتى ، ولم يميز بينهما فى وضع من الأوضاع !... وتوهم زوجته قد سارت عين الشوط الذى قطعته زوجتى فى طريق الخيانة ، وطفقت ذاكرته تمده بتفاصيل لم يأبه لها فى حينها ، والآن يرى لها

من المعانى ما ترتعد له الفرائص ... هو أيضا قد تغيب فى مهام رسمية ، وهو أيضا طالما سمع من زوجته كلمات ، ولحظ إشارات تشبه ما قرأ فى صفحات صديقتها ، ولطالما أحب زينتها ، ووافق على بهرجها ؛ ظنا منه أن هذا يرضيها ويرضى المتبع المألوف عند نساء هذا العصر ، دون أن يخطر بباله الشك فى وفاء زوجته ، أو الارتياب فى أمانتها !... إنه كان يصدق كل كلامها هو الآخر ، ليس من السهل مطلقا على زوج أن يرتاب فى زوجته ... ولقد صدق من قال : « إن الزوج هو آخر من يعلم شيئا عن حقيقة مسلك الزوجة » !... فإن جو الثقة الذى تنسجه الألفة الطويلة ، والاتصال الوثيق ، واحتكاك اللحم باللحم ، وامتزاج الدم بالدم ، واختلاط الاسم بالاسم ، ورباط الأطفال ، وحبال الحياة بما فيها من آلام وآمال ؛ — كل ذلك يلقى بالزوج فى عالم من الطمأنينة ، تهمد فيه حواس الشك وتنغلق فيه أهداب اليقظة وتتثاءب الفطنة وتنام .

إن الزواج هو وادى العميان ، يتعطل فيه بصر الإنسان ببعض حقائق الأشياء ؛ فهو قد لا يرى ما حدث وقد يرى ما لم يحدث !... ومن يدرينا أن زوجته ذهبت بالفعل فى طريق الغواية إلى حد الخيانة الصريحة ؟... ولماذا يبنى هذا الفرض على كلمات لزوجتى ليس فيها ما ينم عن ارتكاب إثم بالذات ؟... هذا على الأقل ما أردت أن أقنع به ابن خالى ، أعالج به موقفه المؤلم !... ولكن الإقناع فى هذه الأمور لا ينفع ، والمنطق لا يغنى شيئا !... ليس أخطر فى الزوجية من تنبه الريبة النائمة ؛ فإنها متى صحت دب فيها نشاط عجيب ، فلن تعرف النوم بعد ذلك أبدا ، ولقد حفظ ا

خالى العبارات الخاصة بزوجته فى الكراسة ، واستظهرها كلمة كلمة ؛ فعبارة : « أرادت أن تعيش وأن تتنفس قليلا كمخلوق حر ... وأفعالها وأحوالها التى تشبه أفعال وأحوال العاهرات ... وجميع الغوايات والغلطات ... » إلخ ... إلخ ...

كل كلمة من هذه انقلبت فى رأسه عينا يقرأ بها كتاب حياته الزوجية من جديد ... ويا لهول ما قرأ !... إنه فى كل لحظة يأتى إلىّ بما يسميه برهانا جديدا على جرائم امرأته ، وآخر ما رسخ فى اعتقاده فكرة خطيرة : هى أنه يشك فى نسب ولده الأصغر ... إنه على رزانته التى كنت أعرفها فيه يقسم لى أنه ليس ابنه ، ويدعونى إلى أن أحدق فى وجهه ، وأتفرس فى ملامحه ، فهو يزعم أنه لا يشبهه مطلقا كما يشبهه الابن الأكبر ، ولكن لماذا لم يقل هذا الكلام من قبل ؟!... وكيف لم يفطن إلى مسألة الشبه حتى الآن !... من العبث أن تجادل فى ذلك رجلا وضعه القدر هذا الوضع ، إنى من ساعة أن رأيت وجهه الذى رجع به ، أدركت أن الواجب يقضى علىّ بأن أمنعه من العودة إلى منزله ، وهو على تلك الحال ؛ خشية أن يرتكب حماقة مما يندم عليه الإنسان عند هدوئه ، ثم إنى خفت عليه من أثر الصدمة فى أيامنا الأولى ، وأثر الوحدة ... ولقد جربت هذا قبله ، وأعرف مداه !... فعملت على استبقائه فى هذا الفندق يومين أو ثلاثة حتى نتدبر الأمر معا ، وخاطبنا منزله بالتليفون فأحضروا له هنا بعض ما يلزم له من الملابس والحاجات الصغيرة ، ثم خاطب هو بعض من يثق به من قريباته العجائز ؛ ليبتن فى منزله ؛ ويعنين بأمر الولدين ، ويشرفن على

البيت والخدم أثناء هذه الغيبة القصيرة التى قال للجميع : إنها من ضرورات عمله الرسمى ، ثم جعلته يطلب إجازة مرضية بضعة أيام كما سبق لى أنا أيضا أن فعلت !... ولبثنا هنا هكذا كما رأيتنا !... أما هو فلم ينم منذ حضوره إلا بحقنة من « المورفين » رجوت الطبيب البارحة أن يلجأ إليها ، وأما أنا فبعد أن كنت أحمل نكبتى وحدها وأطمع فى معونة ابن خالى عليها ، إذا بى أصبح وعلى كاهلى نكبتان .. وإذا هو فى حاجة إلىّ أنا ، كى يعان ...

والآن وقد انتهيت من سرد قصتنا عليك ، أراك تدرك ما أنا فيه ، وتعذرنى إذا التمست عندك الرأى والمشورة !...

وسكت الزوج سكوت من قد أفرغ كل ما فى جعبته ، وبدا على وجهه ما يبدو على من ألقى مسألة ينتظر عنها الجواب !...

ولم يكن من السهل على « راهب الفكر » أن يخرج فجأة من جو تلك القصة ، التى سمعها ؛ ليجيب أو يفكر أو يدبر ... فهو لم يكن بالغريب عنها هو الآخر ... إنه شخص من أشخاصها ، دون أن يعلم أحد ... وإن صلته الخفية ببطلتها ، التى حركت كل هذه المأساة ؛ لمما يوقر نفسه بخوالج من العسير إخفاؤها ، ولكنه لم يجد بدا من أن يقول شيئا ، فرفع رأسه وقال بإخلاص :

— إنى فى خدمتك ... كن على ثقة من ذلك !...

فغمغم الزوج :

— أشكرك !...

وأطرق ، وظهر عليه تردد !... كأنه أراد الكلام وأمسك عنه ... أو أنه كان يتوقع من محدثه دخولا فى الموضوع ، لا ترديدا لعبارة مجاملة ... وفطن « راهب الفكر » إلى ذلك ، فبادر يقول :

— نعم ... لا بد للأمر من مخرج !...

فقال الزوج لساعته :

— مسألتى أنا واضحة ، الحل عندى هو ما ذكرت الآن : الطلاق بلا صخب ، واحتفاظى بابنتى من الفور ، ولا يعنينى شىء آخر بعد ذلك ... ألديك اعتراض على هذا ؟...

— لا ... هذا هو الحل الوحيد الجدير برجل محترم مثقف مثلك :

قالها « راهب الفكر » بلهجة حارة صادقة ...

ومضى الزوج يقول ، وهو شاخص ببصره إلى الفضاء :

— ولكن المسألة الدقيقة العسيرة : هى مسألة ابن خالى !... إنه لم يضع يده مثلى على خيانة صريحة ، أو اعتراف مكتوب يستطيع بمقتضاه أن يريح ضميره ، ويتصرف تصرفا قاطعا ، ولكنها شكوك وأوهام ، تعذبه ولا تؤدى به إلى حل من الحلول ... ماذا ترى فى أمره ؟... ماذا ينبغى له أن يفعل ؟... إنه لا يستطيع أن يطلق زوجته ويشرد أسرته ، لمجرد ريب خامرته ... ثم إنى أمنعه من أن يشير إلى الكراسة بحرف ، إذا خطر له أن يواجه زوجته بما جاء فيها من عبارات تمسها ؛ لأن هذه الكراسة شىء يجب أن ينسى ، وسر لا يملك أحدنا أن يذيعه ... ما رأيك ؟...

فتحير « راهب الفكر » فالإجابة هنا من أصعب الأمور ، ولكنه أخذ يقول ، وكأنه يخاطب نفسه :

— رأيي ؟... لا أريد أن أتحمل تبعة رأيي ، ولكني أقول لك إن الريب والأوهام والشكوك ، دون دليل قاطع محسوس ؛ — هي أقتل للنفس ، وأضيع للشخص من كل حقيقة ... إنك بالطبع تذكر مأساة « عطيل » . وإذا كان « شكسبير » لم يجد حلا لغيرة « عطيل » وشكوكه ، فهل أجد أنا هذا الحل ؟... ولكن الذى قد أراه علاجا ... وأنا غير واثق ولا ضامن — هو المصارحة !...

لماذا لا يذهب ابن خالك إلى زوجته ، فيسارها ويصارحها فى حجرتهما المغلقة ، ويفضى إليها بشكوكه دون أن يذكر الكراسة ... فليقل مثلا إنه بلغه كذا ، وإنه مرتاب فى كذا ... وليخرج من جوفه كل ما فيه من سم هذا الدواء ... ولينظر النتيجة : فإما أن يرى من زوجته ما يثبت شكه فى إدانتها ... وإما أن يرى من كلامها ونبراته ما يقنعه ببراءتها ... أظن هذا هو الأمر الذى كان يجدر « بعطيل » أن يفعله من البداية ، قبل أن يستفحل معه الداء !... ومن يدرى لو أنه صنعه من أول الأمر ؟!... ماذا كان يحدث من نتيجة ؟... أعتقد أن هذا هو الحل ...

أتذكر حديث الإفك ؟... ذلك الاتهام الشائن الذى ألصقه بعض الناس « بعائشة » زوجة النبى محمد ؟... إن عذاب الشك الذى عرفه « محمد » وقتئذ لجدير حقا بنبى إنسانى !... إن هذا الحادث فى حياته لم يأت عبثا ... إنه خير دليل على أنه جاء ليهدى الإنسانية ، وهو بشر

منها ، يتعذب بكل أنواع عذابها الأرضى !... ما الذى صنعه « محمد » عند ذلك ؟... صارح زوجته بالأمر ...

وأصر ابن خالك أن يفعل ذلك هو أيضا ، وأن يقدم عليه رابط الجأش ، هادئ الأعصاب ... فتلك مسألة يتوقف عليها مستقبل أبناء ، ولا يجوز لنا مواجهتها ، ونحن نتخبط فى ظلام من عواطفنا المضطربة ، ونفوسنا الثائرة ...

— أتظن من السهل أن يحتفظ الإنسان بهدوء نفسه ، وصفاء بصيرته مع زوجته وهو فى مثل هذا الموقف ؟...

— لم أقل إن هذا سهل ميسر !... ولكن لا بد له من أن يبذل جهدا فى سبيل ذلك ... ولا بد لك من إقناعه ورياضته على امتلاك ناصية نفسه ، حتى يرى الأشياء جلية قبل البت ...

فأطرق الزوج لحظة ... ثم قال ، وكأنه يخاطب نفسه :

— كيف أنصح له وأنا لا أتصور أن هذا فى الإمكان ... حذار من أن تطلب إلىّ أنا — أيضا — أن أقابل زوجتى وجها لوجه ؟... لا تحاول ذلك معى !... أرجوك !...

ولفظ العبارة الأخيرة بنبرة تكاد تشبه الصرخة ، زمجر فيها الغضب ، وتراءى الرعب ، ووثب العنف والإصرار ... فبادر « راهب الفكر » يقول :

— لا ... لا تخف !... الأمر معك مختلف ، ولم يخطر ببالى قط أن أسألك أمرا كهذا !...

فاطمأن ، وقال :

— بالتأكيد أمرى مختلف كل الاختلاف ؛ فأنا ليس لدى ما أقول لهذه السيدة ، بعد أن قالت هى كل شىء !... لقد قرأت فى كراستها ما فيه الكفاية ، وقد أفصحت هى بما ينبغى لإدانتها وبأكثر مما ينبغى ... أما ابن خالى ، فلا بد له من أن يقرأ فى عينى زوجته ..

— هذا بالضبط ما أردت أن أقول !...

قالها « راهب الفكر » كمن يتنفس الصعداء ... وصمت الزوج قليلا ، ثم قال :

الآن قد انتهينا من أمر ابن خالى ... وسأتولى علاج شأنه ، بما ارتأيت له أنت من رأى ، وبقى أمرى أنا ... لقد ذكرت لك أنى كنت قد اعتمدت عليه فى مفاوضة زوجتى ، ولا جدال فى أنه لم يعد يصلح لهذه المهمة ، فحسبه ما هو فيه ، ولا مفر من اختيار غيره ، ولن أبحث طويلا فيما أرى ، فإنى مهما أنقب عن رجل ثقة ، ساكن الروع ، حسن التصرف ، سديد الرأى ؛ — فلن أجد خيرا منك أنت ...

فصرخ « راهب الفكر » ؛ كمن فوجئ بوخزة :

— أنا ؟!...

ولم يكن لمثل هذه الصرخة مبرر ولا مقتض عند من لا يعلم سرها وسر صاحبها ، فأخذ الزوج ، ونظر فى وجه جليسه نظرة المستقصى ... فتمالك « راهب الفكر » نفسه ، وتدارك أمره ، ولطف من صوته قليلا :

— إنى ... إنى ... أعجب لاعتقادك أنى أصلح لهذه المهمة ...

فقال الزوج باقتناع :

ــ ولِم لا ؟... ليس من الضرورى أن يقوم بهذا العمل قريب من الأقرباء !... إنى مطمئن إليك أنت كل الاطمئنان ... إنى ثقتى بك لا حد لها ، وإنى شاعر أنك تستطيع أن تتم المهمة فى جو من الكتمان ، وأن تؤدى لى هذه الخدمة على خير الوجوه ...

ــ ليس أحب إلى من خدمتك فى ظرفك هذا ... لكن ...

ــ لا تقل « لكن » !... بالله لا تقل « لكن » إنى ساعة لمحتك هنا ، لمعت فى رأسى هذه الفكرة ؛ كأنها البرق الخاطف ، بل لكأنه وحى من السماء هبط على أن ألجأ إليك ... ولقد وضعت فى يدك الكراسة عن تدبير ... وكان كل أملى أن أسألك بعد ذلك المعونة ، وقد صرت وحدى كما ترى ، فهل أنت خاذلى بعد كل هذا ؟...

فأطرق « راهب الفكر » برهة ... ولم يجد من الطبيعى أن يرفض توسل هذا الرجل ... إنه يكره هو أيضا رؤيتها ، ويخشى لقاءها وجها لوجه ... لكن أمره معها على كل حال هين بالقياس إلى ذلك الزوج . وإذا كان على أحدهما أن يراها ويحادثها بعد الذى حدث ، فلا ريب أنه هو الأولى بالمواجهة ، الأقدر عليها ... فليتحمل عن زوجها المسكين ذلك العبء ... وليكتم حرجه فى صدره ، وليقدم ... ورفع رأسه ، وقال بصوت العزم :

ــ فليكن ...

فقال الزوج وهو يشد على يده :

ـــ أشكرك ... ولن أنسى لك أبدا هذا الصنيع !...

ولم يلتفت « راهب الفكر » إلى جليسه ... فقد حلق بذهنه لحظة ... ثم قال له ؛ وكأنه يخاطب نفسه :

ـــ أهى فى منزلها ؟... هل أراها هناك ؟... لا ... لن أذهب إليها فى بيتها ... فأنا بالطبع غريب عن البيت ، كيف أزورها فى غيبتك دون أن أثير فضول الجميع ؟... إذا وافقتنى فإنى أدعوهـا بالتليفـون إلى زيارتى !...

فقال الزوج مرتاحا دون تردد :

ـــ افعل ما شئت !...

ـــ أتراها ما زالت فى ... فى بيتك حتى الآن ؟...

فقال الزوج وهو يفكر :

ـــ لست أدرى ... إنى منذ غادرت البيت لا أعلم ما صارت إليه ، ولكن أغلب ظنى أنها هناك ... إنى أعرفها حق المعرفة ... إنها ذات ذكاء ... وقد فهمت ولا ريب كل شىء من اختفائى المفاجئ مع الكراسة ، ولا أرى إلا أنها أوهمت الجميع أنى على سفر ... ولبثت هى تنتظر !...

ـــ تنتظر ؟...

ـــ نعم ، تنتظر خطواتى التالية ؛ لتعرف منها اتجاهى بعد هذا الحادث ...

وصمت الرجلان صمتا قصيرا قطعه الزوج صائحا :

ـــ ابنتى !... أتوسل إليك أن تأتى إلى بابنتى . أنقذ ابنتى من يد هذه الأم ... لن أطلب إليك شيئا آخر غير هذا ... ابنتى ... ابنتى ... وسمعة ابنتى ... ومستقبل ابنتى ...

ـــ أعدك بذلك !...

لفظها « راهب الفكر » فى شبه همسة ، كلها عزم وتصميم !...

١٣

اللقـــاء

غادر « راهب الفكر » « حلوان » فى نفس اليوم عائدا إلى بيته ، ولم يضيع وقتا ؛ فقد أمسك فى الحال بسماعة التليفون وطلب الزوجة ، وجرى ذلك كله بسرعة ، صرفته عن التفكير فى نفسه . وكأنما هو مسير بدفعة من يد ذلك الزوج التعس ، فلم يكن همه إلا تنفيذ ما كلفه به ، وقد استطاع أن يقنع نفسه أن تلك المرأة أجنبية الآن بالنسبة إليه ... وأن فى مقدوره أن يلقاها بهدوء وقلة اكتراث ؛ كأنما هو يراها لأول مرة ، ولن يكون بينهما غير حديث وجيز شبه رسمى ؛ كذلك الحديث الذى يجرى بين محام وخصم فى دعوى مدنية ؛ فالمسألة لن تعدو عرضا بسيطا لمطالب الزوج وإصغاء لردها بالقبول أو الرفض ... وهى لا بد قابلة ذلك العرض الكريم بغير جدال تجنبا للفضيحة ... ولكن ... ولكن صوتها الرقيق ما كاد يرن بدلال قائلا : « آلو » حتى ارتجفت السماعة فى يده ... إنه صوتها .إنه على الرغم من كل شىء صوتها الذى عرفه قديما .. مهما يكن رأيه فيها اليوم ؛ فإن مجرد صوتها لم يزل يحدث فى نفسه أثرا . إن فى الإنسان منطقة عجيبة سحيقة لا تصل إليها الفضيلة ولا الرذيلة

ولا تشع فيها شمس العقل والإرادة ، ولا ينطق لسان المنطق ، ولا تطاع القوانين والأوضاع ، ولا تتداول فيها لغة أو تستخدم كلمة ... إنما هي مملكة نائية عن عالم الألفاظ والمعانى ... كل ما فيها شفاف هفاف يأتى بالأعاجيب فى طرفة عين ... يكفى أن ترن فى أرجائها نبرة ، أو تبرق لمحة ، أو ينشر شذا عطر ، حتى يتصاعد من أعماقها فى لحظة من الإحساسات والصور والذكريات ، ما يهز كياننا ويفتح نفوسنا على أشياء لا قبل لنا بوصفها . ولا بتجسيدها ، ولو لجأنا إلى أدق العبارات وأبرع اللغات ... وهنا أحس الخطر وخاف أن يتهدج صوته أو يضطرب نطقه فسكت ليتمالك ... إلى أن رددت هى مرتين : « آلو .. آلو .. » فتنحنح ، وتكلم بسرعة معرفا بنفسه ... فأبدت دهشة مع شيء من الفرح ... وخشى أن يطول الحديث ، أو يخرج عن قصده ، أو يحرج فيه ، فبادر يخبرها بأنه مكلف من قبل زوجها بأن يراها فى شأن هام ، وأنه ينتظرها فى أقرب وقت ، فضربت له موعدا ذلك المساء ، وختم للفور حديث « التليفون » على هذا النحو المقتضب ، حتى لا تزول عنه صبغة الجد وصفة التكليف ... وجلس إلى مكتبه ينتظرها ؛ كما كان يجلس أيام زيارتها الأولى ... يا للعجب !... نعم إنه ينتظرها الآن ... ولطالما انتظرها وهو جالس إلى هذا المكتب عينه ، وأنظاره اليائسة الضارعة متجهة إلى ذلك الباب ... ها هى ذى آتية عما قليل ... وعما قليل يرى قدميها تجتازان هذه الأعتاب ... إنها عائدة الآن ... وعودتها حقيقة واقعة لا وهم من الأوهام ، ولا حلم من الأحلام ... نعم ، هذا صحيح !...

لكن ... لكن شتان !... وامتدت يده فأخرجت من بين ملفات أوراقه رزمة رسائله إليها ، وجعل يتصفحها ، ويقرأ قوله لها :

« هنالك امرأة أخرى أحبها كثيرا لأنها أيضا على مثالك ، وإن كنت لا أرى لها جمالك : تلك هى « إيزيس » المصرية ...

« هكذا فعلت « إيزيس » الزوجة ، وهكذا كنت تفعلين أنت أيضا لو أنك فى مكانها ؛ لأنك أيتها الصديقة العزيزة تحملين عين القلب !... إنى لا أشك فى هذا لحظة ... عين القلب الذى ينبع منه كل هذا الحب وكل هذا الوفاء !... » .

« ... إن المرأة النادرة هى هبة الله الكبرى ... آه أيتها العزيزة !... لو سألونى عنك لقلت ليس فى دنياى اليوم إلا أنت !... » .

ثم قوله فى رسالة أخرى :

« إنى فى حاجة إلى مجرد طيفك ؛ لأن طريقى موحش حقا ... » « آه لو علم الناس أنى أحب ؟!... ما من أحد فى الوجود يرى ذلك الحب المضىء فى نفسى كاللؤلؤة ... حتى ولا أنت !... » .

ووقع بصره فى إحدى الرسائل على قوله لها :

« ما من رجل فى التاريخ سعد بزوجة عظيمة إلا تخيلتها على صورتك وأعطيتها ملامحك ، وأعرتها سماتك وصفاتك !... لا ريب أنك الآن بجوار زوجك السعيد تحدبين عليه بتلك المشاعر الرقيقة ، التى أعرفها فيك !... إنى لأراك دائما فى صورة الزوجة المثلى ... » .

وهو لو يقو على ضبط نفسه ؛ فإن اليد التى وصفت تلك المرأة بأنها

« زوجة مثلى » لتسخر الآن — ولا شك — من حسن ظنه وصائب تقديره !...

وانهالت كلتا يديه على الرسائل تقطيعا وتمزيقا ، وملأ بها سلة الأوراق المهملة عند أقدام مكتبه !...

... حقا إنها لحماقة كبرى !... كيف استطاع أن يخطئ فى أمرها هذا الخطأ ؟... وكيف استطاعت عيناه أن تبصرا جمالا روحيا ، ونبلا سماويا ، ومثلا عليا فى مثل هذه المخلوقة ؟... أتراها غفلة منه وسوء بصر بالأشياء ، أم هى طبيعة الفنان أحيانا تحول القبح إلى حسن ، والتفاهة إلى روعة وجلال ؟... إنها مثل جهاز « الكاليدو سكوب » الذى يحول قطع الورق الملون وفتات الزجاج المشوه إلى صور رائعة الرسم ، وأشكال بديعة التنسيق !...

لعل تلك وظيفة من وظائف الفن والأدب والفكر !... أن تكون للإنسانية بمثابة ذلك الجهاز الذى يجمل الأشياء !... لقد صور هو فى تلك الرسائل امرأة مثالية ، ولو أتيح للناس الاطلاع على رسائله لرأوا صورة للزوجة الفضلى ، تبعث فى نفوسهم الرجاء ، وتقوى فى قلوبهم الثقة بالخير والفضيلة ، وتلقى فى روعهم الإيمان بوجود الجمال الخلقى ، فلماذا ننزع من رءوس الناس هذا الوهم الجميل ، ونقول لهم : إن ما ترونه من كمال مثالى ، وجمال علوى ، ليس سوى قطع من حياة امرأة ملونة المظهر ، ملوثة المخبر ، وفتات شخصية نسائية أهش من الزجاج وأحقر ؟... أى فائدة تجنى إذا كشفنا للناس عن حقيقة الأمر ،

وفجعناهم فى آمالهم ، وأطلعناهم على ذلك التزييف وأريناهم كيف أن تلك القطع الآدمية والفتات البشرى ، قد استوت خلقا بديع البناء كامل البهاء ، بمجرد انعكاسها على تلك المرايا الكاذبة فى ذلك الجهاز « الكاليدوسكوبى » القائم فى قلب الأديب أو رأس الفنان ؟... إن إيهام الناس بوجود عالم الحق والخير والفضيلة هو واجب كل مفكر !... وله أن يتخير الوسيلة التى يراها ، والأسلوب الذى يحذقه ، لغرس هذا الوهم فى النفوس ... عجبا !... لماذا يسميه الآن وهما ، ولا يسميه إيمانا ؟... أفقد إيمانه هو الآخر بوجود الفضيلة لأن امرأة خيبت أمله ؟!... الواقع أنه كان يشعر ويفكر فى تلك الساعة ، لا كأديب ولا كمفكر ، ولكن كرجل ، وليس أدل على ذلك من اجترائه على تمزيق تلك الرسائل ، ولو أن الأديب أو الفنان هو الذى كان يتصرف وقتئذ ، لأبقى على رسائله قائلا :

« ماذا تعنينى حقيقة النموذج بعد أن أبدعت التمثال ؟... » أو على الأقل : وما العلاقة بين رسائلى وتلك المرأة ؟... إنى كنت أخاطب طيف امرأة لا صلة لها بهذه المرأة ... الطيف من صنعى ، والمشاعر مشاعرى ، فلأبقى على ملكى ومخلوقات ذهنى ... بل لأنشرها إذا شئت على الناس ، كما نشرت وأنشر غيرها من صفحات !... » ولكن الرجل فيه ... الرجل المخدوع المفجوع هو الذى كان يحس ، ويفكر ، ويتصرف . ولئن كان زوجها لا يفكر اليوم إلا فى بتر كل سبب يربطه بها ... فكذلك هو ، ذلك الذى كان لها فى الخفاء شبه « زوج روحى » قد اتجه تفكيره هو

الآخر إلى بتر كل ما كان يصله بها من أسباب ... ولم يكن بينهما من رباط مادى سوى تلك الرسائل ، فكان حتما عليه أن يصنع بها ما صنع ... ولقد شعر حقا ببعض الراحة ، وقد فعل ذلك !...

ومر الوقت سراعا ، وغربت الشمس ، وأقبل المساء !... إن موعد مجيئها قد قرب ... إنها فى الطريق إليه ... إنه يسمع وقع خطواتها ، لأن دقات قلبه تخبره بذلك !... لقد أخذت دقاته تسرع ، كأنها تتابع تلك الخطى ، أو كأن بين هذه وتلك عرقا نابضا ، ولكن ... لماذا قلبه يدق ؟... ليس يدرى !... ليس هو الحب على كل حال ... هذا ما يؤكده لنفسه على الأقل !... وهل يمكن أن يحمل لها اليوم غير الكراهية والازدراء ؟... إنما هو نوع من الاضطراب يخالج المقبل على لقاء غير عادى !... فهو يحس بعواطف شتى فى وقت واحد ، يحس شيئا من الارتياح الداخلى لرؤياها . ولكنه لا يعلل هذا لنفسه إلا بأنه حب استطلاع !...

نعم إنه مشوق إلى أن يرى وجهها الآن ، وما صارت إليه ، ويصغى إلى كلامها وما ينطوى عليه !... وإنه ليحس شيئا من الرهبة منها . ويتمنى فى قرارته أن يجدها قد تغيرت ، وذهب سلطان جمالها ، حتى يلقاها هادئا غير مكترث لها ، ويحس كذلك شيئا من الغيظ والغضب ، والأسى والأسف ، لأنها عائدة الآن بغير الثوب الخلقى النقى ، الذى تركت به تلك الحجرة آخر مرة ... كل هذه المجموعة من المشاعر امتزجت فى نفسه تلك الساعة ، وأثارت ساكنها ، فجعل كل همه القبض

على زمام أعصابه ، والتهيؤ لمقابلة الزائرة رابط الجأش كعهدها به فيما سلف ... ودق جرس الباب !... فانتفض قائما على الرغم منه ، ثم تنبه للفور فجلس فى مكانه من المكتب ، وتشاغل بالكتابة ، وفتح خادمه باب المسكن ، وسمع صوتها وهى تسأل عنه ، وخطواتها وهى تدنو منه ، إلى أن دخلت عليه الحجرة ، وقالت :

— « بونسوار » يا أستاذ !...

فرفع رأسه بتؤدة ، ورد التحية بهمسة ، وأشار لها بيده إلى مقعد ، وعاد فدس رأسه فى الورق ، متشاغلا بالكتابة من جديد !... وكانت تلك خير وسيلة يكتسب بها وقتا ، يهدأ فيه روعه !... ذلك أنه نظر إليها — عندما رفع رأسه — نظرة خاطفة ، وكانت تلك النظرة كافية ، فقد أدرك منها كل شيء !... إنها هى بجمالها ... هى بحسنها للأسف ، وسحرها !... ولكن فيها مع ذلك شيئا قد تغير !... جمالها اليوم ليس جمال الأمس ... إنه الآن جمال خطر !... إنه الجمال المتحفز ... الجمال المتحدى ... الجمال الذى يحلو له أن يهجم ، وأن يصرع ، وأن تكون له ضحايا !... إنه الجمال المخيف الشرير ... إنه الجمال الآثم ... إن طريقة زينتها وحدها تنطق بذلك !... فصبغة الشفاه ورسمها ... و« الرميل » حول الأعين والحذق فى وضعه ... والعطر والتفنن فى اختياره : — كل شيء فيها الآن يكاد يصيح قائلا : « حذار منى !... » إنها لم تعد الزهرة النضرة وكفى ... ولكنها الزهرة ذات الرضاب المسموم والألوان الزاهية ، لغرض معلوم !... إنها الزهرة القانصة ... التى تتفتح بهاء لتطبق

على فريستها فناء ... رأى منها ذلك كله فى هذه النظرة ... وهو لا يدرى أعينه هى التى أبصرت ذلك حقا ، أم رأسه وما صوره فيه الوهم ... فهو لم يكن ينتظر زيارة امرأة بريئة ، بل امرأة يعلم من سيرتها ما علم !... مهما يكن الأمر ، فها هى ذى تلك المرأة أمامه ، بكل سحرها وحسنها الغابر والحاضر ... فليغمض عينيه عن شكلها ورسمها ... وليضرب صفحا عن شخصها واسمها ، وليواجه المهمة التى ندب لها بغير إبطاء ، وينفض يديه من هذا الأمر ، ويخرج من هذا الموقف ... وآنس من نفسه بعض الهدوء والاطمئنان ، فنحى أوراقه بيده ، والتفت إلى الزوجة قائلا بلهجة جد أصحاب الأعمال أو رجال القانون :

— الموضوع الذى استدعى تشريفك بالحضور يتلخص فيما يأتى :

ولم يتم كلامه ، فقد قاطعته الزوجة الحسناء قائلة :

— « باردون ! » ... تسمح لى بسؤال ؟...

— تفضلى !...

— اخبرتنى بالتليفون أنك قابلت زوجى ... أين قابلته ؟...

— فى « حلوان » !...

— حلوان ؟... آه ... هو إذن فى « حلوان » ؟... لا ... لست أقصد مقابلتك له أخيرا ... إنما أسأل أين قابلته أول مرة ؟...

— أول مرة ؟... أذكر أنه تفضل بزيارتى هنا ...

— متى كان ذلك ؟...

— منذ أكثر من عام ؟...

ـــ أتذكر لأى علة زارك زوجى منذ أكثر من عام ؟...

ـــ كان ذلك لأجل ... لأجلك !...

ـــ لأجلى !... لماذا ؟...

ـــ للحديث عنك ، وعن القراءة والكتب ، والأدب .

ـــ كنت تعرفنى إذن فى ذلك الوقت ؟...

ـــ نعم ... بالطبع !...

ـــ وهل رأيتنى يومئذ ؟...

ـــ طبعا !...

ـــ أين ؟...

ـــ هنا ... كنت تتفضلين بالزيارة من آن لآن !...

ـــ إذن لم تكن زيارتى اليوم للمرة الأولى ... إذن معرفتى بك ومعرفتك بى ، لم تنشأ الساعة للمرة الأولى ... إذن وافقنى على أنه ليس من الطبيعى مطلقا أن تلقانى الآن ، بعد افتراقنا بعام ، فلا تجد ما تستقبلنى به من كلام ، غير هذه العبارة الجافة تصدمنى بها : « الموضوع الذى استدعى تشريفك بالحضور يتلخص فيما يأتى ... » .

فأطرق « راهب الفكر » ، وارتبك قليلا وأخذ يعبث بالقلم على ورقة بيضاء ، ثم قال بغير أن ينظر إليها :

ـــ إنى آسف ... ولكن ... بأى لهجة تريدين أن أخاطبك ؟... لا أظن أنى غيرت كثيرا طريقتى فى الخطاب معك !...

ـــ أعترف أنك لم تكن معى يوما قط مسرفا فى اللطف ، ولكنك على

بخلك فى التودد إلى ، وتحفظك فى معاملتى ، كنت أشعر برغم ذلك أنك طبيعى ، وأنك لم تتكلف تجاهلى ، كما فعلت الساعة !...

— إنى أردت أن أوفر من وقتك ، وأن أطرق الموضوع مباشرة ...

فصمتت على مضض ، ثم قالت :

— إنى مصغية !...

لفظتها على مهل ، وهى تخرج من حقيبة يدها صندوقا أنيقا للسجاير على أحدث طراز ، تناولت منه سيجارة ، ووضعتها فى فمها ، ثم قدمت الصندوق إلى الأديب تعزم عليه ... فاعتذر شاكرا ...

فقالت باسمة :

— « آه !... حقا ... أنت لا تدخن !... » .

فأجابها بنظرة تكاد تنطق بمرارة :

— وأنت أيضا فيما مضى .. أما اليوم فأنت تدخنين !...

ولكنه تجنب الحديث فى هذه الأشياء ، وآثر أن يشرع فورا فى الكلام الجدى ... إلا أنه لم يدر كيف يبدأ ، فالتفت إليها كالمستعين بها ، سائلا :

— ما هو — فى اعتقادك — السبب فى غيبة زوجك ؟

فانتهزت الفرصة ، وقالت متحدية ، وهى تشعل سيجارتها بوقادة « ولاعة » ذهبية ثمينة :

— من فضلك لا تلق علىّ أسئلة ... اطرق أنت موضوعك مباشرة ، وقل ما أردت أن تقول ، ولا تنتظر منى غير الإصغاء !...

فسكت لحظة ، وقد أدرك أن الحديث فى مثل هذا الجو لن يوصل إلى

نتيجة . فغير من لهجته قليلا ، وقال لها :

ـــ أما زلت مصرة على اتهامى بأنى أسأت استقبالك ؟...

فغيرت هى أيضا من لهجتها بعض الشيء وقالت :

ـــ بالتأكيد !... لقد كنت أنتظر منك أن تقدر لى على الأقل قبولى دخول بيتك بعد أن طردتنى منه ، منذ أكثر من عام ... يوم طلبت إلىّ ـــ فى هذه الحجرة بالذات ـــ أن أكف عن زيارتى لك !...

ـــ دخولك بيتى اليوم هو لأمر يخصك ، ويخص زوجك !...

ـــ كان فى إمكانى أن أسألك سرد هذا الأمر بالتليفون ... ولكنى لم أكد أتلقى دعوتك ، حتى هرعت إلى زيارتك بغير تردد !...

ـــ ليست هذه أول مرة تدخلين فيها بيت رجل ، بغير تردد !...

لفظها فى نبرة صارمة ذات معنى ، فالتفتت إليه فى الحال ، وقد فهمت ، على أنها لم تغضب ولم تعترض ، بل ابتسمت راضية ، وقالت وهى تنفخ دخان السيجارة من فمها :

ـــ لا بأس إنى أفضلك قاسيا معنفا ... لقد كنت معى كذلك أحيانا فيما مضى ... وفى هذا على الأقل شيء من الاهتمام !... ولكن ... من أين جاءك أنها ليست أول مرة أدخل فيها بلا تردد بيت رجل ؟... أترى زوجى قد أخبرك ؟... أم تراه قد أطلعك على ؟...

ـــ نعم !... على كل شيء !...

قالها على عجل كمن يلقى عن كاهله عبئا ، فقد هونت عليه بعض مشاق الحديث ، وسلكت به أقصر السبل إلى لب القضية ... ورفعت

سيجارتها إلى فمها ، وجذبت منها الدخان طويلا ، ثم مضت تقول أيضا ، وهى رابطة الجأش :

— وقرأت إذن بالضرورة ؟!...

— كراستك !...

لفظها سريعا وهو ينظر إليها ويراقب عينيها ... لكن يا للعجب !... ما هذا الهدوء ؟... ما من هدب فيها قد ارتجف ، بل لقد كانت عيناها مصوبتين إلى عينيه كأنهما تقرآن فيهما عوامل نفسه ، وتدرسان خوالج فكره ، ولم يجد هو بدا من أن يغض نظره ويتشاغل بالعبث بقلمه ... فهو الذى قد تخونه عينه ونظراته .. أما هذه المرأة ... فكل ما بدا منها عندئذ ضحكة ناعمة طويلة تموجت فى فضاء الحجرة مع الدخان المائج ... ختمتها بقولها :

— ما تنتظر لتخبرنى برأيك فيما قرأت ؟...

فتمسك بالهدوء وقال لها :

— ليس رأيي يا سيدتى هو الذى يجب أن تسألى عنه ... بل رأى زوجك !...

— زوجى ليس صاحب اختصاص فى هذا الأمر ... إنما هو اختصاصك !...

— اختصاصى ؟!...

قالها بلهجة الغارق فى لجة لغز أو أحجية ، وضحكت هى منه وقالت :

— أنسيت هكذا سريعا إنى كنت تلميذتك ؟... يجب أن تعلم ياأستاذى العزيز أن دروسك قد أثمرت !...

— أستغفر الله ... أستغفر الله !...

لفظ ذلك لا بلهجة التواضع ، بل فى صيحة الأسف والخجل ، والاحتجاج والذعر ... ولم تلق هى بالا إلى مقصده ، بل أنشأت تقول :

— ربما كان هذا غرورا منى ... نعم ... لا شك هو منتهى الغرور أن ألصق نفسى بك ، وأقرن عملى بعملك ، وأزعم أنى كتبت شيئا يستحق التفاتك ... إن ما قرأت ليس أكثر من محاولة قصصية ... لك أن تسميها ما شئت ولكن واجبى يقضى علىّ أن أعترف لك بالجميل ... فأنت على كل حال الذى حبب إلىّ الكتب ... ولقد أغرتنى المطالعة ، بعد ذلك ، بمعالجة الكتابة !... فكتبت كما ترى تلك الكراسة فى أوقات فراغى ... وقد اختفت للأسف قبل أن تتم ... وكان فى نيتى أن أقدمها عند تمامها ... وأن أتخذها ذريعة على الأقل لمعاودة رؤيتك ... وكنت على ثقة أنها ستشفع لى عندك ، وستقنعك بأنى كنت جادة يوم جئتك لتغرس فى نفسى حب الأدب ، وأنك ظلمتنى بإبعادى عنك ، وطردك إياى من جوارك ... وإنى — حتى بعد أن غادرتك احتراما لرغبتك — ظللت مقيمة على أن أمضى فيما وجهتنى إليه ، راجية أن ألقاك يوما بشىء يرضيك ، ويضطرك إلى الندم على سوء ظنك بى !... وقد شاء القدر أن يصل إليك عملى ناقصا من يد غير يدى ... وهذا لا يهم !... فالقيمة كلها عندى الآن هى فى اطلاعك على هذه الكراسة المتواضعة ... وإنى

مع اعتقادى بأن هذا المجهود البدائى لن يظفر برضاك الكامل ، أرانى مبتهجة على كل حال لهذه النتيجة ، منتظرة منك أن تبدى لى رأيك بكل صراحتك وقسوتك وخشونتك ، التى اعتدت أن تختص بها تلميذتك ، فما هو رأيك ؟... تكلم ؟... لماذا تنظر إلىّ هكذا ؟!...

الواقع أنه فوجئ مفاجأة ، فهذا كلام ما كان يتوقع سماعه ... هى إذن بريئة من الإثم ، وتلك الاعترافات المزعومة لم تكن سوى عمل أدبى خيالى ... اندك إذن صرح الاتهامات الموجهة إليها ، وانهار الأساس الذى بنيت عليه مهمته ، فهى لم تخن زوجها ، ولم تدنس شرفها بل إنها لم تخنه هو فى إيمانه بها ، ولم تلوث الصورة التى رسمها فى نفسه لها !... ليته إذن لم يتعجل فيمزق رسائله إليها !... وافرحتاه لو كان هذا الأمر صحيحا ... وظل يتفرس فى وجهها وكأنه يريد أن يخترق حجب نفسها ، وأخيرا قال لها فى صوت ، لا يتبين منه تصديق أو تكذيب ؟...

— اعترافاتك إذن لم تكن حقيقة ؟...

— لا ، بالتأكيد !...

— وذلك الممثل السينمائى ؟...

— لم أره قط فى حياتى !...

— شخصية وهمية ؟...

— بلا شك !...

— وكل تلك الحوادث والتفاصيل والوقائع ، هى من نسج قريحتك ؟...

ـــ طبعا !...

ـــ يا لها من قريحة خصبة !...

قالها على نحو لم تستطع أن تستشف منه مرماه ، ولم تدر أساخر هو أم جاد ؟!... وأرادت أن تكشف عن حقيقة قصده . فقالت :

ـــ ما أظنك كنت تعتقد أن لى قريحة روائية ؟...

ـــ أعترف أنى ما كنت أعتقد أنك بهذه البراعة !...

ـــ إنى مغتبطة ... حدثنى أيضا عن براعتى فى هذه القصة !...

ـــ بل فلنتحدث عما هو أهم ... فلنتحدث عن براعتك فى دفاعك !...

ـــ دفاعى !...

لفظتها فى شىء من التجهم والاحتجاج ... ولكنه مضى يقول :

ـــ الحق أنه دفاع بارع جدا ... دفاع ما كان يخطر لأحد على بال !... ولست أدرى كيف استطعت فى هذا الوقت القصير منذ أن حادثتك فى « التليفون » عصر اليوم ، وعلمت منى أنى مكلف بتلك المهمة الخطيرة من قبل زوجك ، أن تعدى دفاعك بهذه السرعة ، وبهذه المهارة ؟!...

يقولون إنك ذكية ، وكنت أعرف ذلك من قبل ، ولكن لمست ذكاءك الساعة على صورة رائعة !... ثم طريقة تمثيلك للدور الذى أردت تمثيله ، والمرأة بطبعها ممثلة قديرة ، ولكنك تمتازين فى التمويه والكذب ، على ما أعهده فيك من قديم !... ولا أحسبك نسيت قولك لى ذات مرة

إنك تحبين الكذب كما تحبين « السينما ، والتنيس ، وسباق الخيل ، والكونكان » !...

ثقى أنى لسوء حظك قوى الذاكرة جدا ... خصوصا فيما يتعلق بك ، وبما سمعت منك ، وقرأت لك !...

وكان فى صوته شيء من الحرارة والعنف ، فلم تكره ذلك ، وصوبت إليه نظرة فتاكة ، وقالت :

— لا يدهشنى أن يكون هذا رأيك فى !...

فقال ، وهو يعبث بقلمه على ورقة :

— من واجبى أن أصارحك برأيى ... ولقد طلبت إلىّ الساعة هذه الصراحة ... وهأنذا أقدمها إليك خالصة ...

فقالت فى شبه تنهد :

— للأسف ... هذا رأيك فى دائما منذ زيارتى الأولى ... إنى سيئة الحظ معك ... هذا كل ما أستطيع أن أقول !...

— لا أظن أنى ظلمتك !... ربما كنت حقا قد أسأت فهمك ، وقدرتك أكثر من حقيقتك !...

ولفظ العبارة الأخيرة فى همس لا تسمعه ، ونظر بإحدى عينيه على الرغم منه إلى رزمة رسائله الممزقة فى السلة ، ثم رفع صوته قائلا لها :

— والآن يا سيدتى ... هل لى أن أسألك بدورى أن تصدقينى القول ... لا من أجلى ، بل من أجل زوجك فنحن حتى الساعة لم نتقدم خطوة نحو الغرض الذى اجتمعنا له الليلة !...

فاتخذت هيئة الجد فجأة ، وقالت بقوة :

ــ بل أنا التي يحق لها أن تسألك لماذا تكذبني ؟... وبأى حق يجوز لك أن تلصق بى مثل هذه التهمة الخطيرة ؟... وكيف تسوغ لنفسك أن تسمى تقريرى الحقيقة أنه دفاع بارع ؟... ما أظن زوجى قد أقامك نائبا عاما لتحقق معى وتفند أقوالى !... إذا كانت تلك هى المهمة التى كلفك بها ، أخبرنى حتى أفهم حقيقة الموقف !...

فنظر إليها مليا وهو هادئ هدوءا لم يكن ينتظره ، فهو قبل حضورها كان يخافها ، ويتوهم أنه لن يستطيع مواجهتها ، بغير أن يخفق قلبه ، ويتلعثم لسانه !... ذلك أنه كان لا يزال ــ على الرغم من كل شيء ــ يعيش مع طيفها . الذى تمثل فيه كل الصفات العليا التى ترفعه إلى طبقة المعبودات !... هذا الطيف هو الذى كان فى حقيقة الأمر يخافه ، ويقدر ضعفه وانخذاله فى حضرته !... أما هذه المرأة فقد كفاه مجيئها بلحمها ودمها وحديثها ، حتى يحس الاطمئنان والأمان ، ويدرك أنه سيد موقفه ، وقد بدأ ينسى الطيف ، ويتأمل الواقع !... ويدرس هذه المرأة فى كل عبارة تلفظها ، ويزن حقها وباطلها ومرامى لينها وثورتها ، إنه لم يعد يخشاها ... ولكن من المبالغة أن يزعم أنه فقد كل اهتمامه بها ... والاهتمام أحيانا كالرماد الساخن لنار كانت متأججة !... قد لا يخيف ، ولكن لا ينبغى أن يطرح من الحساب ، على أنه فى تلك اللحظة لم يكن يفكر فى غير مهمته ، وقد تلقى عنفها بابتسامة ، وقال :

ــ زوجك النبيل لم يقمنى نائبا عاما !... ولعله رأى من لطفه أن

يعفيني من هذا المنصب الشاق ، ولكنك أنت التى ألقت فى روعى أن صراحتى تسرها ، وأوهمتنى أنى حر فى أن أقف منها الموقف الذى أراه ، وقد رأيت أن أحكم عليك لا لك !... هذا كل ما فى الأمر !...

فهدأ صوتها ورق ، وكأنها آثرت أن تعود فتأخذ محاورها باللين ، وتكتسبه بالرفق والوداعة ، فقالت :

ـــ أتقسم أن ضميرك مستريح لهذا الحكم الذى أصدرته على ؟...

ـــ ضميرى مستريح !...

ـــ ألى أن أعرف على أى أساس بنيت حكمك ، يا سيدى القاضى ؟!...

ـــ على أساس تؤمن به كل امرأة ... على الإحساس !...

ـــ الإحساس !!...

ـــ نعم ... الإحساس ، وهو أساس لا يكفى وحده لإقامة العدالة فى المحاكم ، ولكنه عندى فى مثل حالتك يكفى كل الكفاية !... إن إحساسى وأنا أصغى إلى دفاعك الساعة ـــ واسمحى لى مرة أخيرة أن أسميه دفاعا ـــ هو غير إحساسى وأنا أقرأ اعترافاتك ... إنى لم أهتز لكلمة من كلماتك الآن ... وأنت ماثلة أمامى بشخصك نابضا ، والحديث يتدفق من فمك حارا ، ولكن كل حرف قرأته فى كراستك كان يقف له شعر رأسى ... إنها تفاصيل لا يمكن أن تكون ملفقة ... إنها الحقيقة قد قلتها أنت بحذافيرها ... إنها وقائع قد عشتها بكل دقائقها ... إنه الصدق كله قد أودعته تلك الصفحات المروعة !... إن المسكين زوجك كاد يجن وهو

يطالعها ولقد شاء لى أن أطالعها فى ليلة !... فكانت ليلة !... أعنى أنى كدت أنا أيضا ... نعم ... لقد كانت شيئا فظيعا ... نعم ... إنها لا يمكن أن تكون غير حقيقة رويت بكل دقة ... كل سطر فيها ينطق ويصيح بشيء حدث بلا مراء !...

حقا يا لها من صفحات !... كيف تستطيع امرأة أن تعرض كل هذا على الورق ؟...

قال ذلك وأطرق كأنه يخاطب نفسه ... ونظرت إليه الزوجة لحظة صامتة ، ثم قالت :

ـــ ليس هذا بالدليل الكافى ... لماذا لا تقول إنها موهبتى ؟!... أليس من الكتاب من يلبس الخيال ثوب الحقيقة ؟...

ـــ هذا هراء !... إن الكاتب قد يتخيل حوادث ، ويلفق وقائع !... ولكن المشاعر والإحساسات لا تخترع ولا تلفق ، فهى لا بد أن تنبع من الصدق القراح ، وتصدر عن نفس تشعر بها حقيقة ، وتنبعث عن قلب ينبض بها حية ، ويحسها فعلا طبيعية ، كأنها جزء من كيانه الداخلى ...

فإذا سلمنا معك بأن حوادثك مخترعة ، ووقائعك متخيلة ، فماذا تقولين فى مشاعرك العميقة ، التى بدا منها ميولك الدفينة للمغامرات الغرامية العنيفة ، على هذه الصورة المحمومة التى أودعتها صفحاتك ؟...

فابتسمت لقوله ، ثم قالت :

ـــ وهل كنت تنتظر من امرأة أن تكتب فى موضوع غير هذا !... إن المغامرات الغرامية هى حلم كل امرأة !...

— كل امرأة على طرازك !...

— بل كل امرأة إطلاقا ، ما دامت جميلة وفى إمكانها أن تسحر رجلا ، وكذب من قال لك غير هذا ، وإنى أعرف نساء كثيرات ، وعددا لا يحصى من الزوجات لا حديث لهن اليوم فيما بينهن إلا هذا النوع من المغامرات !... إن الزمن قد تغير ، وأنت فى عزلتك ، بين كتبك ، لا تعرف ما يحدث فى المجتمع ... وأغلب من أعرف من الأسر والبيوت تجرى فيها أشياء لا أدرى ماذا تقول فيها ، لو اطلعت عليها ؟... ثق أنه من النادر الآن أن تجد الزوجة التى لا يكون لها إلى جانب زوجها صديق أو خليل ، أو مجرد أنيس ، ما دامت قد استطاعت أن تحصل عليه فهى لن تتردد ... اطرح من حسابك تلك التى لا تستطيع !... لقد أصبح اليوم مما يمس كرامة المرأة الجميلة أن يقال : إنها عاطلة من المعجبين ، وإنهن ليتباهين أحيانا فيما بينهن بعددهم ، ويتبارين فى اكتساب أجملهم وأشهرهم وأغناهم ... إنى أعرف صديقة متزوجة ، تفخر بأنها تملك أثمن مجموعة من المحبين.... مجموعة يمثل كل رجل فيها ما تشتهيه المرأة من صفة : فلديها الثرى ، ولديها الشاب الوسيم ، ولديها صاحب الاسم والجاه ولديها صاحب النكتة والظرف !... وكل واحد من هؤلاء يظن أنها له وحده ... ولكن الحقيقة أنهم هم كلهم لها وحدها !... كل هذا يحدث ، وأخشى ألا تصدقنى إذا قلت لك : إن هذا يكاد يأخذ مجرى الحياة العادية فى كثير من البيوت والأسر ، دون أن يقع ما يعكر صفو الزوجية ، أو يحطم ذلك الرباط المقدس !...

إنى لم أسمع حتى الآن فى محيط صديقاتى بحادث طلاق أو انفصال ، من أجل سبب كهذا بالطبع !... كثير من أولئك الأزواج لا يعلمون كل شىء عن زوجاتهم ... ولكن العواقب على كل حال سليمة ... والعواصف التى تهب على الحياة الزوجية قليلة ، لذلك أرجو منك أن لا تسرف فى لومى ، على تلك الصورة التى رسمتها للزوجة الحديثة !... ولو كنت فى مكانك لذهبت من فورى إلى زوجى ، ونصحته بألا يبالغ هو الآخر ... وإنى آمل أن تصنع ذلك لا من أجلى ولا من أجل زوجى ، بل من أجل حياتى الزوجية وطفلتى ... فإنه لمن الحمق أن نحطمها ، ونشقى ثمرتها لسبب كهذا ... هل أنتظر منك أن تقف هذا الموقف ؟... إنى مصغية إلى إجابتك !... تكلم !... لماذا تنظر إلىّ هكذا ؟...

الواقع أنه كان ينظر إليها مشدوها ... هذا ليس تمثيلا إنه اعتقاد !... إنها طبيعتها ... إنها تتفوه بهذا الكلام ، وكأنها تنطق بأشياء عادية مما تجرى به الألسن دون جدال ... أشياء بديهية لا يقف عندها التفكير ... ترى هل ألغيت مبادئ الأخلاق فى هذا المجتمع ؟!... وحذفت كلمات الفضيلة والعفة والحياء من القواميس المعمول بها دون أن يدرى ؟... ولبثت تنتظر رده ، وهى تخرج من حقيبة يدها صندوق مسحوق « البودرة » ، وإصبع الأحمر ، فتصبغ وجهها وشفتيها ... وهو يتأمل ذلك ، ويذكر يوم كانت زينة المرأة شيئا خفيا ، يتم فى حجرة مغلقة .

فإذا هو اليوم عمل علنى تجريه فى كل مكان تحت أنظار الرجال والسيجارة كانت لا تدخنها من النساء غير العاهر ، والخمر لا يحتسيها غير

المومس !... فإذا حرائر النساء يدخن ويسكرن علانية فى السهرات والمجتمعات والحفلات !... كذلك كلمة الخليل أو العشيق كانت تلفظها المرأة قديما هامسة بين طيات الحجب ، وكأنما تلفظ إثما ... فلا عجب ، ما دام كل شيء يتطور ، إذا تحدثت النساء اليوم عن العشاق المعجبين بملء أفواههن أمام الناس ، كأنما يتحدثن عن أثوابهم ، ويشدن بأحاديث المغامرة بالبساطة التى يدخن بها « سيجارة » ، ويصفن حوادث الغواية بالعناية التى يطلين بها الشفاه ... كل هذا طبيعى عندهن الآن فلا فائدة من المناقشة !... ولكنها ترمقه بعينيها تنتظر كلامه ... ماذا تريد منه بعد ذلك على وجه الدقة ؟... فالتفت إليها أخيرا ، قائلا :

— لم أفهم بالتحديد ، ماذا تنتظرين منى يا سيدتى ؟

فقالت بكل هدوء :

— أنتظر منك يا سيدى القاضى ألا تكون جلادا ، بل تكون قاضى صلح !...

— صلح ؟!...

لفظها فى مزيج من الدهشة والارتياع والسخرية ...

فلم تخرج عن هدوئها ، وقالت مبتسمة :

— ولم لا ؟... ألا يسرك أن يتم بينى وبين زوجى كل تفاهم وصفاء ؟...

فقال بشيء من التردد :

— بالطبع يسرنى ذلك ... ولكن ؟...

— ولكن ماذا ؟... إنها خير خدمة تقدمها للطرفين ... ومن يدرى ؟!... ربما كانت هذه هى المهمة التى كلفت بها ...

— على النقيض !...

— أكانت مهمتك إذن إشعال نار الخصام فى بيتنا ؟...

— لا يا سيدتى ... بل مجرد تبليغك طلبات زوجك !...

— ما هى طلباته ؟... الانفصال طبعا ...

— الطلاق بغير ضجة ... وتسليمه الطفلة ...

— هذا ما توقعت بالضبط ، فأنا أعرف زوجى ... تلك هى حلوله الهادئة العاقلة الرزينة ... لكن ... إذا احتكمنا إلى فكرك أنت ... فكرك العميق المتسع ... ألا ترى خيرا من كل هذا أن نرم عشنا المتصدع ، وأن ننشئ ابنتنا فى حجرنا ؟...

— لست مكلفا بمهمة التحكيم ، بل بمهمة التبليغ .

فسكتت قليلا ... ثم قالت :

— لقد قمت بمهمة التبليغ من قبل زوجى ، فهل لديك مانع من أن تقوم كذلك بمهمة التبليغ من قبلى ، فتخبر زوجى بكل ما أخبرتك به الآن ؟... أى بذلك الذى سميته أنت دفاعا ... قل له : إنى أرفض اتهامى بالخيانة ... وإن الكراسة ليست سوى قصة خيالية !... أتتفضل بتبليغه ذلك ، وإخبارى بالنتيجة ؟...

فتفكر « راهب الفكر » لحظة ... ثم قال :

— ليس لدى ما يمنع من تبليغه ذلك !...

فقالت ، وهى تنهض للانصراف :

— لن أطمع فى أن تقف إلى جانبى ، وتعرض الأمر بما فيه مصلحتى ؛ فأنا ما زلت أعتقد فى سوء حظى معك !... إنى لم أظفر قط يوما بقليل من عطفك ، ولكنى أنتظر منك على كل حالا ألا تؤذينى بكلمة تلقيها ضدى !... كن على الحياد التام على الأقل ...

— لك ذلك !...

١٤

الزوجـة المثلى

ذهب « راهب الفكر » فى اليوم التالى إلى « حلوان » ليعرض على الزوج أقوال الزوجة ، وتلقاه الزوج هاشا له ، معجبا بنشاطه ، مقدرا لعنايته بإنهاء الموضوع فى هذا الزمن اليسير ، ولكنه لم يكد يجلس إلى القادم ويصغى إلى ما جاء به ، حتى أطرق مليا وقد صدمته عواطف شتى سريعة !... فقد لاح له بصيص أمل خفق له قلبه ، غير أنه لم يكن أكثر من خطفة البرق فى ليل ملبد بالسحب برق أضاء جوانب نفسه لحظة ... ولكن ليكشف بعدها عن الحقيقة الواقعية ... وهى غيوم سوداء ، مكتل بعضها فوق بعض ، لقد كان لقولها إنها بريئة ، وإنها لم تكتب سوى صفحات وهمية بعض اللمعان المفاجئ !... ولكن الزوج ما لبث أن تذكر عبارات الكراسة التى يحفظها عن ظهر قلب ، فانقبضت نفسه من جديد ، وتلبد كل شىء فيها : هذا محال !... أهذا ممكن ؟... أهـذا معقول ؟... والتفت إلى « راهب الفكر » يقول بمرارة وعتاب :

ـــ أهكذا تذهب عنى أمس باليقين المريح ، لتعود إلى اليوم بالشك المؤلم ؟!... لقد كنت أرثى ـــ كما تعلم ـــ لابن خالى وما هو فيه من عذاب

الشك !... لقد حمدت الله أنى على يقين ، وأن أمرى ميسور الحل ... أهذا معقول ؟... ألا تراها تحاول تغطية موقفها ، وتبرئة نفسها ... أجبنى ... هل صدقت أنت هذا القول ؟... هل تستطيع حقا أن تصدقها ؟!... أخبرنى بالحقيقة ... بحقيقة شعورك ؟... ما رأيك فى قولها هذا ؟... إنى أريد الاستماع إلى رأيك !...

فلزم « راهب الفكر » الصمت لحظة ، ثم قال متوسلا :

— لى عندك رجاء ... لا تطلب رأيى ... تلك مسألة عائلية دقيقة ، لا يحسن بى أن أتدخل فيها برأى ... كل ما لى أن أفعل هو أن أقوم بينكما بدور الرسول أو السفير ... اجعلانى فقط واسطة اتصال بينكما ... لا أكثر !...

— أويصح أن تتركنى هكذا فريسة الشكوك !...

— إنى آسف ... فكر لنفسك ... وأصغ إلى صوت قلبك وإحساسك ... واقطع برأيك أنت وحدك ... ولا تضعنى موضع الحرج ... إنى لا أشك فى أنك تفهم دقة موقفى فى مسألة كهذه :

— فاهم ؟!...

لفظها بإذعان يستثير الشفقة ، وجعل يطرق ويفكر ، ويقلب فى رأسه الأمر على وجوهه ... ثم استوى ناهضا فجأة ، وهو يقول :

— لا تؤاخذنى !... انتظرنى لحظة !...

ومضى واختفى برهة ، ثم عاد يحمل الكراسة ، وجلس فى مكانه يقلب صفحاتها على غير هدى ، ويطالع فقرات من هنا وهناك ... ثم

صاح :

— وهذه حكاية وهمية ؟... أهذا كلام خيالى ؟... اسمع هذا ... اسمع أرجوك !...

وأخذ يتلو عليه قولها فى الكراسة :

« ... إن زوجى على الرغم من فتوره الحالى نحوى ، وقربه الذى لم يعد يثير فىّ أى نشوة قوية ، ما أساءنى قط يوما ، بل إنه ليعزنى ويودنى ، وفجأة بدا لى شبح عملى المخيف البشع ، ما سوف يحدثه له من آلام ، لو أنى أطعت هواى وهربت من بيتى ، أو قطعت صلاتى الزوجية بمثل هذه الفضيحة ، وتيقظت فى نفسى تلك اللحظة بقية ضمير وإخلاص ، فلم أقبل بحال أن أجعل زوجى وطفلتى ، ضحايا ضعف وأخطاء وعواطف ، هى عندى أقوى من أرادتى !...

ثم هنالك شىء آخر : لقد فكرت فى مصير تلك المرأة ، التى تذهب إلى رجل ، لتضع حياتها بين يديه ، دون أن يكون فى جيبها قرش !... حقا كيف أستطيع ، وأنا المجردة عن كل أموال خاصة ، إذا انفصلت عن أسرتى وترفعت عن مد يد السؤال إلى ثروة والدتى ، أن ألقى بعبئى على كاهل « ... » ، وأفرض عليه أمر معاشى وكسوتى وزينتى وترفى ؟... إن كرامتى لتأبى ذلك ، وإذا أرغمنى حبى وضعفى على التفريط فى هذه الكرامة ، فهل يطيق هو ؟...

لا ينبغى أن يضلنى الحب إلى هذا الحد ... وليس من الضرورى أن ينتهى الحب دائما بالهرب مع الحبيب ... وهو لا شك لم يخطر بباله قط

هدم عش الزوجية ، والانطلاق معه بعد قطع الرباط الرسمى المقدس ، لأنه يدرك عواقب ذلك ... وإن مثل هذه الفكرة وحدها كفيلة بإطفاء جذوة غرامه ، إنما الذى أراده ولا ريب بتلك العبارة التى لفظها ، ونحن فى نشوة الغرام ، أن أدبر وسيلة ، أو أخترع حجة للسفر معه بضعة أسابيع إلى فلسطين أو غيرها ، دون أن يفطن زوجى أو تنتبه أسرتى للباعث على هذه الغيبة !... ولكن هذا مستحيل !... ومهما أوتيت من سعة الحيلة ، فلن أجد الوسيلة ... حسبنا إذن هذا القدر من اللقاء !... ولا يجب أن نطمع فى أكثر منه ، وإلا تعرضنا لكارثة لا يحب كلانا أن تقع ... » .

هنا كف الزوج عن القراءة ، والتفت إلى « راهب الفكر » قائلا :

— أخبرنى كيف يكون هذا خيالا والأشخاص هم عين أشخاص الحقيقة : فالزوج والطفلة والزوجة ووالدتها ... كل أفراد أسرتنا هم بعينهم وظروفهم ... ولكن هذه السيدة العاشقة تريد أن تبرئ نفسها ، لأنه ليس فى مصلحتها ولا مصلحة غرامها أن تهدم عش الزوجية ... لهذه الأسباب التى كتبتها بخطها ، فهى لا بد لها أن تستبقى الزوج ، لتستبقى العشيق ... أمر واضح ... أما حجتها فهى واهية ، وما أظن أحدا يصدقها غير مغفل ، ولو أنى أحسب اليوم فى عداد المغفلين ... إلا أن ذلك حدث بغير إرادتى ... أما عملها على إدخال هذا الوهم علىّ وتصديقى له ، فهو إمعان منها فى الاستهانة بى ، وإساءة الظن بإدراكى ... وإنه لكثير علىّ أن أكون مغفلا مرة أخرى عن وعى

وإدراك ... لا يا سيدى ... اذهب إليها حالا من فضلك ، واستكتبها ورقة بتسليمى الطفلة ... وأقسم لها عنى بأنه لا أمل لها أبدا فى إعادة الحياة الزوجية ... حتى وإن ثبت صحة زعمها ... فأنا لا آمن على بنتى أن تربى فى كنف أم خطت بيدها هذا الكلام الشنيع !...

وطوى صفحات الكراسة بحركة عصبية ، وأراد أن ينهض فاستوقفه « راهب الفكر » قائلا :

— وإذا رفضت تسليم الطفلة ، وتمسكت بحقها الشرعى فى حضانتها ...

— ماذا تقول ؟...

— هذا بجرد فرض !... حتى أكون مستعدا لما يطرأ ...

— إذا رفضت ... أكد لها على أنى لن أتردد عندئذ فى أن أسلك الطريق الآخر ، الذى أردت أن أجنبها وأجنب الطفلة نتائجه ... طريق القضاء والفضيحة ... ولدى اعترافاتها مكتوبة أقدمها للتحقيق ، وما أظن — أو تظن هى — أن هنالك محكمة تحكم ببقاء الطفلة فى حضانتها بعد ذلك !...

فالأجدر بها إذن أن تفهم غايتى ، وتقدر عملى فى إنقاذ سمعتنا جميعا ... فالطلاق الهادئ ، وتسليمى الطفلة هو فى مصلحتها ومصلحتنا كلنا ، فخير لها ألا تثير أى إشكال ... هذا كل ما فى الأمر !...

وسكت وهو يسأل بنظراته « راهب الفكر » عما إذا كان يود الاستعلام عن شىء آخر ، فأجابه سلبا بإشارة إنجاز مهمته ، وقال وهو

يمد يده بالتحية :

ـــ وكيف حال ابن خالك ؟...

ـــ حاله سيئة !...

لفظها بقلق وحزن ، ثم مضى يقول :

مسألة ابنه الأصغر هى النكبة ... هذه الفكرة متسلطة عليه إلى درجة خطرة ... لقد غافلنى ، وذهب البارحة لينظر مرة أخرى فى وجه هذا الابن ، وعاد فى حالة مخيفة ... يؤكد لى أنه ليس ابنه ، وتدمع عينه وهو يحدثنى عن ذلك الطفل ، وقد سأله ببراءة وطهارة :

ـــ لماذا تنظر فى وجهى هكذا يا بابا ؟...

إنه لا يدرى ماذا يصنع !... وهل هو مخطئ أو مصيب ؟... وماذا يكون موقفه من هذا الابن غدا ؟... ثم من الزوجة ... إن هذا المسكين فى حالة مخيفة فعلا !... إنه لا ينام ولا يأكل . إنى أؤكد لك أنه لم تبق له أعصاب تحكم إرادته ...

وأطرق مهموما ، فشد « راهب الفكر » على يده مشجعا ، وحياه صامتا وانصرف عنه راجعا إلى مسكنه بالقاهرة ...

وفى ذلك اليوم طلب حضور الزوجة مرة أخرى ، ليعرض عليها قرار الزوج النهائى ، فجاءت فى المساء ، فأجلسها إلى المكتب ... وقبل أن تنطق بحرف قدم إليها قلما وورقة ، وقال لها بلهجة سريعة صارمة :

ـــ اكتبى !...

فالتفتت إليه دهشة :

— أكتب ماذا ؟...

— قبولك كل شروط الزوج ، منعا للفضيحة !...

فنظرت إليه مليا ، كمن يبحث فى سريرته ، وقالت :

— ألم يعد هنالك أمل ؟!...

فأجابها باقتضاب :

— مطلقا ... لا أمل ولا فائدة !...

— أخبرنى أولا ماذا حدث ؟... وماذا قلت له وماذا قال لك ؟...

فأخبرها بكل شىء ... وأعاد على مسمعها كل حرف فاه به زوجها ، وكل كلمة تلاها عليه من اعترافاتها ، وتفصيل رأيه وموقفه ، ومسلكه إذا قبلت ، ونواياه إذا رفضت ... ففكرت فى كل ذلك لحظة ... ثم أخرجت من حقيبة يدها صندوق سجائرها ، وتناولت سيجارة وأشعلتها بولاعتها ، ثم نفخت فى الهواء نفخة ، وقالت متأففة :

— يا لحمق الأزواج !...

وتعجب « راهب الفكر » لكلمتها ، فسألها بكل رفق :

— وما الذى بدا من حمق زوجك على الأقل ؟...

— عجبا !... أولا ترى حمق تصرفه ؟...

— وتصرفك ؟!...

فتنهدت تنهد اليائس وقالت ...

— لا حيلة لى فيك !... إنك دائما ضدى ... إنك لا ترى أبدا غير أخطائى أنا ، وعيوبى ، ولا تبصر سوى هفواتى أنا ، وذنوبى !... بماذا

أسأتك ؟... أخبرنى !... ماذا صنعت لك غير أنى حملت لك مودة و ... ومحبة لم تقدرها ولم تلتفت إليها !...

فأطرق « راهب الفكر » وقد أصابه شبه رعدة ولكنه قال فى الحال بصوت أجش :

ـــ إن زوجك يا سيدتى هو المعتدى عليه !...

ـــ وأنا لست معتدى عليها ؟... وهو الذى يريد أن يحرمنى بيتى وابنتى من أجل غيرة حمقاء ؟!...

ـــ أمن الحماقة أن يغار الزوج على شرفه ؟...

ـــ لا تتكلم هكذا !... يدهشنى أن أراك تتكلم هكذا كما يتكلم الرجعيون وأصحاب الأفكار القديمة !... الزمن قد تغير الآن ، والنظرة إلى هذه المسائل قد تطورت واتسعت !... والمبالغة فى تلك الأشياء لا تجدها إلا فى الطبقات السفلى !... إذ تسمع ، بين آن وآن ، أن زوجا ذبح زوجته أو أخته بسبب الغيرة أو الاشتباه فى السير والسلوك !... أما فى طبقاتنا الراقية فلا يصح أن نجعل من هذه التوافه مأساة بأى حال ... أنت رجل مفكر ، حر التفكير ... فكيف تنسى أن الحرية هى أساس كل شىء الآن ؟... والمرأة مثل الرجل مخلوق له حريته ، والزوجة لم تعد قطعة أثاث ، توضع فى حجرة مغلقة فى منزل الزوجية ، بل هى آدمية لها حق التنفس والحياة !... ولا بد أن تكون لها حريتها ، وأن تذكر دائما أن لها قلبا حرا ، قد خلق لينبض بالحب والكره ، وأن لها جسما حرا ، لا يملك إلا بإرادتها ورغبتها ، وأن الزواج لا ينبغى أن يفسر بأنه قيد يوضع فى عنق

المرأة إنها اليوم ترفض كل قيد ، حتى وإن كان من ذهب !...

فهز « راهب الفكر » رأسه ، وقال هامسا كالمخاطب نفسه :

ـــ الحمد لله !... إنى لم أتزوج !...

ولم تسمع الزوجة همسه ، فسألته :

ـــ ماذا تقول ؟...

ـــ لا شىء ... إنما أود أن ألفت نظرك إلى أن الزواج قبل كل شىء ، عقد من العقود ، لا قيد من القيود ـــ عقد بين طرفين لكل منهما حقوق ، وعلى كل منهما واجبات وقد أخذ رأيك فيه قبل إبرامه ، وقبلت أن تحترمى شروطه فما من أحد يقيدك بقيد ... ولكنك مطالبة بتنفيذ عقد !...

ـــ لا يا سيدى لا تغالطنى من فضلك !... لا فرق بين القيد والعقد إذا كانت الشروط تمس حرية الإنسان ، وأنت اليوم تسميه عقدا ، لأننا أرغمناكم على الاعتراف بحريتنا ، ولكنه فى الحقيقة قيد ، بل لقد كان قيدا ماديا فى يوم من الأيام ، إنى لم أزل أشعر بقشعريرة كلما تذكرت ما قرأناه فى كتاب التاريخ ، ونحن تلميذات فى مدرسة الراهبات الفرنسية ، عن زوجات الفرسان فى القرون الوسطى .

لقد كان الفارس من أولئك الفرسان النبلاء ، قبل ذهابه إلى الحرب يصنع لزوجته قيدا من الفولاذ ، له قفل ومفتاح يقيد به الجزء السفلى من جسم زوجته ، ويطلقون على هذا القيد « حزام العفة » ويظل مغلقا على هذه المواضع من بدن الزوجة المسكينة ، حتى يعود الزوج من حربه بعد مدة طويلة ... فيخرج مفتاحه ويحل القيد ويحرر جسم امرأته ... ماذا

تسمي هذه الزوجية ؟... أهي عقد أم قيد ؟...

ــ حقا إن الأزواج لحمقى !... كما قلت أنت الساعة بالضبط !... كيف فرطوا فى استخدام هذا « الحزام » فى العصور الحديثة ؟!... إنه لحزام مدهش ... ما أحوج أكثر الأزواج إليه اليوم !... إنى لأعجب كيف لا يطالبون بصنعه وإحضاره مع « جهاز » كل عروس بدلا من « البار » الأمريكانى ، الذى لا يخلو منه أثاث فى قران حديث !...

فحملقت فيه بعينيها ... وقالت :

ــ أتمزح ؟... إنك لا شك تمزح !...

ــ بالطبع ، خذى قولى على أنه مزاح ... ما الفائدة ؟!... كل كلام غير قابل للتنفيذ هو بالضرورة نوع من المزاح !...

فقالت ، وهى تضحك :

ــ وإذا كان هذا قابلا للتنفيذ ؟...

ــ ما كان يقع فى غيبة زوجك الذى وقع !...

قالها طبعا فى سره ، ولزم الصمت ، فاستأنفت هى كلامها بغمزة من عينيها كلها مكر :

ــ أتحسب المرأة الحديثة من البلاهة ، بحيث لا تجد لذلك حلا إذا أرادت ؟... ثق أنها قديرة على أن تجعل لهذا الحزام أو القيد جملة مفاتيح !

ــ إنى مصدقك ، والعلم الحديث والصناعة الحديثة كفيلان بمساعدة المرأة الحديثة فى ذلك !...

فقالت ضاحكة :

ـــ ليس للزوج المحترم عندئذ إلا أن يستبدل القفل والمفتاح بختم من الشمع الأحمر ، عليه توقيعه الكريم ، لتكمل المهزلة !...

ـــ اطمئنى !... لا أرى فى نية الرجال فى عصرنا الحاضر أن يقوموا بمهازل من هذا الطراز !... ولقد نزلوا فيما أرى عن جميع الضمانات ، ولم يتركوا على نسائهم من رقيب غير ضمائرهن وحدها ، وأظن النتيجة مرضية جدا ...

فنظرت إليه لحظة ، ثم قالت :

ـــ لا أحب منك هذه السخرية ، كما لا أحب فيك عواطفك الجامدة ، ومشاعرك الرجعية ... أخبرنى !... ما دمنا نتكلم بمثل هذه الصراحة !... لماذا تستنكر أن يكون للمرأة حريتها فى الحب ، وهو كل شيء فى حياتها ؟...

ـــ تقصدين حريتها فى حب من تشاء كما تهوى ؟...

ـــ شيئا كهذا !...

ـــ لا لزوم بالضرورة للكلام من الناحية الأخلاقية ، فأنا لا أحب مطلقا أن أعطى أحدا دروسا فى الأخلاق !... فهى ثقيلة لا يحتملها أكثر الناس ـــ وأنت منهم ولا شك ـــ ولا أذكر الفضيلة والرذيلة ، والعفة والحياء ، فهى ألفاظ فقدت اليوم معناها ، ولم تعد تصلح إلا للاستخفاف والتندر فى المجالس والمجتمعات !... ولكنى أقول لك باختصار :

ـــ إن المرأة إذا كانت لم تتزوج بعد فهى حرة ، تحب من تشاء وتغازل من تشاء ، ولكن عليها أن تلتفت إلى هذا الأمر البسيط : وهو أن الذى

يحطم قواعد المجتمع ، لا بد للمجتمع أن يحطمه !...

— ثق أن مجتمعنا العصرى اليوم لا يحطم أحدا ...

— تلك مسألة لا أتدخل فيها ، وهى متروكة لفطنة المرأة وحكمة المجتمع ، فإذا وجدت المرأة أو الفتاة أنها على الرغم من حريتها الكاملة وانطلاقها الجامح ، لا زال المجتمع يحتفظ لها بمكانها المحترم ، ويرشحها للزواج المرتجى ، — فهذا وضع ... وأما أنها ترى المجتمع قد أسقطها من قائمة « الفضليات » ، ونفر منها طلاب الزواج ... وسلم لها بالحرية ، وحكم عليها بالتشرد ، — فهذا وضع آخر ... إن صاحب الأمر والنهى فى سلوك المرأة غير المتزوجة هو المجتمع وحده !... إنه القيم عليها ... لا أهلها ، ولا نصحاؤها ... فهى قد تحررت اليوم — كما تقولين — من سيطرة كل إنسان ، ولن يحد من جموحها أحد غير حيطان المجتمع ، هى التى تصدها وتوقفها ، لترى مكانها بين الأمكنة ... المجتمع هو الذى يتولى الآن سلطة الولاية ، وهو الذى يمنح الثواب ويوقع العقاب ، ويشتد أو يتسامح ، ويدمغ المرأة أو الفتاة بطابع السمعة الطيبة والاسم الحسن ، أو يكتب على جبينها بأصبع صبغة الأحمر التى تخلط بها شفتيها :

« إنى غير مسئول عن هذه !... » .

— تلك هى المرأة الطليقة ... والمرأة المتزوجة ؟.

— المرأة المتزوجة قد أبرمت عقدا ، كما قلت لك ، وقد تعهدت فيه بالحب لزوجها والوفاء له ... ولا بد أن تفى بوعدها !... المرأة اليوم تكثر من الكلام عن الحرية !... إن الحرية الحقيقية هى فى احترام العقود لا فى

الإخلال بها ...

ــ ما من عقد ــ كما قلت لك ــ يستطيع أن يتحكم فى قلبى ومشاعرى !... إنى أحب زوجى وقت العقد ، ولكن من يضمن لى أنى أقيم على حبه بعد ذلك ؟... ما قيمة العقود التى تبنى على عواطف الإنسان المتغيرة ؟...

ــ إذا تغيرت عواطفك فغيرى العقد !... اذهبى إلى زوجك ، وقولى له بكل هدوء :

.. إن عواطفى قد اتجهت إلى شخص آخر ، ولم يعد فى استطاعتى القيام بتعهداتى فى الوفاء لك منذ اليوم !... والأمانة تقتضينى أن أطلب إليك الطلاق ، ولقد حافظت على اسمك وشرفك حتى هذه اللحظة !...

هذا ما يجب أن تفعله المرأة إذا وثقت من صدق عواطفها ، ولم تكن هازئة ولا مغامرة ولا ضعيفة عن صد شهوة عابرة ... ولكن المرأة تريد أن تأخذ من الزوج اسمه وماله وبيته ، لتجعل من ذلك كله إطارا براقا لخيانتها !... إنها تريد أن تدخل الغش فى العش ، والتدليس فى العقد ، هذا العقد القائم فى الحقيقة على وجود كل من الطرفين ... الزوج عليه الكفاح فى سبيل اللقمة ، أو فى سبيل رفاهية الزوجة !... والزوجة عليها الكفاح ــ على الأقل ــ ضد نزعات نفسها ، ثم إنفاق موارد الزوج فى معاشهما المشترك ، فلماذا تريد الزوجة أن تختلس مال الزوج ، كى تتزين به لرجل آخر !... لماذا يشقى الزوج من أجل امرأة تخونه مع رجل لم يشق من أجلها ؟... تهزئين بحزام العفة ، وبأولئك الفرسان النبلاء ، ولا ترثين لهم

وهم يذهبون لبذل أرواحهم فى الحروب دفاعا عن بيوتهم وزوجاتهم ، ليعودوا فيجدوا هاته الزوجات قد بذلن عرضهن لمن لم يسفك من أجلهن قطرة دم ؟!... لماذا يحلو للزوجة دائما أن تجعل من زوجها ثورا ، يدور ويكد ويكدح فى ساقية الحياة ، ليروى ظمأ ملذاتها ؟!...

— يا له من دفاع مجيد عن حقوق الزوج !...

قالتها باسمة ، وهى تشعل سيجارة ، فقال :

— بل دفاع عن حقوق الطرفين !...

— ولماذا لم تتكلم بهذه الحماسة عن خيانة الأزواج .

— إنى لم أبح للزوج أن يخون زوجته !...

— وإذا خانها ، أليس لها الحق أن تخونه ؟...

— لا ...

— النغمة القديمة التى نسمعها من الرجال !... تبيحون لأنفسكم ما تحرمون علينا لأنكم أنتم السادة ونحن الإماء !...

— بل لأن الرجل هو الذى يعرق ، والمرأة هى التى تنفق !... اكدحى كما يكدح زوجك واعرق كما يعرق ، فإذا تساويتما فى التضحيات تساويتما فى الحقوق ... لا أقول إن الرجل يجب أن يخون ، ولكنه إذا خان خان من ماله !... ولكن الزوجة تخون من مال زوجها ...

ثم هنالك شىء آخر ... هو النسل ... فالزوج يخون ، ولا يدخل على زوجته نسلا مدلسا ... أما الزوجة فإذا خانت أدخلت على زوجها نسلا

ليس من صلبه !... لن تكون هنالك مساواة مطلقة بينكن وبين الرجال فى هذا الإثم ، إلا إذا تطور الزمن تطورا آخر ، فرأينا الزوجة تناضل فى الحياة ، وتكتسب بالقدر الذى يربحه الزوج !... ثم يستطاع بواسطة العلم أو بغيره من الوسائل أن يفرز للزوج نسله عن نسل غيره بغير وقوع فى شك أو ارتياب ، إلى أن يتم ذلك ، فلا تتحدثن عن المساواة فى الخيانة !...

— إذا حدث ذلك فلن تكون هنالك زوجية ، ولن يكون لها محل على الإطلاق !...

— ولن يكون للخيانة عندكن لذة ولا طعم ، إذ لن يكون الزوج ضحيتها !...

— يا لك من خبيث !...

لفظتها فى ضحكة ناعمة ، أخفت ما فيها من كلفة مرفوعة بينها وبينه فى الحديث للمرة الأولى !... ولم يلحظ هو ذلك ، فقد رأى الوقت يمضى ولم ينجز بعد شيئا من المهمة ، وبحث عن القلم والورقة بعينيه ، ثم قال لها بلهجة الجد :

— هلمى اكتبى !... لقد تكلمنا بصراحة أكثر مما يجوز !...

فلم تلتفت إلى القلم والورق ، بل نظرت إليه قائلة :

— على العكس !... إنى فرحة بهذه الصراحة بيننا فى الكلام !... إنى أشعر براحة كبرى ، وأنت تحادثنى بغير تحفظ ، وأحادثك بغير كلفة ...

— إذن أريحينى أنا أيضا ، واكتبى !...

فتنبهت للأمر ، وصاحت :

ــ أكتب ماذا ؟... أحقا تظن أنى امرأة خائنة ؟!...

فكتم نفاد صبره ، وقال :

ــ من قال لك إنى أظن ذلك ؟!... ليس من حقى أن أحكم عليك ولا لك ، ولكن واجبى أن أدعوك إلى تحقيق طلب زوجك الذى لن يرجع فيه ، وإذا كان لك بى بعض الثقة فاعلمى أن ما رأيت من زوجك يقطع بأن أى حياة زوجية بينكما لم تعد ممكنة !...

فتأملت قوله لحظة ، ثم قالت بنبرة إخلاص :

ــ ولكن !... ولكنى لا أكره زوجى !... إنى على الرغم من كل شيء أحمل له دائما كل احترام ، وكثيرا من التقدير والمودة !...

ــ ليس عندى شك فى ذلك !...

ــ إنه يغالى !... إنكم تبالغون فى النظر إلى ما وقع منى كأنها مأساة كبرى ، إنها لم تخرج عن كونها عواطف لا تضر أحدا ، كان من طيشى أن دونتها ... ومن سوء طالعى أن وقعت فى يده ... وهذه ليست أول حماقة تأتيها زوجة ... إن من بين صديقاتى المتزوجات سيدة ولعت بالمقامرة إلى حد أنساها بيتها وزوجها وأولادها ، فهى ليل نهار مكبة على المائدة تلعب « البوكر الأمريكانى » ، وهو اليوم آخر بدعة فى السهرات مع أنه أخطر من « البكاراه » !... وقد استنفد مالها ، وأضاعت كل ما وصل إلى كفها فى اللعب ، حتى باعت أوانى المنزل الفضية لتلعب بها ، وزوجها ينظر إلى كل هذا ويضرب كفا على كف ... ولكنه لم يفكر فى طلاق

أو فراق ، وقد يكون عذرها وفهمها ... وأدرك أن هذا أقوى من إرادتها ... ولا بد أنه سامحها أو سيسامحها يوما من الأيام ... يجب أن يتسع صدر الزوج لهفوات الزوجة ، هبنى أخطأت !... ألن يأتى اليوم الذى أندم فيه ؟... ألا تذكر « تاييس » ؟... أنسيت أنك أعطيتنى يوما كتاب « تاييس » ، لأطالعه ؟... لقد طالعته وعلمت أن هذه المرأة التى قضت حياتها فى الدعارة قد انقلبت فى آخر حياتها قديسة !... وقد غفر الله لها وقبل منها التوبة ... لماذا لا تتاح لى أنا أيضا الفرصة التى أتيحت « لتاييس » على الأقل ؟... أجبنى ولا تكن قاسيا علىّ !... أرجوك !...

فنظر إليها مفكرا فى الجواب ، ثم قال :

ــ «تاييس» لم تكن لها طفلة، ولم يكن لها زوج... وثقى أن زوجك ــ على الرغم من كل شيء ــ يحترم فيك زوجته التى أعزها ووثق بها ، وأقسم أنه ما من مرة ذكرك أمامى ، وهو يروى لى قصتك إلا قال عنك « هذه السيدة » ... ولم ينسب إليك أى وصف محقر ، حتى فى أشد ثورات غضبه !... إنه رجل مهذب بكل ما فى هذه الكلمة من معان ، وهو زوج كامل حقا ... لكن ... كل ما فى الأمر أنه يرى ــ بصفته أبا لطفلة ــ أن من واجبه أن ينشئها نشأة أخرى ، على مبادئ غير مبادئك ... وأظن هذا من حقه ، بل هو واجبه المحتم عليه أمام ابنته ، فمن هذا ترين أنك وأنت الزوجة لا تملكين أن تكونى مثل « تاييس » الطليقة ...

فأطرقت برهة ... ثم رفعت رأسها بقوة انتثر لها شعرها الجميل ،

وجعلت تقول :

ــ هذا فظيع ، ذلك الذى أسمعه منك ، حتى التوبة لا تريدون أن تقبلوها منى !... ولكن أنت المسئول منذ اليوم الأول ...

ففتح « راهب الفكر » فاه دهشة ، وقال :

ــ أنا المسئول عن ماذا ؟...

ــ إنى يوم جئتك هنا ــ منذ أكثر من عام ــ لم يكن ذلك للأدب ولا للكتب ، بل لأنى كنت فى أزمة نفسية شديدة ، لقد كان مضى على زواجى نحو سنتين ... وبدأت أحس شيئا من خيبة الأمل ... أو من الفتور الذى يعترى الحياة الزوجية ... إنى كنت دائما قبل الزواج فتاة ثائرة النفس محبة للحياة الدافقة الحارة ... شديدة الفضول لكل جديد ... أمقت الوتيرة الواحدة فى كل شىء : فى الحديث ، وفى المعارف ، وفى المشاعر ، وحتى فى الحب !... إن الحياة كان معناها عندى الحركة ، لأن الموت هو الخمود ... حركة العواطف الدائمة كحركة الجسم الدائمة ... تلك هى الحياة ، ولكن الزواج ليس إلا الجمود والركود فى صورة علاقة باردة بين خطيبين محبين انقلبا صديقين فاترين ... لقد فسر لى هذا ما كنت أسمعه عن كثيرات ممن تزوجن زواجا موفقا حسدن عليه ، ومع ذلك كن يبحثن سرا عن خليل أو عشيق أو حتى عن مجرد صديق يشعرن بقربه أنهن مع رجل غير الزوج !... إن الزوج لم يعد يوحى إلينا بأنه رجل ... إنه يوحى إلينا باحترامه ومحبته ومودته والرحمة به ... إنه كالأخ وابن العم القريب العزيز ... ولكنه ليس

الرجل ... أى ليس ذلك الشخص الغريب الذى يدفعنا الفضول إلى معرفته ، ويثير فينا لقاؤه تلك المشاعر الغامضة اللذيذة ، وينبه فينا غريزة حب التزين والفتنة وانتزاع الإعجاب ... ذلك كان إحساسى بعد عام من الزواج ... وكنت قد سمعت بك كثيرا من زوجى إطراء منه لكتاباتك ... ففكرت فى لقائك وذهبت إليك كما تعلم ... ولكن للأسف لم تفتح لى صدرك ونفسك ، ولم تأخذ بيدى فى أزمة قلبى ... وتركتنى للعواصف والأنواء !... إنك لم تفهم وكفى ... ولم ترد أن تفهم !...

فاختلج قلب « راهب الفكر » وأطرق حتى لا تلمح فى وجهه شيئا ، ثم تماسك وأمسك بالقلم والورقة ، وقال :

— سامحينى يا سيدتى !... هنالك أشياء سأعيش وأموت ولا أفهمها ... والآن هل تتكرمين ؟...

فنظرت إلى الورقة والقلم وهو يدنيهما منها ، وقالت بعد تردد :

— إنى ... إنى لم أفقد كل أمل بعد ...

قالتها ونهضت لتنصرف ، فقال لها فى قلق :

— ماذا أنت صانعة ؟...

فأجابت فى ابتسامة مبهمة :

— لن أقول لك الآن ... إذا خاب سلاحى الأخير فإنى سأحضر لأخبرك ...

وانصرفت قبل أن تسمع منه جوابا !...

١٥

المعـركة

مضى يوم و« راهب الفكر » ينتظر صامتا ، لا يدرى ما يفعل ، وقد وضعته الزوجة فى هذا الموقف المحير ولكن انتظاره لم يطل ، إذ ما جاء ظهر اليوم حتى دق جرس تليفونه ، وإذا هو الزوج يخاطبه بصوت الغاضب ويخبره أن الزوجة قد عرفت مكانه فى « حلوان » ، وأنها ذهبت إليه ضحى اليوم باكية ، فاستقبلها كما يستقبل سيدة أجنبية ما سبق له أن رآها ... وأجلسها فى بهو الفندق بأدب ، ولم يتح لها أى فرصة للكلام فى أى موضوع خاص ، ولم يبد لها قط أنه فطن إلى دموعها ، أو حفل بها ، أو اهتم بسببها ...

ثم استأذنها بعد أقل من دقيقة ، معتذرا لها بعمل يستوجب ذهابه ، وانصرف تاركا لها الفندق ... على ألا يعود إليه إلا ليأخذ أمتعته ، ويقيم فى جهة أخرى مجهولة ، ولن يخبر بمقره الجديد أحدا حتى يصفى كل ما بينه وبينها ...

ورجا صاحبه أن يسرع بكل الطرق إلى إنهاء هذا الموضوع بالحسنى قبل أن ينفد صبره فيلجأ إلى الوسائل الأخرى المعروفة ، مع ما فيها من

صخب وعنف وسوء عاقبة !... وانتهت المحادثة بينهما ، ووضع « راهب الفكر » السماعة وهو متردد ، فيما يقدم عليه : أيطلبها كالمعتاد بالتليفون ، ويسألها الحضور ، أم ينتظر حضورها من تلقاء نفسها كما وعدت ؟!...

مما لا ريب فيه أنها آتية على كل حال ، ومجيئها على هذا النحو خير من طلبها ، لأنها ستأتى لتتكلم هى ، لا لتصغى إلى ما يعرض عليها من مطالب ، فالأجدر به إذن أن يتركها حتى تأتى بقدمها ، كل ما يرجوه إلا تبطئ فى المجىء ، وهو يقدر أنها لن تبطئ بعد أن قوبلت تلك المقابلة الباردة الحاسمة من زوجها ، وقد صدق تقديره ، فما كاد الليل يجن حتى أقبلت ... لكن على أى صورة ... إنها لم تبد على حال كسيرة ، بل ظهرت براقة خلابة ، كقطعة من النور ، تتلألأ فى ظلام المساء !... ودخلت عليه الحجرة تخطر فى ثوب حريرى ، يبدى محاسن جسمها ، وقد سبقها عطرها، وكأنه يفتح لها عن بعد طريق الفتنة ... يا لقوة العطور !... لكأن المرأة — فى هجومها للسيطرة على الأفئدة — عرفت من قديم كيف تلجأ إلى الحرب الكيميائية !... ولم تجلس فى مقعدها ، بل دنت من مكتبه ، وبادرته قائلة :

— أين القلم والورقة ؟...

فلم يستطع إخفاء ارتياحه ، وصاح :

— أتكتبين ؟...

— نعم !... أيدهشك هذا التسليم السريع ؟...

ـ خاب سلاحك الأخير إذن ؟!...

ـ صدقت ، لم تعد أى حياة زوجية بينى وبينه ممكنة !

ـ رأيت بعينيك ؟!...

ـ كيف علمت ؟... هو الذى أخبرك طبعا أنى ذهبت إليه !...

ـ نعم !... أخبرنى بكل شيء !...

ـ نعم !... لا فائدة ... إنى منذ وقع نظرى عليه للوهلة الأولى أدركت أنى أمام رجل آخر !... ليس هو زوجى الذى أعرفه ... لقد أحسنست عندئذ أن كل شيء قد انتهى ... ومن الخير أن نطوى صفحة زواجنا بسلام !... إنه رجل مهذب حقا ولا أظنك سمعتنى أشكو يوما من خلقه !... لقد رأيت منه اليوم أنه يؤذيه ويجرحه أن يحادثنى فى مثل هذا الموضوع ... وأن كل ما يريد حقا هو البعد عنى ، بغير إثارة كلام !... فلا أقل من أن أريحه فى ذلك ، وألا أعارضه فى رغباته ... أما الطفلة فإنى واثقة أنه لن يحرمنى رؤيتها وقتما أريد ، لأن فكرة تعذيبى لن تخطر ببال مثله ، مهما يكن الحال ، فليكن له ما أراد !... وليذهب كل منا فى طريقه ... امل علىّ ما ينبغى أن أكتب !...

فأملى عليها الصيغة التى رآها تتفق مع مطالب الزوج ، ووقعت عليها بإمضائها ، وأخذ الورقة فطواها وحفظها فى ملف عنده !... واستقرت هى فى مقعدها ، وأخرجت سيجارة من حقيبة يدها ، وقالت باسمة ، وهى تتنفس :

ـــ الآن أنا حرة ... أصنع ما أشاء !...

ـــ طبعا !...

ـــ وأستطيع أن ألقى منذ الليلة من تحلو لى مقابلته ، وهأنذى قد تجملت كما ترى ، لأنى على موعد فى سهرة ستكون ولا شك لذيذة ممتعة !...

ـــ هنيئا لك يا سيدتى ...

قالها بنبرة لا يتبين منها مغزاها الحقيقى : أهو المجاملة ، أم السخرية أم الغيظ !... ورفعت هى أهدابها ببطء ناظرة إليه ، كأنها تحاول أن تفسر معنى عبارته ، ولكنها لم تستطع ، فقد أطرق وتشاغل بترتيب الأوراق فوق مكتبه ، ومضت هى تقول :

ـــ حقا ... ما أجمل الحرية !... إنى كنت حمقاء إذ حاولت التشبث بزواجى هذا ... لماذا لا أجرب حظى مرة أخرى ؟... إنى صغيرة السن ، ولست فيما أظن قبيحة المنظر ... ألا ترى ذلك ؟...

فرفع رأسه ونظر إليها متسائلا :

ـــ أرى ماذا ؟...

فلم تتراجع ، وقالت بجرأة :

ـــ ترى إذا كنت قبيحة أو جميلة ؟!...

فتمهل ثم قال دون أن يلتفت إليها :

ـــ ألم يحدثك فى ذلك أحد بعد ؟...

ـــ كل الناس ... إلا أنت ...

فأخذ يعبث بأوراق مكتبه ، ويقول :

ـــ يخيل إلىّ أنى أبديت فيك رأيا !...

ـــ نعم ... فى حمقى ، وجهلى ، وطيشى ، وسوء تصرفى !...

ـــ لقد أبديت إذن رأيى !...

ـــ فى ذلك ، نعم !... ولكن ... ولكنك لم تقل لى مرة واحدة إنى جميلة !...

ـــ رأيى فى هذا لا يعتد به كثيرا ...

ـــ عندى أنا يعتد به كثيرا ...

ـــ أشكرك على هذا التقدير المبالغ فيه !...

فنفخت دخان سيجارتها من فمها فى الهواء بحنق ، قائلة :

ـــ أعوذ بالله منك ... إنك فظيع ... فظيع ... هل تظن امرأة تستطيع أن تتحمل هذا ؟... أتصدق إذا قلت لك إنك الرجل الوحيد ممن صادفت ، الذى لم يخاطبنى فى الحب !... ولم يقل لى « أحبك » !... إنى أحيانا أكاد أنفجر غيظا منك ، ويخيل إلىّ أنك تهيننى وتجرح نفسى وتمس كرامتى ... وأتمنى لو أستطيع يوما أن أقتص منك ... لماذا لم تحبنى ؟... لماذا لم تعجب بى ؟... لماذا أنت وحدك تعاملنى هكذا ؟... ما الذى لم يعجبك فى شكلى وجسمى ؟... لطالما ألقيت على نفسى هذه الأسئلة ووددت لو أظفر بجواب !...

وأطرق « راهب الفكر » ... ومضى يعبث بقلمه فوق ورقة ويرسم عليها رسوما لا معنى لها ... وربما كان ذلك ليخفى بعض خلجات ،

مرت كالنسيم فوق شغاف قلبه ... ولكنه قال لها دون أن يلتفت إليها :

— ما كان يجب أن تشغلي بالك بسخافات كهذه !.

فنظرت إليه مليا ، كأنها تفحصه فحصا دقيقا ، وقالت :

— لا أستطيع أن أصدقك ... إن موقفك منى ليس طبيعيا ... إنى لأعجب كيف تسمى سخفا اهتمامى بك ... إنك ولا شك تزدرينى !... أعرف ذلك ولا أكابر فيه ... ولكن ... ولكن ذلك لا يمنع من أن تسر على الأقل لشعورى نحوك ... ربما كنت تخافنى أو تحسب أنى أحادثك اليوم هكذا لغرض آخر ... خصوصا فى ظروف الحاضرة ... ولك الحق فى هذا الظن ... فالظواهر كلها تؤيده !... لكن ثق أنه ما من غرض لى غير مصارحتك بكل ما يدور فى خاطرى !... إذ من التعسف حقا ألا نكون صريحين فى كل شيء ، وقد دخلت أنت فى شئونى الخاصة على هذا النحو !... اطرح من رأسك إذن أى غاية أخرى لى فيك !... لن أفكر فى الزواج منك مطلقا !... إنى أعلم أنك لن تتزوج بمثلى أبدا !... أليس كذلك ؟... ألم أعبر عن الحقيقة ؟!... تكلم !...

— الزواج منك شرف لا أستحقه ...

— أف !... لا تكن قاسيا فى التهكم بهذا المقدار !... أخبرنى لماذا لا تكون الآن باسما صافى النفس معى ، بعد أن رضخت لك ، ووقعت الورقة عن طيب خاطر ؟... إلا إذا كنت أنت أيضا تريد أن تقطع بى كل صلة أسوة بزوجى !... وهو موقف يخرجك عن حيادك العادل ... صارحني بحقيقة موقفك منى ؟...

— ثقى أنى لن أخرج على موقف الحياد أبدا !...

— إذن خاطبنى بلهجة الصداقة ، التى لا شك أنك تخاطب بها زوجى .

— ليس هنالك ما يدعونى إلى مخاطبتك بلهجة العداوة !...

فامتعضت لهذا الجواب الجاف !... ولكنها مضت فى حديثها اللين :

— فلنتحدث إذن كأصدقاء ، سأكشف لك عن كل خوالجى : أتدرى ما هو نوع الزوج الذى أحلم به ؟... هو نوع ليس من طراز زوجى ولا من طرازك !... إن السعادة الزوجية لا يمكن أن تتوفر لامرأة فى عصرنا الحديث ، إلا مع زوج باهت الشخصية ، قليل الذكاء ... لقد خبرت ذلك بنفسى ، وأحصيت بين كل معارفى عدد السعيدات الناعمات ، فى بحبوحة الحرية ، المتمتعات بالراحة العائلية ، فإذا هن المتزوجات برجال من ذلك الصنف المتوسط فى مواهبه ، المتواضع فى مداركه !... إن غلطتى الكبرى هى أنى وقعت فى نوع لا يصلح لامرأة مثلى ... ألست معى فى هذا الرأى ؟!...

— إنى من رأيك !...

— وأنت هل تسمح لى أن أسألك عن الطراز الذى يعجبك من المرأة ؟...

— قليلة الذكاء ، باهتة الشخصية !...

فضحكت بملء فيها ، حتى بدا لؤلؤ أسنانها يبرق فى ضوء الليل الشاحب ، فقد كانت الحجرة لا يضيئها وقتئذ غير مصباح المكتب

الكهربائى ، ورمته بنظرة ـــ سحرها لا يقاوم !... ومضت قائلة :

ـــ وتربيتها رجعية ؟...

ـــ مثلى !...

ـــ وشكلها ؟... حسناء ؟...

ـــ مثلك !...

ألقاها فى نغمة لا يعرف فيها جدها من هزلها !... وحاولت هى أن تكشف مراده لحظة ، ثم قالت :

ـــ آه ... لو لم أكن واثقة من أنك تسخر ، لعددت هذا أول اعتراف منك بأنى حسناء !...

ـــ وماذا يقدم هذا أو يؤخر ؟!...

فقالت بصوت مبتهج حلو :

ـــ إنه كسب عظيم لى ... لقد ظفرت على الأقل بإعجابك فى شىء ما !...

ـــ لا تبالغى يا سيدتى !...

فأخفت امتعاضها قائلة :

ـــ « يا سيدتى » !... دائما « يا سيدتى » بعد كل هذه المعرفة ، وكل هذه الصلة ، ما زلت تدعونى « يا سيدتى » !... متى إذن تقول لى « يا صديقتى » ؟...

ـــ « صديقتى » ؟!...

لفظها من فم بارد فاتر ، ولكن وقعها هبط فى مكان حار من قلبه

وذاكرته ... وتذكر رسائله وكراستها ، وكيف وردت هذه « الكلمة » فيما كتب هو ، وفيما كتبت هي ... وكيف عاشت هذه « الكلمة » حياتين مختلفتين ؟... إحداهما في سحبه ، والأخرى في أديمها ، فهز رأسه استهزاء بهذه « الكلمة » ، وبنفسه ، وبالجميلة التي بجواره ... ولزم الصمت ، وطال انتظارها لكلامه عبثا ، فقطعت هي صمته قائلة ، بصوتها الناعم :

— تستكثر عليّ صداقتك أيها البخيل ، وأنا التي كانت تنتظر أكثر من ذلك !...

— ماذا كنت تنتظرين أكثر من ذلك ؟...

— أن أكون لك على الأقل مثلما كانت « تاييس » للراهب « بافنوس » !...

— تاييس ؟!...

— لا أظنك نسيت أنه الكتاب الذي وضعته أنت في يدي ، يوم لقيتك ها هنا لأول مرة ... ثق أني قرأته بإمعان كلمة كلمة ، ورأيت كيف استطاعت « تاييس » أن تخلب لب الراهب ، وتجعله يخلع مسوحه ، ويهجر صومعته ، ويجري في أثرها كالمجنون ... إنها هي استطاعت ذلك ... أما أنا ؟... ومع ذلك فلقد طالما سألت نفسي :

— لماذا جعلتني أطالع هذا الكتاب بالذات ؟...

وصوبت إليه عينين أرغمتاه على الإطراق ... ولو كان هذا السؤال مفاجئا لما تمكن من إخفاء اضطرابه ... ولكن جنوحها بالحديث نحو هذه

الصخور ، كان قد بدرت بوادره منذ حضورها الليلة ... فلم يبد على وجهه تغير ... وقال مالكا زمام نفسه :

ـــ جعلتك تطالعينه لتعتبرى بنهاية تلك الغانية !...

فقالت ضاحكة ضحكتها الناعمة :

ـــ إنى اعتبرت ببدايتها ...

ـــ لست أنا المسئول إذن عن اختيارك !...

ـــ أوَ كنت تريد منى أن أكره بدايتها الباسمة وأحب نهايتها القاتمة ؟!...

ـــ نهايتها ليست قاتمة ، بل مضيئة بنور الفضيلة ... لقد كان جسمها محاطا بالدنس ، ولكن روحها كانت مرتفعة طاهرة ، كالزهرة البيضاء الناهضة بساقها فوق الطين !...

ـــ عجبا لك !... هذه تعرف كيف تلتمس لها الأعذار ، مع أنها كانت فى نظر الناس ساقطة !...

ـــ لا أهمية لذلك ... إن الساقطة تكون أحيانا فى رذيلتها ومباذلها أمام الناس ، ولكنها فى فضيلتها وطهارتها أمام الله !... والحرة أحيانا تكون فى رذيلتها ومبادئها أمام الله ، وفى فضيلتها وطهارتها أمام الناس !... « تاييس » كانت نقية أمام الله ، وهكذا حدثت لها الأعجوبة ، وانقلبت تلك التى كانت ساقطة فى نظر الجميع ، قديسة تتفتح لها أبواب السماء !...

ـــ ولكن الراهب « بافنوس » لم يحب فيها القديسة بل أحب المرأة !...

— نعم ... مع الأسف !...

— ما من رجل يحب فى المرأة غير المرأة !...

— هذا صحيح ، ولكن ذلك الراهب حقت عليه اللعنة . وفقد السماء إلى الأبد ، فقد سماءه التى أنفق حياته كلها يتطلع إليها !... إن لكل راهب سماءه !...

— أراك أنت قد اعتبرت جيدا بنهاية الراهب !...

— لقد أحسن صنعا ؟...

— لا !...

قالتها بشيء من التحدى ... فهز كتفيه ، وقال لها :

— هذا رأيك أنت ، وماذا كان ينتظر من مثلك ؟...

— كان ينتظر من مثلى أن تنصحك ، وأن تصارحك بالحقيقة وتقول لك : إن كل من يرفض الحب — عندما يأتى هو ذلك الذى حلت عليه الخيبة !... مضى عهد القديسين والأولياء الصالحين !... اخرج معى الآن إلى المجتمع الحاضر ، لتعرف فى أى عصر تعيش !... إنه ليدهشنى من رجل مفكر مثلك أنه ما زال يحيا مع شبح الأفكار الميتة ، وخرافات الكتب القديمة !...

— أعيش مع الشيء الباقى ... إن الأفكار لا تموت ...

فضحكت وقالت :

— بل لا شيء يموت مثل الأفكار ، إن لكل جيل أفكاره كما أن لكل عصر ثيابه ... إن الأفكار كورق الأشجار تتساقط فى كل خريف !...

أين هى الأفكار التى كانت حية منذ ألف عام ، بل منذ مائة ، بل منذ خمسين ؟!... ولكن القبلة هى القبلة ... لم تفقد حرارتها من ألف ألف عام ... بل منذ خلق الإنسان ؟!... والعناق هو العناق ، ما زال يثير فى الجسم والنفس عين الإحساس منذ مبدإ الأجيال !...

— تقارنين الكتب والأفكار بالقبل والعناق ؟!... يا لها من مقارنة جميلة !...

فابتسمت ابتسامة خلابة ، وقالت :

— ترى أيها الرابح فى نظرك بهذه المقارنة ؟!...

— لا محل فى نظرى للمقارنة على الإطلاق !...

— لسبب بسيط ، وهو أنك تجهل ما هى القبلة ؟...

— وهل خسرت بهذا الجهل شيئا كبيرا ؟!...

— خسرت كل شىء !...

— يا للطامة الكبرى !...

قالها فى نبرة استهزاء ... ولكنها مضت تقول بجد :

— هى بالفعل طامة كبرى ... لقد كنت مثلك إلى وقت قريب ، أحسب القبلة — وضع الشفاه على الشفاه — رمزا للحب !... أو معنى للوفاء !... لا ... إنها ليست رمزا ولا معنى ... إنها مادة حية بذاتها ، مجردة من كل معنى وكل رمز !... لا شىء حقا يفسد حيوية المادة غير تلك المعانى أو الرموز ، التى نلقيها عليها ونكتم بها أنفاسها ... المادة هى المادة بحرارتها المنبعثة من داخلها ، لا من المعانى التى تسبغ عليها !...

ـــ مصيبتك ـــ وصدقني فيما أقول ... مصيبتك الكبرى هى أنك ترى فى القبلة مادة باهتة ، مختنقة تحت غطاء معنى من المعانى ...

إنى فى زواجى كنت أجد القبلة هكذا ... ويوم وجدت من كشف لى هذا الغطاء عنها ، أحسست كأن ستارا قد رفع أمامى عن جنات من الإحساسات واللذات لم أر لها نظيرا ولا شبيها ، لا فى عالم الخيال ولا فى دنيا الأحلام !... إن تصورات المخيلة الذهنية لا تستطيع أن تطرق باب المشاعر الجسدية ، ولا أن تحيط بها إلا كما يحيط الهواء الخارجى بجدران إناء مختوم !... لعل هذا يفسر لك لماذا كتبت كراستى ؟... إنه كان طيشا منى حقا ... ولكنى لم أستطع مقاومة تلك الرغبة فى أن أسجل تلك اللحظات الأولى لمشاعرى الجديدة المستيقظة ... لقد شعرت ـــ وأنا أصفها على الورق ـــ كأنى أعيشها مرة أخرى ومرات !... ولقد أردت فعلا أن أعيشها مرة أخرى ومرات ... ثق أيها الصديق أن الدنيا كلها بأفكارها ، وفضائلها ، ورذائلها ، وعقائدها ، ومثلها العليا ومطامعها العظمى ، ـــ كل ذلك يذوب فى لحظة واحدة ... فى حرارة قبلة حقيقية !...

كانت تقول ذلك ، وشفتاها الرطبتان تهتزان ، كأنهما كرزتان توأمتان يهزهما النسيم فوق شجرة ، واختلس « راهب الفكر » إليها النظر : ورأى ذلك الجمال كله ، وتأمل تلك الكرزتين وما يمكن أن يكون فيهما من عسل ... وذلك البدن البض الغض اللدن ، وما يمكن أن يحدث لمسه من أثر ... لقد صدقت ... إن جسمها الذى أمامه لم يكن

عنده أكثر من جدار يضع عليه صورا من اختراع خياله ، ومعانى من ابتكار ذهنه !... أما الجدار ذاته فلم يلمسه ولم يعرف ما وراءه ؟... كيف استطاعت هى أن تقول هذا القول الصائب ؟... حقا ... إن رءوسنا بما تفرز من معان تغلف بها المادة ، لتقصينا بدون أن نشعر عن لمس حقائق الأشياء !... إنها المبارزة الدائمة بين المعنى والمبنى ، والفكر والجسد ، والروح والمادة ، كل منهما يريد أن يحجب الآخر ، فلا تبصر منه غير ظلال شاحبة ، فالفكر إذا طغى يفسر لنا الجسد بمعانيه ، والمادة إذا طغت تفسر لنا الروح برسلها !... لا ... لا شىء يفسر المادة غير المادة ، ولا يكشف عن الروح غير الروح !... لا بد أن يلتحم صدر بصدر ، وتلتصق شفة بشفة ، حتى يخرج من ذلك الاحتكاك قبس من شعور خاص ، هو وحده الذى يرينا ما لا يستطيع الفكر المجرد أن يتخيل !... إنها على حق ، وإنه ليغالى فى تقدير الفكر !... وما هو سوى عين واحدة من عينى كياننا المطل على الحقيقة !... إذن لماذا أغمض العين الأخرى ، ولم يستخدم الجسد كما استخدم الفكر ، أداة للمعرفة ؟... ليس يدرى ... إنه فى علاقاته الجنسية — كما فى طعامه وشرابه — لم يكن يتناول غير القدر اللازم لخدمة فكره ... إنه لم يخطر له أن يجعل من تلك المآكل وليمة شهية ، ينقض عليها بأنيابه ، ويلتذها لذاتها ، ويحس كأن حلقه ينعم بمرور الطعام الفاخر فيه ، وملامسته له !... وكأن غشاء المعدة مرتاح بلذة الامتلاء ، والبطن سعيد بذلك الضغط الخفيف اللطيف على جدرانه اللينة !... إن كل جزء من جسمنا ، وكل عضو من

أعضائنا ، ـــ هو مخلوق حى ، له سعادته الخاصة به ، وهى سعادة بعيدة عن كل خيال ذهنى !...

وكما أن الأسنان تستعد وتنتعش وتقوى ، إذا قضمنا بها تفاحة ، كذلك كل طرف من أطرافنا يسعد بالقضم أو اللمس أو العناق ... حتى أصابعنا تنتعش إذا لمست جسما ناعما جميلا ... ولكن « راهب الفكر » لم يعط لأصابعه غير لذة لمس الكتب وإخراجها من خزائنها فى ظلام الليل !... كل شىء فى جسمه قد سخره لخدمة ذهنه !... ذلك الساحر الدجال الذى لم يصنع شيئا لأعضاء الجسم المستعبدة ، غير أن لفق لها لذات وهمية ... ونظر « راهب الفكر » إلى أصابعه نظرة إشفاق ، وكأنه يقول لها :

« صبرا ... صبرا على خداع ذلك الذهن الساحر !... » .

وكأنها ترد عليه قائلة :

« إلى متى هذه السخرية !... نريد أن نلمس شيئا آخر غير الكتب !... » .

يا لها من فتنة تستيقظ على مهل !... إنها بوادر الثورة تهمس من كل طرف من أطراف بدنه !... وإنه ليتمثل تلك اللحظة التى تهب فيها كل شعرة من شعراته صائحة : « فليسقط الفكر » ، وإذا كان « الراهب بافنوس » ، لم يصمد لهذه الثورة بإيمانه المتأصل العريق فطرح الإيمان ـــ أفيستطيع هو الصمود بالفكر ؟... والفكر ليس صلبا كالإيمان !...

فالإيمان قاطع ، لا يحتمل الشك ولا يقبل المناقشة والجدل ... ولكن

الشك هو نافذة الفكر ، التي تجدد دمه بهواء المناقشة والجدل !...

إن إيمان « بافنوس » حماه وذاد عنه حتى اللحظة الأخيرة !... ولكن الفكر ، باتجاهاته ، وتأملاته ، وآرائه ، وشكوكه ، — سيحاور الثوار ، ويفاوضهم من اللحظة الأولى !... وقد ينتهى به الأمر إلى الانضمام إلى ثورتهم ، والتماس الأعذار لها ، واختراع الحجج لتبريرها !... وقد يتزعمها ، ويقوم على رأسها ، ويسعى فى تنظيمها !... إذا حدث هذا فلا بأس ، ولكن من ذا يتنبأ بمصير ثورة ؟... إن نار الثورة تأكل فيما تأكل زعماءها ... إنها عقاب الطبيعة لكل طغيان ، حتى وإن كان الفكر والإيمان !... إن ثورة الأعضاء إذا شبت حقا فهى لن تقف فى جموحها أمام الفكر : وهو ساحرها القديم ، وسيدها العظيم !... إنها ستجتاحه فيما تجتاح ، حتى وإن لبس لها ثياب الذلة ، ولوح لها براية التسليم !... وهكذا مضى « راهب الفكر » فى تصور هذه الثورة ، وما تسفر عنه ، وخيل إليه أنه غرق فى لجتها وانتهى الأمر ... ونسى أنه لم يزل فى منطقة المعانى الفكرية ، على الرغم من نقده لها ، وشكه فيها ، وأنه لم يزل خاضعا لإفرازات الرأس وحده ...

ولبثت هى ترمقه فى صمت ، وكأنها أدركت — بغريزة الأنثى فيها — ما يجول فى خاطره ، وقرأت بعين خفية تلك اللغة الخفية التى لا يفهمها غير الأنسجة والخلايا !... ولعلها رأت فى وجهه وقتئذ ، لا ملامح الراهب المستنكر ، بل ملامح المفكر المتشكك !... إنها تراه فى أقرب أوقاته إلى التخاذل والتساهل !...

فانطلقت تقول :

— نعم !... إنى لا أعرف أى نوع من النساء قابلت فى حياتك !... إنك لم تخبرنى بذلك بعد !... ولكنى أؤكد لك أنك لم تصادف امرأة استطاعت أن تسيطر بجسدها عليك وعلى جسدك !...

فنظر إليها نظرة اطمأنت إليها ... وشجعتها على المضى فى كلامها ، فمضت تقول :

تلك التى تغمرك بقبلاتها ، فتحس كأن كل ذرة من ذراتك قد شربت وارتوت ...

فلم يجب ، فمضت تقول :

تلك التى تشعرك بأنها جوعى ، وأنها تريد لو تضعك فى جوفها بلحمك وعظمك ... إنى لأتخيلك مع هذه المرأة ... وقد عرفت كيف تثير فيك جوع الذئاب ، وأتصور أسنانك هذه وهى تضغط على لحمها الطرى !... إنك ستكون مخيفا ، رائعا لذيذا فى نفس الوقت !... وإنى لواثقة من ذلك ... وأعرف ما سيحدث كأنه حقيقة وقعت !...

ولزم هو صمته ، ولم تكن هى فى حاجة إلى كلامه ، فقد أفضت نظراته بكل شىء ، إنه فى تلك اللحظة كان أشبه الأشياء بسفينة عظمى ، وقفت فيها المحركات ، وقد أخذ بزمامها قارب صغير ، يقودها إلى داخل الميناء ... إنها أدركت منه وقتئذ أنه يدخل وئيدا وئيدا ميناء نفوذها ، فابتسمت له ابتسامة ظفر أو إغراء أو ابتهاج ... أو كلها مجتمعة ، لا أحد يدرى ... كل ما كانت تعلم — عند ذاك — هو أنها قد أفلحت فى

استدراجه إلى ميدانها !... ها هنا ، حيث أسلحة الغريزة تعينها ، فى إمكانها أن تقهره !... أما أن تذهب إليه فى ميدانه ، حيث يعتصم بحصون الفكر ، والكتب والأدب ، فقد باءت بالخيبة منذ الجولة الأولى ، وضحكت ضحكاتها الناعمة ، وأخذت فى حديث تافه ، وجذبت بحركة طبيعية لا تكلف فيها ولا إغراق ، طرف ثوبها فكشف عن أعلى ساقيها وحدجته بنظرة ناعسة من خلال أهدابها الطويلة علمت منها أن الدم قد صعد فى رأسه !... نعم ... لقد حدث ذلك حقا ... لقد رفع الثوار راية العصيان ... وبهذا صعد الدم الأحمر فى الرأس !... إن الفكر الآن محاصر ، والدم حوله فى كل مكان ... والحواس ، والخلايا ، والذرات والأعضاء ، — هى الآن صاحبة السلطان !...

وعندئذ نهضت كالغزال رشيقة خفيفة ، ونظرت فى ساعتها الصغيرة فى معصمها ، وقالت :

— أوه ... لقد تأخرت عن موعدى !...

ومدت يدها الرقيقة الملساء إليه تحييه ... وضغطت على يده ... فتناول هو يدها ولم يتركها ، وقال لها كمن يصحو من نوم :

— موعدك ؟...

فقالت بابتسامتها الخلابة ، وهى ترميه بتلك النظرة التى لا تقاوم :

— ألم أقل لك — عند مجيئى — إنى على موعد فى سهرة لذيذة ممتعة ؟!...

— مع رجل ؟!...

ــ طبعا ... ومع من إذن ؟...

قالتها بضحكة قصيرة لطيفة ، فترك يدها ، وقال متصنعا عدم الاكتراث :

ــ اذهبى إذن !...

فقالت بحنو :

ــ أيسوؤك هذا ؟...

ــ أنت حرة فى تصرفاتك ، لقد قلت إنك تريدين أن تنطلقى حرة تفعلين ما تشائين ... اذهبى إذن وافعلى ما شئت ، وألقى بنفسك فى أحضان كل رجل !... اذهبى !... اذهبى !... وألقى بجسمك بين ذراعى أى رجل !..

فرنت إليه لحظة ، ثم قالت بدلال :

ــ أراك قد غرت !...

ــ أنا ؟...

ــ إنى لست طفلة حتى أجهل الغيرة !...

ــ اذهبى ... لا أريد أن أراك !... لقد تم كل ما بينى وبينك ، ولم يبق ما يدعو إلى وجودك معى ، اذهبى إلى موعدك ، وإلى سهرتك اللذيذة الممتعة !...

ــ إنى ذاهبة ... ولكن ألا تريد أن تعرف مع من هذه السهرة ؟...

ــ لا ضرورة لأن أعرف !...

ــ هو رجل تعرفه !...

ــ هذا لا يعنينى !...

— إنه رجل ظريف جدا ... أأخبرك باسمه ؟...

— لا !...

— سأقول !...

— لا أريد أن أسمع ...

— أكتبه لك إذن ... أعطنى قلما وورقة !...

ولم تنتظر ... بل أسرعت ودنت من مقعده ، وأخذت تنبش أوراق المكتب بدلالها ، واستخرجت منها ورقة بيضاء ، وتناولت القلم ، وجلست بإحدى فخذيها على ساعد المقعد . فالتصق جسمها بجسمه ، وانحنت برأسها لتكتب فانحدرت بعض خصلاتها المعطرة على جبينه ... ثم تحركت فأحس أحد نهديها يلامس خده ، ويكاد من ضغطه الرقيق ينبعج بلطف ورقة ، كما تنبعج كرة المطاط لضغط أصابع اليد ، وشم رائحتها تملأ أنفه ، رائحة جسم الأنثى ممتزجة بعطورها !... إن لعرق المرأة وأنفاسها من الرائحة الذكية أحيانا ، ما يزرى بأى عطر مصنوع ، فهى رائحة طبيعية فى المرأة كما فى الزهرة ... ولكنها لا توجد فى كل النساء ، كما أن الشذا الطيب لا يوجد فى كل الأزهار !... وإن فيها لسرا تعرفه الطبيعة ، ولا تعرفه الصناعة ، هو الذى يجعل فى تلك الرائحة الطبيعية إغراء جنسيا لا يقهر ... ولم يستطع « راهب الفكر » أن يميز رأسه من قدمه ، فقد أمسى شيئا ليس له زمام ... ولم يفطن حتى إلى معنى كلماتها وهى تمازحه ، ولكن أذنه منتشية بحلاوة صوتها ، ولم يبد اهتماما بكلماتها التى تخطها فوق الورق ، ولكن عينه تلتهم تلك اليد الرخصة البضة !...

إنه لم يعد إنسانا مفكرا أو قابلا للتفكير ، فى أى صورة من صوره ، لا التافه منه ولا النافع ، إنما هو كتلة لحم ودم وأعصاب بغير قياد !... وكان الليل ساجيا جميلا ... والضوء القليل المنبعث من مصباح مكتبه ، يلقى أشعته الهادئة على وجه تلك الفاتنة ، وخصلات شعرها المنثور ، ونحرها وصدرها ، — فيبدو كأن كل ذلك فيها يتحرك ويلعب بفعل الظلال والنور !... ولبث هو بين كل هذا هادئ المظهر !... ولكنه فى داخله يهتز كالمرجل بل إنه كان فى هدوئه الخارجى ، وعنفه الداخلى ، كالقنبلة التى تنفجر فى ساعة معينة !... لقد كان يحس أنه لا بد من انفجاره ... ولكنه لم يكن يدرى متى على وجه التحقيق ؟... مجموعة أعصابه هى التى ستبت فى ذلك !... كل ما يعى هو أنه لم يزل فى نفسه منطقة تقاوم ، لتؤخر تلك اللحظة التى يجد فيها ذراعيه قد انطلقتا من تلقاء نفسيهما ، تطوقان هذه المرأة ليقطعها فمه تقبيلا !... ولكن على الرغم من هذا السكون الذى يسبق العاصفة ... فقد أدركت هذه المرأة كل شىء وفطنت إلى ما به !... وشعرت ما فى أفق نفسه ، كأنها طير من طيور البحر التى تحس بغريزتها الزوابع قبل وقوعها ...

بل لقد رأت منه هذه المرأة — فى صمته وسكونه وجموده — شيئا واهيا ، كتمثال من رمال ، يتداعى إذا لمس لمسة أخرى من أناملها !... وعندئذ لم تتردد ، ومالت نحوه بجسمها ، حتى أحس ثدييها الطرى كالفاكهة الناضجة يكاد يبلغ فمه ... وأدنت رأسها من رأسه ، وجعلت أنفاسها الحارة تلهب وجهه ... وهمست فى أذنه كنسيم الربيع بدفئه

الرطب المنعش ، وهي تريه ما خطت يدها على الورق :

— « حبيبى الذى بينى وبينه الموعد هو : أنت » ..

فى تلك اللحظة كانت يده قد امتدت بدون أمر منه تريد لخصر الفاتنة ، وشفتاه بدون أن تطيعاه قد تحركتا تبحثان عن ...

وإذا ... وإذا جرس التليفون يرن كأنه الرعد الصاخب فى فضاء الحجرة ...

وهنا ... وهنا انتفضا انتفاضة فصلت بينهما ... وأسرع هو إلى السماعة فتناولها ... وإذا هو الزوج يخاطبه بصوت يتهدج قائلا :

— « البقية فى حياتك ... ابن خالى توفى اليوم انطلقت فيه رصاصة طائشة وهو ينظف مسدسه ... أنا الآن فى « جراند أوتيل » ا... فى « حلوان » ... لإجراء اللازم نحو إخراجه ، وتشييع الجنازة ا... » .

وانتهت المحادثة ... ووضع « راهب الفكر » السماعة ، وقد تبدد كل ما كان فى نفسه وجسمه ... وعاد إليه فكره يقود خطواته ... ونسى الزوجة ... ولم يذكر إلا الزوج ومصابه بابن خاله ... ورأى الواجب عليه أن يذهب إليه فورا فى « حلوان » ، ليكون إلى جانبه وفى عونه ، فهو قد بلغه فى تلك الساعة بالمصاب ، وأخبره بمكانه ليدعوه بلطف إلى لقائه ... ونظر « راهب الفكر » إلى ساعة المكتب الصغيرة ، فإذا هى العاشرة والنصف ، فأسرع إلى حجرته الداخلية ، ليتأهب للخروج ورأى الزوجة واقفة تنظر إليه متسائلة عن الخبر الذى قلبه هكذا فى لحظة ، فقال لها بصوت أجش ولهجة سريعة :

— ابن خال زوجك توفى !...

— توفى ؟!...

ولم يلتفت إليها ... ويمم شطر باب الحجرة ، وهو يقول لها مع إشارة من يده :

— إنى خارج !... وداعا يا سيدتى !...

فعلمت أنه لم تعد هنالك فائدة ... وتركها ماضيا لشأنه وهو يخاطب نفسه هامسا :

— مات الرجل !... لعنة الله على النساء !... لعنة الله على النساء !...

١٦

الخـاتمة

فى ضحى اليوم التالى كانت جنازة « البكباشى » ابن خال الزوج تسير فى موكبها العسكرى إلى المقبرة !... وقد وضعوا نعشه فوق عربة مدفع ، ملفوفا فى العلم الأخضر ، وسارت جنود فرقته ، على جانبى الطريق ، ببنادقهم منكسة !... ووقع خطواتهم على الأسفلت يحدث صوتا منظوما متزنا ، فى ذلك الصمت الرهيب !... وكان يقطع الصمت بين آن وآن نغمات موسيقى الجيش ، تعزف لحن « شوبان » المحزن !... ثم تصمت هى أيضا ، لتدع دقات الطبل وحدها تلقى فى النفس روعة كئيبة ، وتغمر الموكب كله فى جو مهيب !... وكان « راهب الفكر » بين المشيعين ، يمشى مطرقا فى أحد الصفوف ، ورأسه نهب لأفكار شتى !... إن الناس حوله يعتقدون — ولا شك — أن الفقيد مات قضاء وقدرا ، لأنهم يجهلون ظروفه الداخلية ، ولكنه هو يكاد يوقن أنه انتحر بذلك « المسدس » !...

لقد أدرك ذلك منذ أن تلقى نعيه البارحة !... إن الزوج لم يقطع له برأى حتى الساعة ، فقد كان مشغولا بإجراءات الدفن ، ولكنه أخبره أنه

عاد إلى الفندق أمس ، ليأخذ أمتعته ، ويرى ابن خاله ويفضى إليه بما اعتزمه ، فوجده فى حجرته يفحص مسدسا له ... فارتاع لهذا المنظر ، وخامره منه شىء !... ولكن ابن خاله طمأنه قائلا : إنه يتسلى بتنظيف مسدسه ، وهذا أسهل من تنظيف شرفه ... ومزح معه لأول مرة منذ وقع فى أزمته الأخيرة !... وكان هادئ المظهر ، هدوءا يبدد كل قلق أو ريبة ، فتركه مؤقتا ، وذهب إلى حجرته يعد حقائبه ، وإذا طلق نارى يدوى فى الفندق كله ... فحدثته فى الحال نفسه بالكارثة ، وهرع إلى حجرة ابن خاله فألفاه صريعا !...

وهو لا يستطيع أن يقرر أكثر مما رأى ، ولكنه ختم قوله لراهب الفكر بنظرة ذات مغزى ، علم منها أنه يوقن مثله فى دخيلته بأن هذا التعس قد انتحر ، ولكنه لا يحب أن يفهم أحد ذلك ... ربما كانت تلك هى الحقيقة برمتها ، وربما كان الأمر قد وقع على خلاف ذلك !... ولكن الزوج بادر بحزمه ولباقته ، وحسن تصرفه المعهود فأخفى كل رائحة لمأساة عائلية ، وكل أثر ينم عن وجود صلة بين الموت والزوجة والأطفال !... ولعله فهم أن الميت قد آثر الانسحاب من الحياة ، عندما شعر بأنه عاجز عن علاج شكوكه ... وأنه مقبل على تحطيم أسرته ، وتلويث اسم الطفل البرىء ، الذى يرتاب فى نسبه ، وأنه فضل أن يجنى على نفسه ، ولا يجنى على غيره !... وإذا كانت تلك رغبته ، فلا أقل من أن تحترم وأن يوضع ستار كثيف على ما سبق وفاته من مؤثرات ، وما اكتنفها من بواعث !...

ورفع « راهب الفكر » رأسه ونظر إلى النعش أمامه ، ثم عاد فأطرق ،

ومضى فى تأملاته هامسا :

« ياالله !... ما أقوى ذلك الرباط المقدس عند الرجل !... إنه فى الحقيقة رباط الرجل بطفله ... وإن منبع القداسة فيه ذلك الدم الذى يجب أن يجرى بينهما نقيا ، فإذا تلوث أو تدنس ، أو داخله الغش ، أو خالطه التدليس ، أو مر عليه شبح الشك والارتياب !... فإن الرجل قلما يحتمل ذلك !... هذا ما لا تفهمه المرأة ، لأن كل طفل يخرج من بطنها هو لها ، دون حاجة إلى أن تفرز أو تميز بين دم ودم !... ولهذا قل أن تدرك معنى لقداسة ذلك الرباط !...

لا قداسة عندها لشىء إذا اصطدم بغريزتها ، أو وقف فى طريق شهوتها !...

وتذكر « راهب الفكر » ما جرى البارحة ، وما كاد يقع ... ياللخجل !... كيف استطاعت هى فى لحظة أن تنسيه كل شىء !... وأن تخرجه حتى على أبسط قواعد الأخلاق ، ومبادىء السلوك !...

كيف كان يستطيع أن يلقى زوجها وجها لوجه بعد ذلك ؟... هذا الزوج الذى احترمه ، ووضع فى يده أسراره ، ووثق به وبرأيه ولجأ إليه ، واعتمد عليه !... وجعل منه وكيلا له يفاوض الزوجة عنه ...

ماذا كان يقول فيه لو علم أن وكيله الأمين ، قد وقع هو الآخر فى أحضان زوجته ، ومثل عين الرواية المخجلة ، وقام بذات الدور الذى لعبه ذلك الممثل الموصوف فى الكراسة !...

ثم هو الذى كان قد احتقرها ، واقتلعها من نفسه وطرحها من

تقديره ، وعرفها غير جديرة بحبه ، ورآها عارية عن كل ما يدعو إلى احترامه !... كيف أغمض عينه عن ذلك فى طرفة عين ، وتحركت نفسه إليها ورغب فيها ، وتهيأ لعناقها ؟...

الحق أنه فى تلك الليلة كان قد شعر نحوها بعاطفة جديدة ، عاطفة لا علاقة لها بحبه الأول الرفيع ، فهى عاطفة أخرى بعيدة عن كل جو نقى ، فى إمكانها أن توجد مع وجود الاحتقار !... هى نوع من أزهار الحب التى تنبت فى المستنقعات !... لكن ... كيف حدث ذلك ؟... ما من ريب فى أنها هى !... هذا الحب الأخير هو صنعها هى ... ومن غرسها !... كما أن الحب الأول كان من صنعه هو وغرسه !...

هذا هو نوع الحب الذى تريد مثلها اليوم أن تثيره فى النفوس !... يا للمرأة !... ذلك الجهاز المشبع بالكهرباء ... الذى يلقى منذ مطلع الأجيال تيارات وموجات ، لا تلتقطها غير الغرائز ، فما العطور التى عرفتها المرأة منذ فجر التاريخ — بما تذيعه فى الجو من شذا — إلا إشارات لاسلكية تخاطب بها حواس الرجال ، وكذا النظرات والبسمات والتنهدات !... وكل ما هيئ لكى يحدث على البعد أثرا يطيش بالعقول . ولطالما حاول الشعراء أن يلتقطوا تلك الإشارات بنفوسهم الرفيعة ، وأن يفسروها بلغة النفس العليا ، ولكن ... هذا تفسيرهم هم ، ولا شأن له بما يرمى إليه جهاز الإصدار .

ولقد حاول سلطان الدين أن يصدر — من قبابه ومآذنه وأبراجه — تيارات مضادة ، يعالج بها الأمر ، ويخاطب بها العقل والقلب ، ويوعد

ويتوعد ، ويرهب ويرغب ، ويرعد ويبرق ، وكان لهذا بعض التأثير أيام أن كانت المرأة حبيسة خدرها وبيتها ، وجليسة أهلها ولداتها ... لم تصل بعد إلى فمها كلمة الحرية ... ولم تعرف بعد قدمها الطرق الصاخبة والمجتمعات الحافلة ... فكان إشعاعها مقصورا على التسلل من حجرة إلى حجرة أو من بيت إلى بيت ، وكانت تيارات الدين تطغى على كل البيوت وتسكت فيها كل إشارة ... أما اليوم فقد تركت المرأة العصرية البيت والحجرة لصوت الدين !... يدوى فيهما كيف يشاء ، ونزلت هى إلى الشوارع والحوانيت والمقاهى والملاهى !... وكل مكان ، فى كل حين ... تخطر بعطرها وزينتها وابتساماتها ونظراتها ... جهاز لاسلكى متنقل فى ثياب امرأة ، يلقى فى وجه كل عابر بموجاته التى لا تقهر ولا ترد !...

هكذا فى عصورنا الحاضرة ضعفت تيارات الأديان ، عن صدر تيار المرأة ، وشحبت عبارات النصح والإرشاد ولم يبق لها من الحرارة فى أغلب القلوب والعقول أكثر مما لأشعة الشمس فى ساعة الأصيل !...

لابد للمرأة إذن من موجات أخرى قوية ، تحول مجرى حياتها إلى ناحية رفيعة !... الآن وقد فتحت نوافذ الحرية الاجتماعية وأبوابها على مصراعيها ، — لا أمل فى قوة أى نور يأتى من الخارج !... إنه لن يبهر عينا ، ولن يفاجئ بصرا ، ولن يحدث أثرا !...

هنالك أمل واحد : هو أن يخرج هذا النور ، وتنبعث هذه الموجات من داخل المرأة نفسها على نحو جديد ، ذلك أن المرأة ستهزأ منذ اليوم بكل

رأى أو قول فيها يأتيها من بعيد ، ولن يكون هناك قيمة إلا لكل ما يصدر عنها هى ، ويخرج منها !... بل يجب أيضا أن يكون ما ينبع من داخلها قطعة من غريزتها ، وجزءا من طبيعتها !...

الأمل الوحيد معقود على شيء واحد : عاطفة الجمال !... إن المرأة منذ خلقت وظهرت من مبدأ الأجيال ، وفى أعماقها عاطفة ، هى عندها أقوى من الدين والعفة والفضيلة ... تلك هى رغبتها دائما أن تكون جميلة ، ذلك يفسر لنا قدم المرآة حتى قبل أن يعرف الزجاج ، فإذا استطاعت المرأة أن تدرك أن هنالك نوعا من الإشعاع يمكن أن يضىء فيها ، فيمنحها جمالا لا تستطيعه المساحيق ولا اللآلئ ، فإن المشكلة تكون قد حلت !...

إن الحسناء المزينة المصنعة ، هى كالمصباح البديع المصنوع من الذهب الإبريز ، ولكن أين النور ؟... النور شيء معنوى !... إنه ليس اللهب ، وليس الشرر ، إنه النور ، ذلك الإشراق الهادئ الطاهر الذى لا يحرق ولا يؤذى ، ذلك الشيء الذى ليس بمادة تلمس ، ولكنه يبعث فى النفس متعة لا تدنس ، ذلك السر الذى يمكن أن يودع فى المرأة كما أودع فى الزهرة ، فأضاءها بألوان تلقى الخشوع عن بعد فى نفوس الناظرين وجعلها تعبد لذاتها على عرش آنيتها ، وصانها من عبث الانتفاع المادى الرخيص ، الذى لا يرى فيها غير نبت يصلح للاعتصار ثم يلقى ، وثمرة تقتطف للاستقطار ثم ترمى !...

إذا حرصت المرأة على اقتناء ذلك النور الداخلى ... فقد انقلب

جهازها اللاسلكى نعمة كبرى ... تتحرك وتتنقل فترسل حيثما تسير موجات من الأضواء العلوية تنير القلوب ، وتيارات من الأفكار السامية تلهم النفوس ، وإشارات تخاطب الجوانب الرفيعة فى الإنسان !

لكن ... هنالك معضلة ... من الذى يمهد لها سبيل ذلك !... إن أدوات إشعاعها المادية يهيؤها لها أناس مختصون ، هم : صناع العطور ، وصناع الحلى ، وتجار المساحيق !... لا بد من مختصين آخرين يهيئون لها أدوات إشعاعها الروحى !...

هنا تبرز مهمة « رهبان الفكر » !... نعم !... كيف نسى ذلك ؟... أوَليس هو الذى قال يوم زارته أول مرة : إنه يريد أن يجعل منها عروسا تمرح بشعرها المرسل ، وروحها المضىء فى مروج الفكر الرحبة المزهرة ، وأن يجعلها ملكة ، تعرف كيف تمس بصولجان روحها نفوس الرجال ، كما يمس المرود العين ، فإذا تلك النفوس قد تفتحت لترى ما لم تر !... وإذا النشاط قد دب فيها فتثمر القرائح وتنهض الهمم ، وإذا الخير قد فاض ، والحياة قد نبضت فى الأشياء والكائنات !...

أوَلم يقل إنه يرجو لها روحا تضىء داخل نفسها البلورية ، فينطق لسانها بالحديث الرفيع ، وتطلق من صدرها المشاعر العالية والأفكار السامية ؟... إذن ما الذى جرى ؟... ها هو ذا رجل الفكر قد أخفق كما أخفق رجل الدين ؟... كلاهما قد أحسن الظن بطبيعة المرأة أكثر مما ينبغى ، ونسج حولها أضغاث أحلام !...

ولم يفق « راهب الفكر » من هذه التأملات إلا أمام المسجد ، فقد

وقف سير الموكب ، ونقل الجثمان إلى الداخل حيث صلوا عليه ، بينما انتحى أهل الفقيد ناحية يتقبلون تعزية المشيعين !... وانفضت أكثر الجموع منصرفة بعد ذلك ، ولم يبق إلا الأقرباء والأخصاء فقد رافقوا الراحل إلى المدافن ، وكان « راهب الفكر » بالطبع بين هؤلاء ، فلبث معهم حتى أنزلت الجثة القبر ، وحيتها جنود الفرقة التحية العسكرية الأخيرة بإطلاق واحد وعشرين طلقة مدفع ، وجعل اللحادون يهيلون عليها التراب ، والمقرئون يلقنون الميت ما ينبغى أن يقول للملائكة عند اللقاء ، ويصيحون به :

« يا عبد الله هذا آخر يوم لك فى الدنيا ، وأول يوم لك فى الآخرة !... » .

تأمل « راهب الفكر » هذه الصيحة فيمن تأملها من الحاضرين ، والتفت ينظر إلى أثرها فى وجوههم الواجمة الخاشعة ... لا ريب أنهم قد أدركوا منها جميعا تلك الحقيقة الرهيبة :

ما أقصر أيام الدنيا بالقياس إلى أيام الآخرة !!...

أما هو فقد أدرك منها حقيقة أقسى وأرهب ... ما أقصر حياة الجسد بالقياس إلى حياة الروح !... كم من الأعوام عاش جسد هذا الرجل ؟... ثمانية وثلاثون عاما ؟... ولكن روحه ستعيش الأبد كله ... هذا الجسد بحيويته وخلاياه وأنسجته وإفرازاته وملذاته وحرارته وفورته ... كل هذا قد تفكك وتحلل واختلط بالتراب ، وصب عليه الماء ، وعجنت ذراته بالغبراء !... فلن تستطيع ذرة بعد اليوم أو خلية أن تثور على الروح

أو تطالبها بمتعة الحس ، أو لذة من لذات اللحم والدم !... يا له من انتصار للروح رهيب !... إذن كانت الخلايا على حق وهي تثور في إبان قوتها وعنفوان توقدها ؟...

إنها كانت تعلم مصيرها المخيف ... وتعد أيام سلطانها عدا ، وتدرك أنها ذرات ، لا في جسم الإنسان ، بل في بحر الزمان ومحيط الأبد ، الذي تمخر فيه الروح إلى غير حد !... إذن فيم كانت الروح تنافسها وتحسدها على أعوام لن تتجاوز الستين ، أو الثمانين أو المائة !... ولماذا لا تدع لها هذه الأعوام القليلة الضئيلة ... ما دام أمامها هي الخلود !...

لماذا هذه المعركة بينهما دائما في هذا الميدان التافه : « جسم الإنسان الهش قصير الأجل ؟... » علام هذا النضال القائم بينهما خلال حياته المادية الضئيلة الخطر ؟... لماذا لا تترك الروح هذه الأعوام المعدودة للمادة ، تحياها كما تريد في سلام ؟!... ليس يدري « راهب الفكر » ما الذي كان يهتف داخل نفسه بهذا الكلام ؟... أتراها حواسه المقهورة ، راعها ذلك المنظر فنهضت تحاول الثورة من جديد !... الواقع أنه وجد نفسه بعدئذ يفكر في تلك المرأة مرة أخرى !... ما الذي يحول بينه وبينها الآن ؟... لماذا هذا التزمت والورع الكاذب ؟... لم لا يتخذها خليلة ؟... ليست هي التي تعارض في ذلك !... وإن لم ينعم بها هو فإن غيره سينعم بها ولا جدال !... ولا شيء يوقر ضميره ، فليس هو الذي أغراها ، ولكنها هي التي تغريه ، أما زوجها فلا يهمه أمرها بعد اليوم ... وقد انقطع ما بينهما بالطلاق ، فهي الآن امرأة حرة في نظر المجتمع !... لها أن تفعل ما تشاء ... وليس في اتصاله بها الآن أي مساس بكرامة الزوج أو تهجم على حق له !... ثم من الذي سيخبره ؟... إن هذه المرأة معه

ستكون محاطة بجدران من الكتمان ، لن تتوفر لها مع رجل آخر !... إنه سيكون أحرص على سمعتها وسمعة الزوج من أى خليل آخر !... ولو كان لهذا الزوج أن يفاضل فى هذا المجال لما اختار غيره هو !...

تلك هى الخواطر التى طافت بنفسه ، ولم يغادر بعد فناء المقبرة ... وهنا لمحت عينه فجأة صديقه الزوج الحزين المسكين على مقربة منه ، وقد لمعت فوق خده دمعة !... فثاب إلى رشده ، ونظر يمينا وشمالا ، كأنما خيل إليه أن الناس قد خرقوا بنظراتهم جمجمته ، ونفذوا إلى أفكاره ... ويا لها من أفكار !... سيعجبون ولا ريب كيف تخطر على بال مثله فى « مقبرة » !... ولكن لحسن الحظ !... ربما خلقت الجماجم من عظام سميكة لتحجب أحيانا مثل هذه الخطرات عن العيون ... لا ... لا ينبغى أن يفكر هكذا ... حتى لو رضى الزوج أن تنشأ علاقة كهذه بينه وبين تلك المرأة ، فإن هذا الرضا لا يبرر عمله ، ولا ينزع عنه صفة القبح !... إن اللذة الحسية ليست كل اللذة !... هنالك أيضا اللذة المعنوية ... إذا استمعنا إلى صياح حواسنا وخلايانا وحدها ، وصدقنا مطالبها لما كان الإنسان أكثر من حيوان !... ولكن هنالك لذات لا تعرفها أعضاؤنا المادية !... إن للتضحية فى سبيل الواجب لذة ، وللحرمان فى سبيل الشرف لذة ، إن الحياة بغير القيم المعنوية هى حياة تافهة لا معنى لها !... وماذا يكون الفارق بين « راهب الفكر » وثور فى حقل إذا فقد اللذات الروحية ، ولم يكن له غير لذات الأنسجة والذرات ؟!... كلا !... إن الروح فى حياتنا القصيرة ليست مصدر شقاق وشغب وشقاء ... تلك مزاعم الجسد !... ولكنها منبع سعادة من نوع آخر !... ولو آمنت المرأة بأن كبح جماح النفس من أجل واجب الزوجية يمنحها من السعادة

الروحية ، ما يعوض عليها ملذات البدن ، — لما استهانت برباطها المقدس لحظة واحدة ، فكيف إذن « براهب الفكر » هو الذى يعيش للجمال الفكرى ، ويبصر بنور الروح ، أيستهين برباطه المقدس ، الذى يربطه بالقيم المعنوية ؟!

وكان الزوج قد اقترب منه ، وأخذ بذراعه فى صمت فسار معه إلى خارج المقبرة ، وقد انتهت المراسيم ، وأخذ الحاضرون فى الانصراف !...

ودعا الزوج « راهب الفكر » إلى سيارته ، وفى أثناء السير بدا منه تلميح إلى مسألة زوجته ... وما تم فيها ، فأخرج « راهب الفكر » الورقة التى وقعتها الزوجة ، وقدمها إليه ، فقرأها ودسها فى جيبه ، وتناول يد صديقه وضغط عليها ضغطا ينم عن شكره وتقديره لهذا الصنيع !... وخطر « لراهب الفكر » شبح الزوجة ، وخاف أن تعاود المجىء إليه متذرعة بحجة من الحجج ، لتحاول فتنته مرة أخرى !... وقد يضعف أو يلين لشيطان سحرها وغوايتها فما يجدر به أن يفعل ؟... لا بد من تدبر الأمر منذ الآن !...

إن خير حل هو أن يغادر « القاهرة » فترة من الزمن ، تكفى لدفن كل هذه الحوادث تحت غبار النسيان ، وتمكن كل ذى شأن فيها من الانصراف إلى طريقه فى الحياة !...

ووقفت السيارة حيث أراد « راهب الفكر » أن ينزل ، فمد يده مودعا لصديقه الزوج قائلا :

— إنى مسافر صباح الغد إلى الريف !... أمكث فيه شهرين أو ثلاثة ...

* * *

وعاد « راهب الفكر » بعد شهور إلى « القاهرة » بنفس صافية ، وروح راضية ... وقد علم من خادمه بما توقع قبل سفره ... فقد حضرت تلك المرأة مرتين فى الأسبوعين الأولين ... ولما أيقنت أن سفره سيطول حقيقة ، ذهبت إلى غير عودة ، وجلس « راهب الفكر » إلى مكتبه من جديد مستأنفا أعماله الأولى ... وقد اختفت تلك الزوجة من محيط حياته اختفاء تاما ، فلم يعد يسمع عنها شيئا ، ولم يرد أن يزعج الزوج فيبدأ هو بطرق بابه ، ولعله قد نسيه أو أحب أن ينساه ، لينسى الظروف القاتمة التى عرفه فيها ، فليس هو — على أى حال — الذى يذكره بما كان ، ومرت الأيام ... وإذا هو يرى صورة تلك المرأة وأخبارها بارزة فى صفحات المجلات ، وأخبار المجتمعات ، وقد تزوجت شخصية معروفة بالتفاهة وقلة الذكاء ، فأدرك أنها قد ظفرت أخيرا بالزوج المثالى للمرأة العصرية ...

أما هو فقد رجع إلى عادته السابقة ، يفض رسائل قرائه فى الصباح باسم الثغر ، هادئ الأعصاب وإذا هو بعد زمن قليل قد وقعت فى يده رسالة بين البريد ارتجف لها :

إنها من امرأة تسأله أن يحدد موعدا للقائها ، لأنها تريد أن تحادثه فى شأن من شئون الأدب والفكر !... فصاح فى نفسه :

« لا ... لا ... » كفى !... ألم يعرفهن ؟!...

وضغطت أصابعه على الرسالة يريد أن يمزقها ، ولكن ... ولكنه ثاب إلى رشده قائلا :

الشجاعة ليست فى تجنب مزالق الجسد ، وتحاشى مواطن الزلل ، بل فى مواجهتها بمصباح الحقائق ونور المثل العليا !...

رقم الإيداع ٢٠٤٢/٨٨ الترقيم الدولى ٥ — ٠٣٦٩ — ١١ — ٩٧٧

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

الثمن ٣٢٥ قرشا